موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية



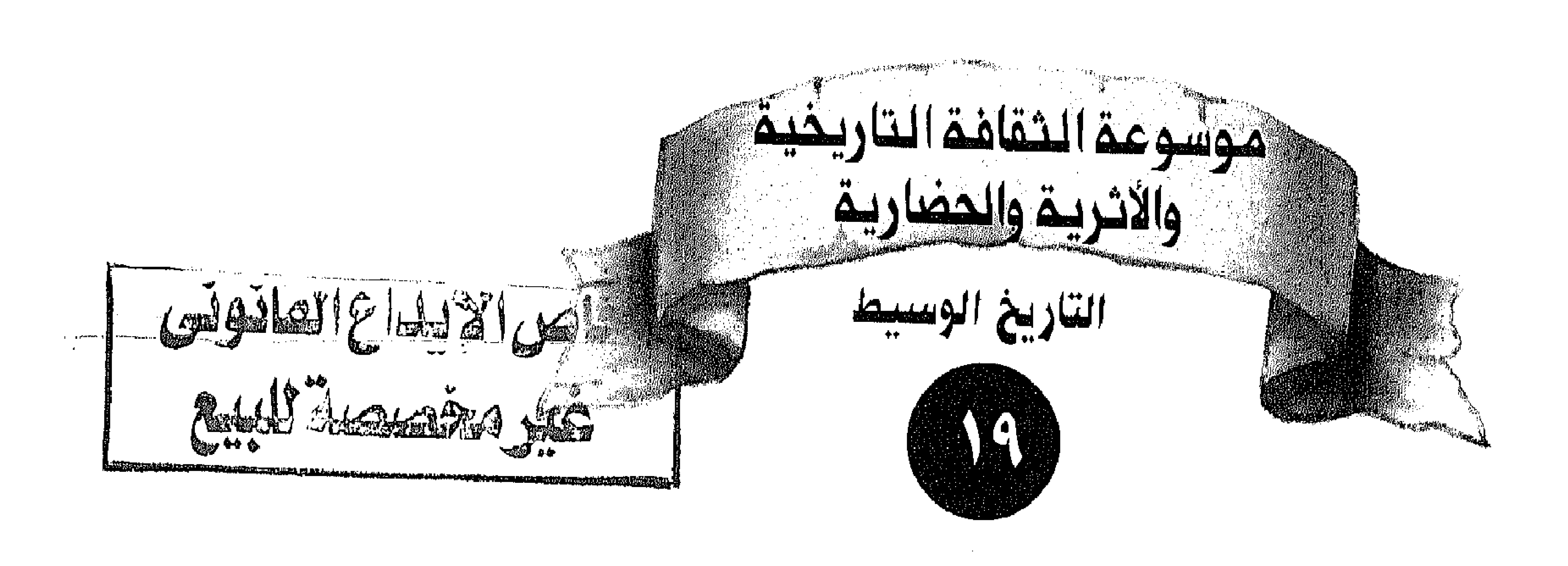
الملك الكامل الأيوبى





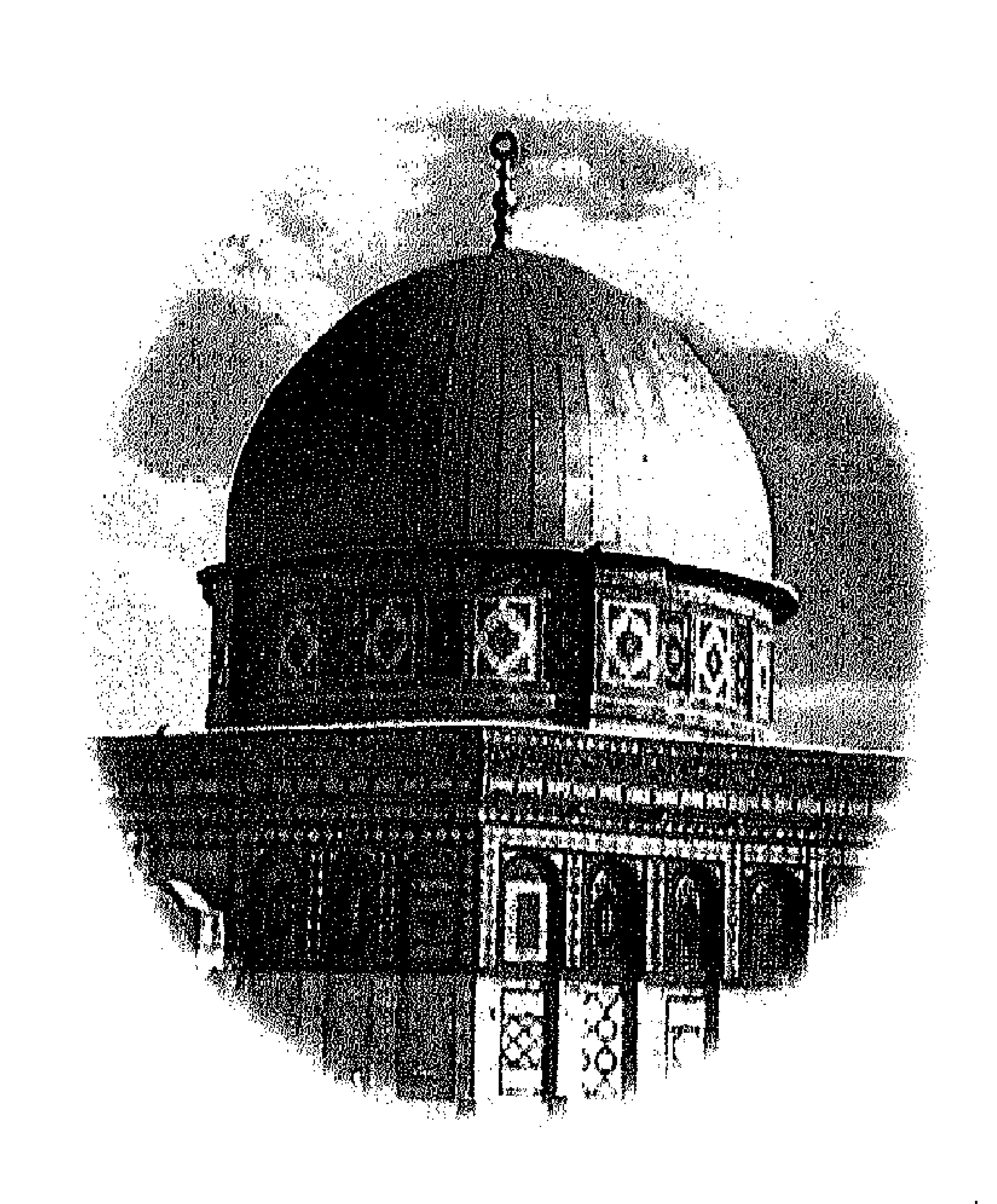
أ.د. رأفت عبد الحميد

إهــــــداء٢٠٠٨
دار الكتب و الوثائق القومية
القاهرة



الملك الكامل الأيوبى

تأليف
د. رأفت عبد الحميد
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
عميد كلية الآداب - جامعة عين شمس سابقا



مسجد قبة الصخرة

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى
٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة
ت: ٢٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥
٦ أ شارع جواد حسنى - ت: ٢٣٩٣٠١٦٧
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com



زهرية خزفية باسم نور الدين محمود

موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

الإشراف الفنى
محيى الدين فتحى الشلودى

التصميم والإخراج على الكمبيوتر
منى حامد عمارة

٩٥٦,٥٤ رافت عبد الحميد.
ر أ م ل الملك الكامل الأيوبى/ تأليف رأفت عبد الحميد. ـ القاهرة: دار الفكر العربى، ٢٠٠٦م.
أ-د ٧٥ص: صور؛ ٢٤ سم. - (موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية. التاريخ الوسيط؛ ١٩).
ببليوجرافية: ص٧١ -٧٤ .
تدمك: X - ٢١٣٢ - ١٠ - ٩٧٧ .
١ - الملك الكامل والحملة الصليبية الخامسة. ٢- الملك الكامل والقدس. ٣- الملك الكامل والإمبراطور فردريك. أ- العنوان. ب- السلسلة.

دار الفكر العربى

رقم الإيداع: ٨٣٧٧ / ٢٠٠٦

تنفيذ وطباعة الكتاب: مطبعة البردى بالعاشر من رمضان

جميع المراسلات والاتصالات على العنوان التالى:

دار الفكر العربى

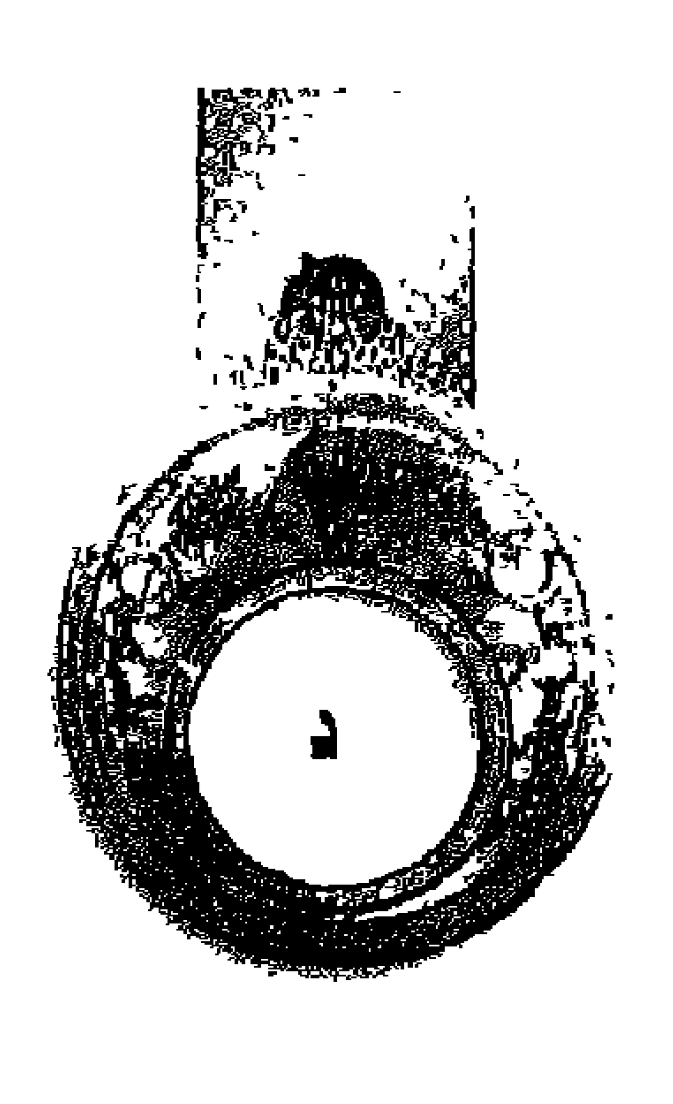
موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت: ٢٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥

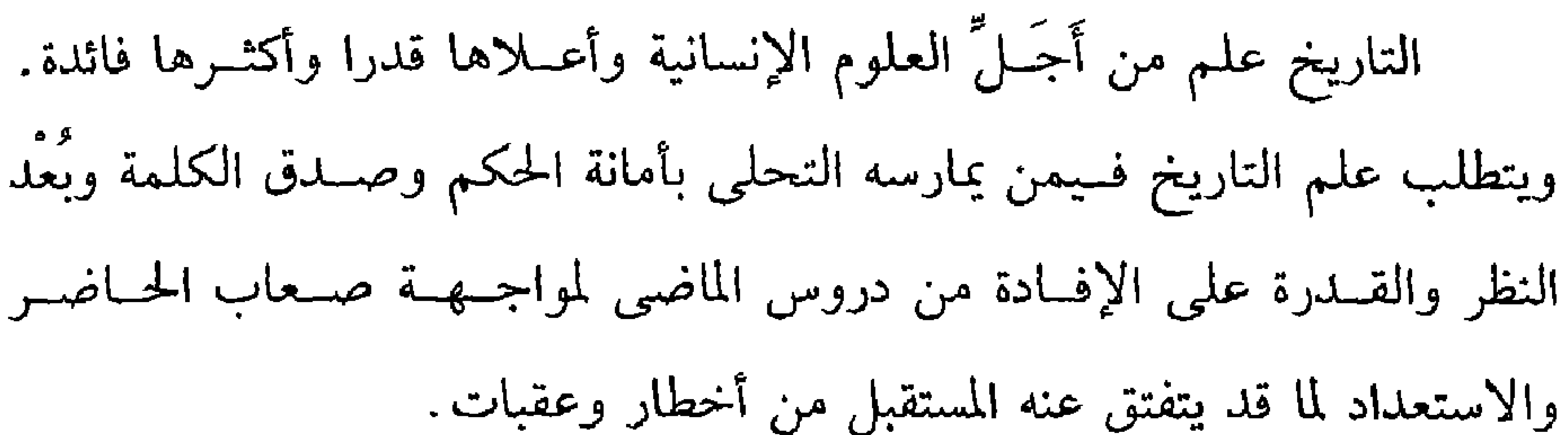
www.darelfikrelarabi.com

INFO@darelfikrelarabi.com



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم السلسلة



التاريخ علم من أَجَلِّ العلوم الإنسانية وأعلاها قدرا وأكثرها فائدة. ويتطلب علم التاريخ فيمن يمارسه التحلى بأمانة الحكم وصدق الكلمة وبُعْد النظر والقدرة على الإفادة من دروس الماضى لمواجهة صعاب الحاضر والاستعداد لما قد يتفتق عنه المستقبل من أخطار وعقبات.

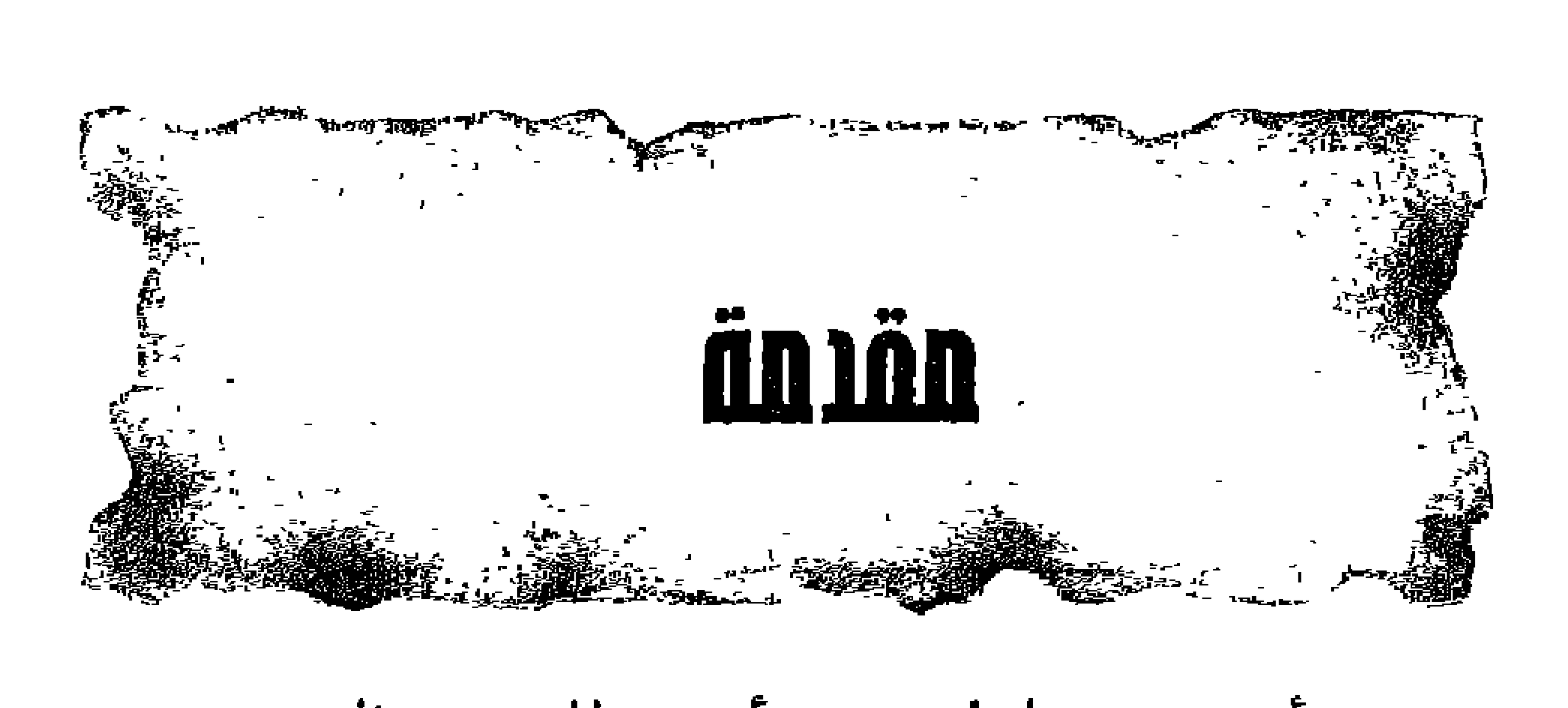
إن الروايات التاريخية قد تتشابه فى بعض أجزائها على مدى الدهور، ولكن التاريخ لا يمكن أن يعيد نفسه، بمعنى أن تتطابق أحداثه مع بعد المسافة بين حدث وآخر. فالإنسان هو الإنسان بكيانه الجسدى ومشاعره النفسية وتطلعاته وطموحاته.. على مر العصور، ولكن الظروف المحيطة به تتغير وتتبدل من عصر لآخر. وغالبا ما يتخذ هذا التغيير مواقف جديدة أو مسيرة مختلفة تسهم فى تحويل نظرة الناس إلى الحياة. وبدراسة التاريخ يمكن الوقوف على ما مر به الإنسان من تجارب وما يمكن أن يكون قد وقع فيه من أخطاء، وكيف يتجنبها فى الحاضر والمستقبل. وهذا ما عبَّر عنه بعض الحكماء بقوله: «من وعى التاريخ فى صدره، أضاف عمرا إلى عمره».

وقد أدرك هذه الحقيقة كثير من الهيئات الثقافية، فجعلوا للتاريخ حقه من الاهتمام والرعاية، وحرصوا على رعاية جمعه وحصاده وأحلوه فى مكانه اللائق.

وتأتى مؤسسة **دار الفكر العربى** التى أسسها الأستاذ/ **محمد محمود الخضرى**، التى تنهض بدور ملموس فى مجال خدمة الثقافة العربية. والتى وضعت مشروعا للثقافة التاريخية، واستعانت فى التخطيط لهذا المشروع بعدد من صفوة أساتذة التاريخ المتخصصين داخل الجامعات العربية وخارجها. كما وفرت الدار لهذه السلسلة الإخراج الفنى والتصميمات، وكذلك المراجعة اللغوية لخروج هذه السلسلة بالصورة التى تجدونها أمامكم.

وإن أسرة الدراسات التاريخية ليسعدها أن تقدم هذا الكتاب الذى يصدر عن **دار الفكر العربى** ضمن هذه السلسلة، سائلين لها دوام التوفيق فى خدمة الرسالة والنهوض بالأمانة.

أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور

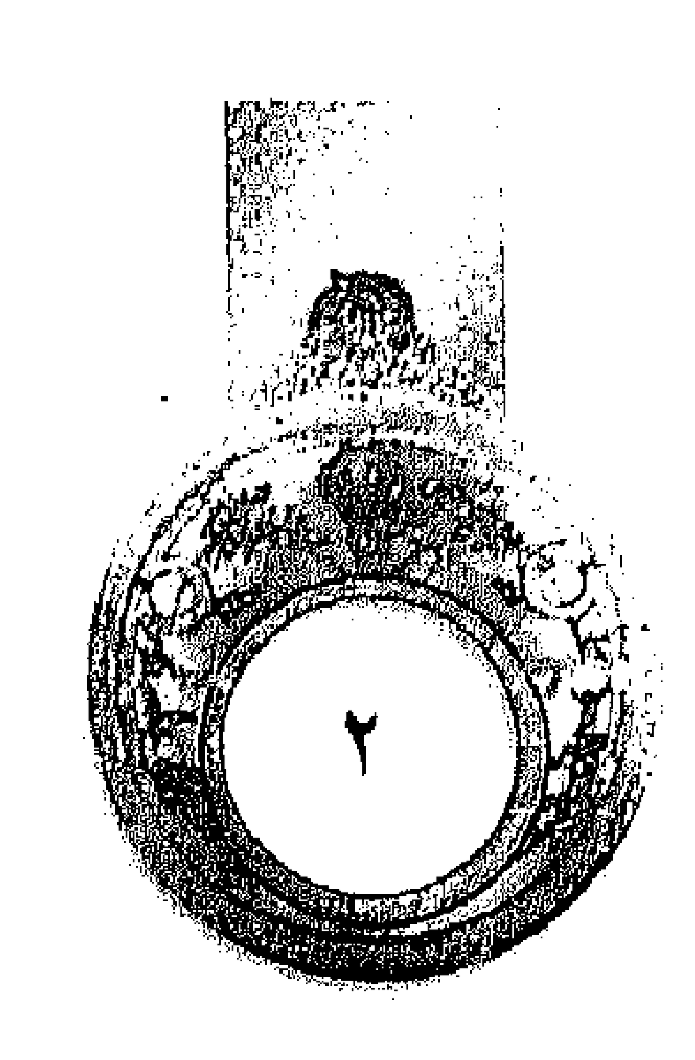


١

لم يتعرض أحد من ملوك بنى أيوب للنقد والتجريح من جانب معاصريه واللاحقين، مثلما تعرض له الملك محمد الكامل بن العادل سيف الدين أيوب. ولم يحظ واحد من سلاطين هذه الدولة بالثناء والتقريظ، باستثناء مؤسسها الناصر صلاح الدين، كما حظى الملك الكامل محمد!! والغريب فى الأمر أن جانبا كبيرا مما امتدح به الكامل، كان فى الوقت نفسه عاملا أساسيا فى قدحه.

رثاه ابن خلكان بقوله: «كان سلطانا عظيم القدر جميل الذكر محبا للعلماء متمسكا بالسنة النبوية، حسن الاعتقاد معاشراً لأرباب الفضائل، حازما فى أمره لا يضع الشىء إلا فى موضعه من غير إسراف ولا إقتار». وحدثنا عنه سبط بن الجوزى فقال: «. . . كان شجاعا ذكيا مهابا. . . يثبت بين يدى العدو، ولما نزل الفرنج على دمياط ما أبقى قلما فى خزائنه وذخائره. أما عدله فإليه المنتهى وفضله فهو المشتهى». ويضيف إلى ذلك أبو الفدا: «. . . وكان الملك الكامل ملكا جليلا مهيبا حازما حسن التدبير، أمنت الطرق فى أيامه، وكان يباشر تدبير المملكة بنفسه. . . وينظر فى أمور الجسور عند زيادة النيل وإصلاحها، فعمرت فى أيامه ديار مصر أتم العمارة». ولم يبعد ابن كثير عن هذا كثيرا عندما قال: «أوصى إليه أبوه (العادل سيف الدين أبو بكر) لعلمه بشأنه وكمال عقله، وتوفر معرفته، وكان ذكيا مهيبا ذا بأس شديد، عادلا منصفا له حرمة وافرة، وسطوة قوية. . . والطرقات فى زمانه آمنة، والرعاية متناصفة لا يتجاسر أحد أن يظلم أحدا». ويشرح المقريزى ذلك بقوله: «كان (الكامل) حازما سديد الآراء، حسن التدبير لممالكه، عفيفا عن الدماء، وبلغ من مهابته أن الرمل ـ فيما بين العريش ومصر ـ كان يمر فيه الواحد، بالذهب الكثير والأحمال من الثياب، من غير خوف. . . وكان يباشر أمور الملك بنفسه». ويزيد ابن أيبك الدواداري المسألة هذه وضوحا حين يقول: «وكان (الكامل) إذا سافر لا يجسر أحد أن يتناول من فلاح بيضة ولا عليقة بغير حقها، وربما شنق من الجند على شىء من ذلك!».

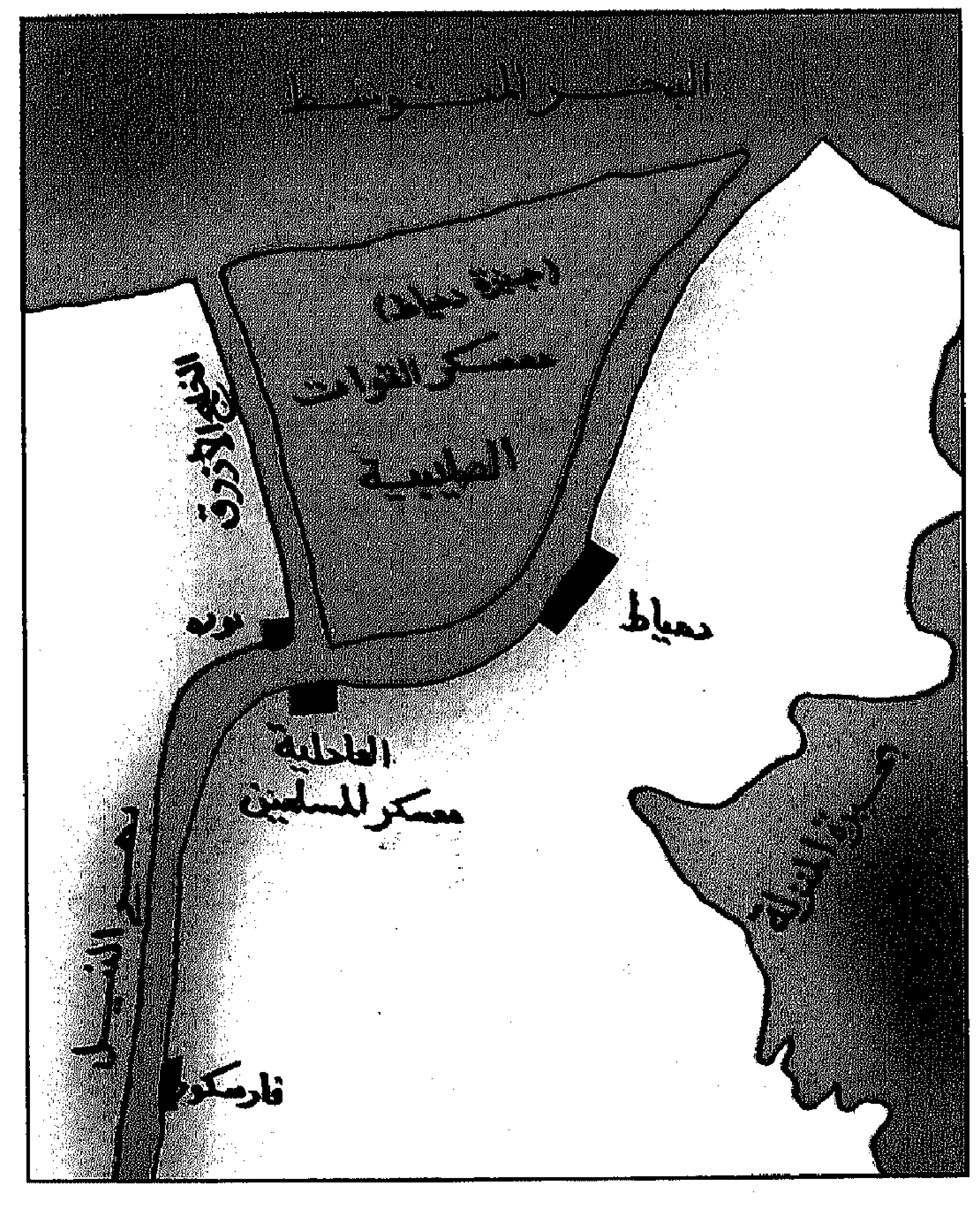
أما المؤرخ المعاصر ابن واصل، والذى كان قريبا دائما من دوائر القصر السلطانى، وخاصة زمن الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل، فإنه جمع ذلك كله فى عبارات بليغة ظلت المعين الذى نهل منه كل من كتبوا عن الكامل، وفى مقدمتهم بالطبع من قدمنا الآن ذكرهم وأقوالهم، قال ابن واصل: «كان (الملك الكامل) ملكا جليلا، حازما مهيبا، سديد الآراء، حسن التدبير



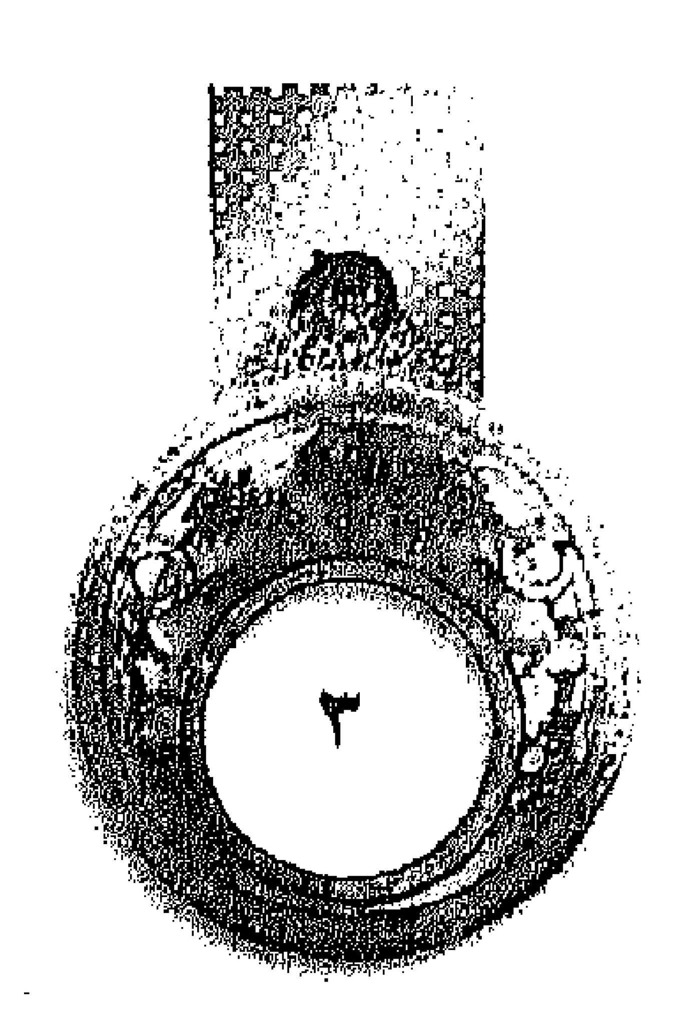
لممالكه، عـفيفـا عن سفك الدمـاء، حليما، ومع هذا الحلـم العظيم، كان عظيم الهيبة... يباشر الأمور بنفسه... ويخرج فى زيادة النيل، وينظر فى الجسور وإصـلاحها، ويرتب على كل جسر من الأمـراء من يتولاه، ويجمع الرجال لإصلاحـه وعمله، ثم يشرف على الجسـور بنفسه، فأى جسر منها اضطرب بتفريط من يتولاه عاقب المتولى له أشـد العقوبة، فعمرت فى أيامه ديار مصـر عمارة كـثيـرة» وقال مؤرخنا فى رثائه شـعرا كـان من بين أبيات قصيدة:

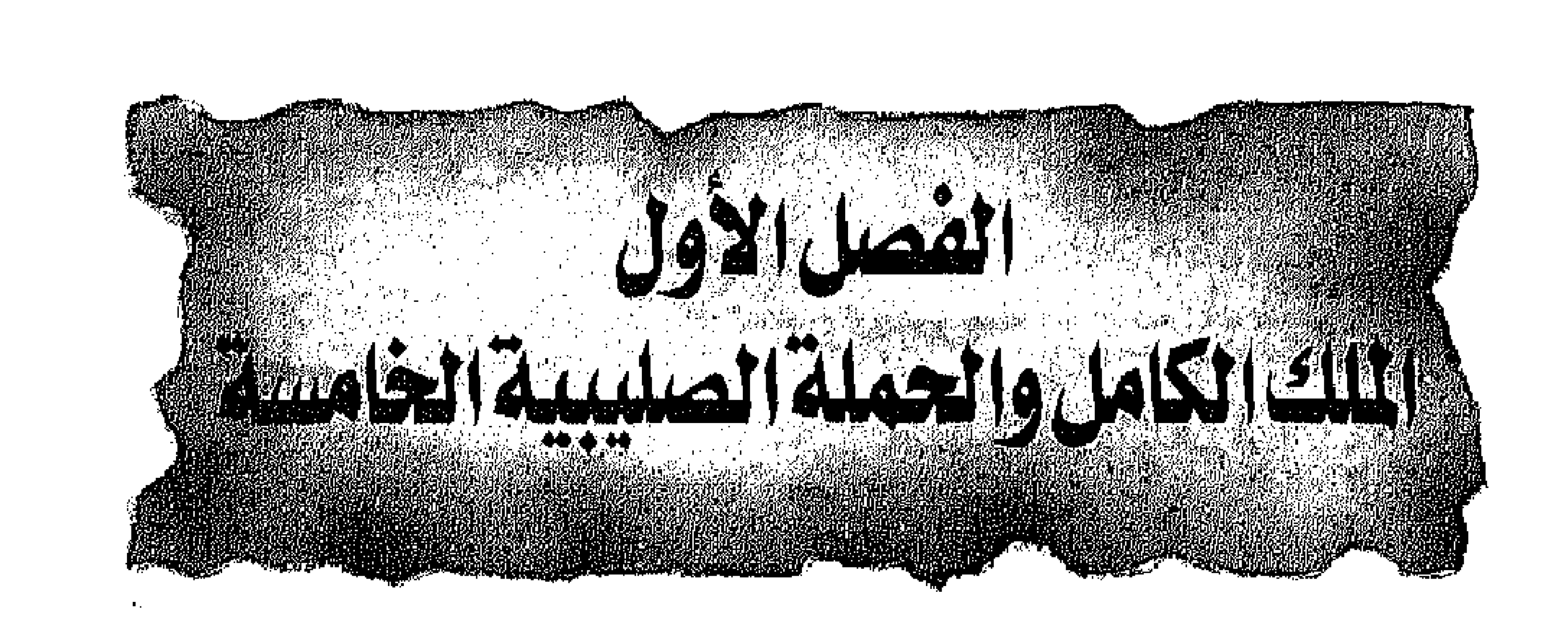
ولو خلد الملك العظيم جلاجلا	حوى الملك وانقادت إلى أمره الأمم
لخلد فيـنا الكـامل الملك الذى	له خضـعت غُلبُ الممالك والقمم
ولكن قضـاء الله ما عنه مَعْدِل	ولا موئل مما بـه اللهُ قـد حـكم
فمن بعده حار الدليل وأظلمت	صبـاح المعالى وانقضت دول الكرم

أما مـا كان يتـصف به الملك الكامل من حب لـلعلم والعلمـاء، وسعـة الاطلاع، وإلمام كبيـر بفروع المعرفـة الإنسانيـة، وتنوع الثقـافة، فحـدث عنه ولا حرج، كمـا حدث عنه معاصروه، وسوف يكون لنا معه من بعـد لقـاء حـول هذا الجـانب، والأثر الكبيـر الذى تركـه ذلك فى تشكيل فكره وتكوين شـخصـيتـه. وأمـا ما كـان من أمر جـهاده ضـد الصليبـيين، فهذا هو بيت القصـيد، والمحور الذى من حـوله يدور الجدل وتكثر الأقـاويل حول مـا الذى فعله الكامل؟. وهل كان مخطئا أم حالفه الصواب؟



مواقع قوات الجيش المصرى والصليبى قبل سقوط دمياط
نقلا عن «محمود سعيد عمران، الحملة الصليبية الخامسة»





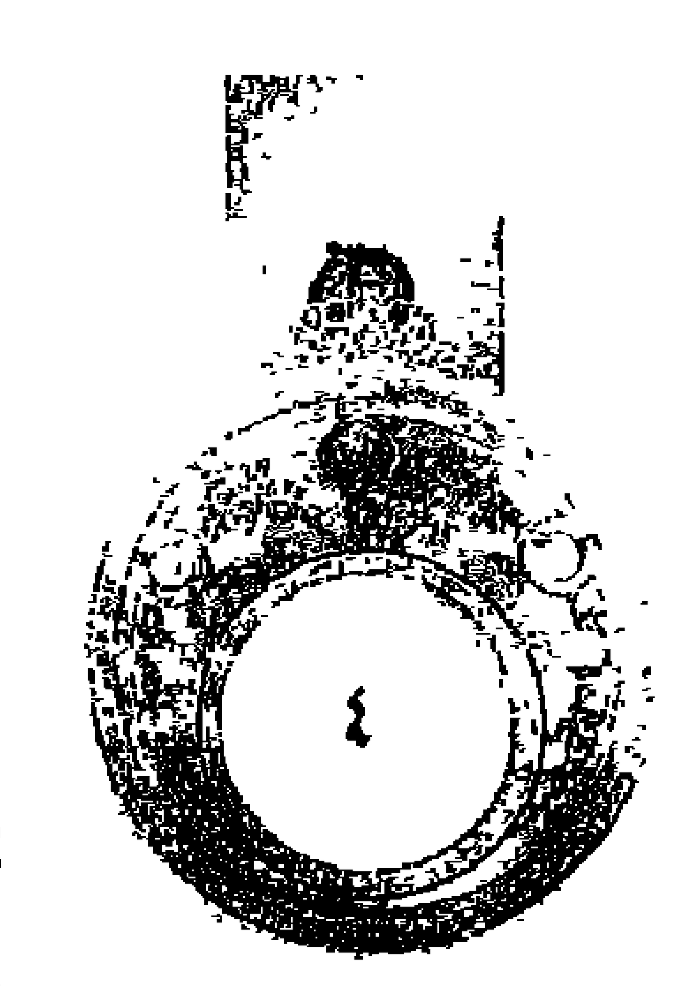
الفصل الأول
الملك الكامل والحملة الصليبية الخامسة

لم يشفع للملك الكامل كل ما خلعه المؤرخون عليه من صفات سقناها، وتحلى بها؛ ولأن كثيرا منهم ومن اللاحقين عاملوه فى مواقفه من الصليبيين بمعزل عن سياسته وإدارته لشئون دولته بصفة عامة، وكان اللوم الذى وجه إليه هو «الإفراط» فى عرض الصلح على الصليبيين إبان الحملة الصليبية الخامسة، و«التفريط» فى القضية برمتها لصالح الإمبراطور فردريك الثانى الذى قاد ما يسمى بالحملة الصليبية السادسة. وهنا سوف نحاول جاهدين بكل ما وسعنا الطاقة مؤملين فى التوفيق، أن نجلو حقيقة الأمر فيما يتعلق بـ«الإفراط» و«التفريط» اللذين اتهم بهما الكامل، وذلك من خلال قراءة نقدية جديدة للمصادر التاريخية المعاصرة واللاحقة، والمراجع الحديثة، آملين أن نقترب ولو بقدر ما من الحقيقة التاريخية.

ولن نخوض فى تفصيلات الأحداث العسكرية التى جرت بها وقائع الحملتين الصليبيتين، الخامسة والسادسة، فهى مبسوطة كل البسط على صفحات الكتب التى تناولتها، ولكننا سنقفز فوقها لنصل مباشرة إلى ما كان من أمر الملك الكامل مع الصليبيين.

فقد نجحت الحملة الصليبية الخامسة بقيادة چان دى برين Jean de Brienne ملك بيت المقدس (فى عكا)، والمندوب البابوى المتعجرف بلاجيوس Pelagius من الاستيلاء على مدينة دمياط فى الخامس والعشرين من شعبان عام ٦١٦هـ/ الخامس من نوفمبر سنة ١٢١٩م بعد أن ظلوا على حصارها تسعة أشهر كاملة، وبعد وصول سفنهم إلى الشواطئ المصرية بخمسة عشر شهرا وينيف، حيث كانوا قد ألقوا مراسيهم على الشاطئ الغربى للنيل قبالة دمياط فى أخريات مايو سنة ١٢١٨م، وكان قطع المآصر الحديدية القائمة بين شاطئ النيل عند دمياط، وما تبع ذلك من سقوط برج السلسلة فى أيدى الصليبيين، كارثة أحدقت بالمسلمين، إذ البرج هو «قفل الديار المصرية»، ولم يكن غريبا أن يموت الملك العادل سيف الدين أبو بكر كمدا على أثر هذه النازلة.

وهكذا قدر للحملة الصليبية الخامسة أن تواجه منذ مطلع غزوها لمصر الدولة الأيوبية، وقد انقسمت على نفسها بين أبناء العادل، الملك الكامل محمد فى مصر، والمعظم عيسى فى الجزء الجنوبى من الشام، والأشرف موسى فى جزئه الشمالى. ولو هيئ لهذه الحملة قيادة عسكرية واعية تحت إمرة قائد واحد كفء، لتبدل الحال غير الحال، ولما كانت حادثات التاريخ لا تخضع لـ «لو»،



فقد أمضى الصليبيــون على أرض مصر، عند دمياط، ثلاث سنين سويا، ثم عادوا أدراجهم دون أن يحملوا معهم حتى خفى حنين!!

وخلال هذه السنوات الثلاث لم يتردد الملك الكامل فى عرض الصلح على الصليـبيين، مـقدما مـا يبدو فى ظـاهره للوهلة الأولى عرضـا سخـيا يصعب رفـضه، يتضمن التنازل عن كل «الفـتوح الصلاحى» بما فيـه القدس بطبيـعة الحال فى مقـابل التخلى عن دميـاط والنزوح عن الأراضى المصرية. ورغم مـيل الملك چان دى بريين إلى الموافقـة على هذا الاقـتراح، إلا أن هذا الميل لم يجـد آذانا صاغية أمام شراسة الرفض الذى أبداه المندوب البـابوى بلاجيوس ومؤيدوه من تجار المدن الإيطالية وكذا فرسـان الداوية والإسبتارية، فأضـاع رجل الكنيسة بهذا من بين يديه فرصـة العمر، التى لا شك ظل يندم عليـها ما بقى له من العـمر، وكـذا كان حال البـابوية، وصدق عليـه قول المؤرخ الألمانى «ماير» Hans Eberhard Mayer: إنه كان رجـلا «متطرفا عجـيبا، جـبارا عنيدا، مغـترا بنفسه إلى حـد بعيد جدا، شكل لنفسه حـزبا من الجدد ومن رجال الهيئات الدينيـة، ومن التجار الإيطاليين، واستطاع بدعم منهم أن يخـرج الأمر من يد الملك چان دى بريين... ومن ثم انقسم الجيش الصليبـى إلى معسكرين متعـاديين، وراح بلاجيوس يتدخل فى الشـئون العسكرية دون أى اكتراث بالقانـون الكنسى، حتى آل إليه أمر قيادة الجـيش، ولكنه لم ينجح فى شىء إلا فى تحقيق الفشل الذريع للحملة»!! مما دفع شاعرا معاصرا هو «وليم كليريك» إلى التهكم والسخرية من هذا الذى كان يفعله بلاجيوس، قائلا:

«ميدان القتال والحرب للفرسان، وللكهان القداس والمزامير»

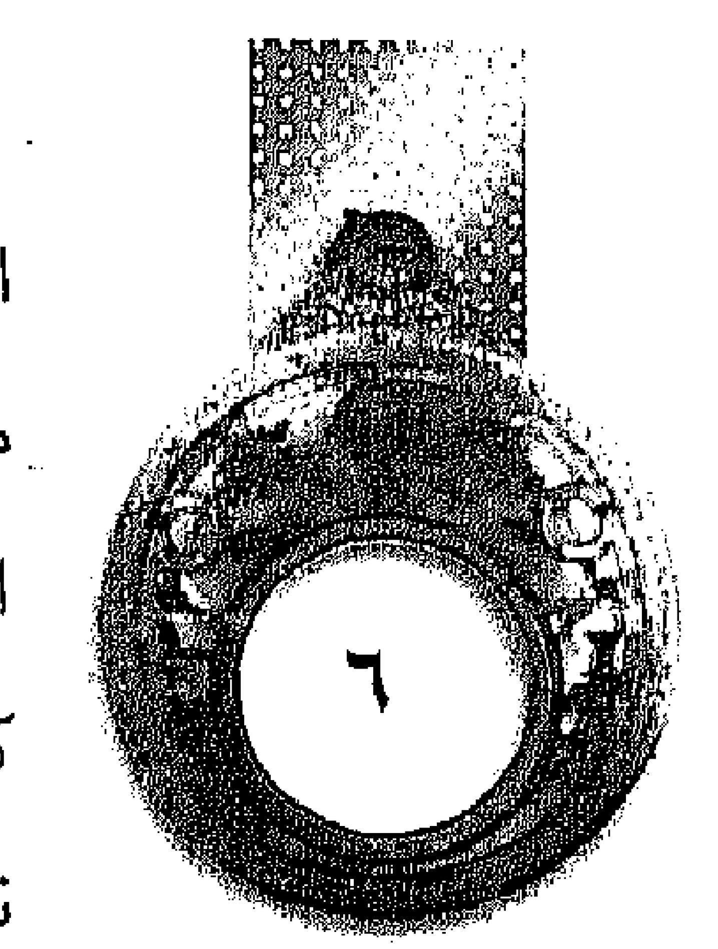
ارتحل الصليبيون عن دمياط دون قيد أو شرط، بعد أن أحيط بهم من جانب المصريين ومياه النيل وأوحال الدلتا التى غاصوا فيهـا إلى ركبهم، وعاد جزء منهم إلى الشام وجزء ثان إلى أوروبا يمجدون الرب أن أنجـاهم من هذه الكارثة التى سـاقهم إليهـا صلف أسقـفهم بلاجـيوس، وغض المسلمون الطرف عن العروض التى كان الكامل قد تقدم بها إلى الصليبيين، حيث إن شيئا منها لم يتحـقق، غيـر أنه لم يمض على ذلك سوى ثـمان حجج (١٢٢١ ـ ١٢٢٩)، إلا وبُعـث المشروع برمته من رقـدة لم تطل به، حيث أقدم الملك الكامل على تسليم القدس – عدا الأمـاكن المقدسة الإسلامية بها ـ إلى فردريك الثانى ملك ألمانيا وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة!!

وهنا قامت الدنيا فـى حينه على الكامل ولم تقعد، بعد أن خـرجت البلد ـ أعنى القدس ـ من «قبضة» المسلمين وانتقلت إلى سيادة أولئك الصليبيين «الملاعين»، وعادت الذكرى بالأذهان إلى أن ما كان «إفـراطا» فى عرض تقديم «القدس» إلى الصليـبيين على طبق من فضة، غـدا «تفريطا» حقـيقـيا بشأنهـا وحق المسلمين فيـها، على آنيـة من ذهب!! ذلك أن الكامل قد سلـم لفردريك

بمقتضى اتفـاقية يافا ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م، القدس وبعض «الفـتوح الصلاحى»، مع إقرار للصلح بين الطرفين مدته عشر سنوات.

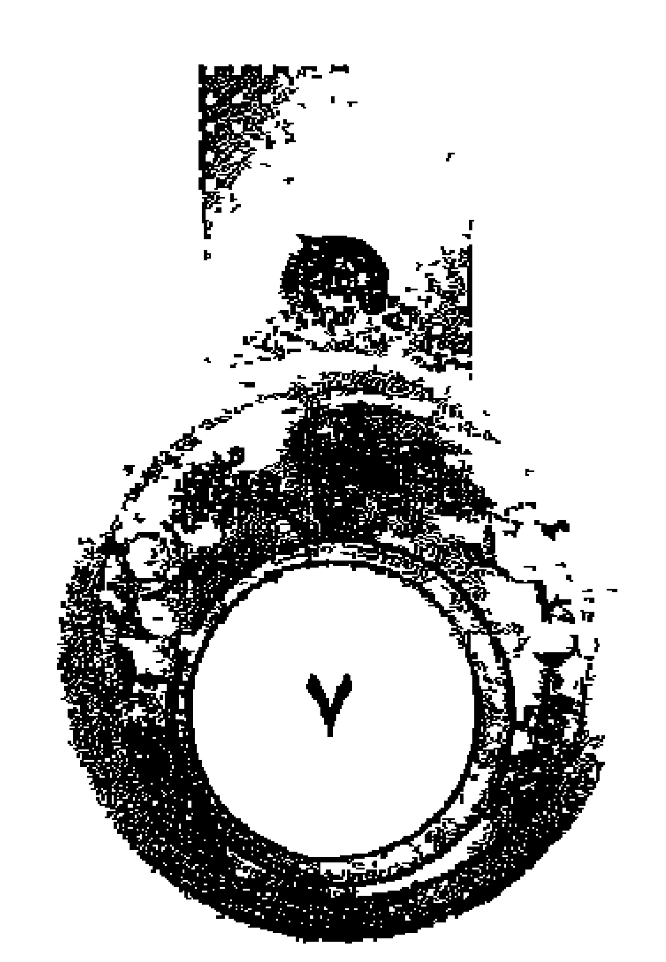
وكان طبيعيا أن يتعرض الملك الكامل لموجة ضارية من النقد والتجريح لهذا الذى أقدم عليـه، فيروى لنا المؤرخ المعاصـر «ابن واصل» نقلا عن أبيه، أنه «لما نودى بالقدس بخروج المسلمـين، وتسليم القدس إلى الفرنج، وقع فى أهل القـدس الضجيـج والبكاء، وعظم ذلك على المسلمين، وحـزنوا لخروج القدس من أيديهم، وأنكروا على الملك الكـامل هذا الفعل، واستشنعـوه منه»، ثم يقص علينا ما شاهده بعينى رأسه فى دمشق، حيث كان يقيم، فـيقول: «ولما ورد الخبر إلى دمشق بتسليم القدس إلى الفـرنج، أخذ الملك الناصـر داود (ابن المعظم عيـسى) فى التـشنيع على عمـه الملك الكامل، وتقدم إلى الشيخ شمس الدين يوسف. . . وكان له قبول عند الناس فى الوعظ، أن يجلس بجامع دمشق للوعظ، ويذكر فضائل القدس وما ورد فيه من الأخبار والآثار، وأن يحزن الناس ويذكر ما فى تسليمـه إلى (الصليبيين) مـن الصغار للمـسلمين والعار، وقصـد بذلك تنفير الناس من عـمه ليناصحوه فى قتاله. فجلس شمس الدين للوعظ كمـا أمره، وحضر الناس لاستماع وعظه، وكان يوما مشهودا، وعلا يومئـذ ضجيج الناس وبكاؤهم وعويلهم، وحضرت أنا هذا المجلس. . . فلم يُر فى ذلك اليوم إلا باك أو باكيـة». أما المقريزى فقد ذكر أنـه لما «نودى بالقدس بخروج المسلمين منه، وتسليمه إلى الفـرنج، فاشتد البكاء، وعظم الصراخ والعويل، وحـضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل، وأذنوا على بابه فى غير وقت الأذان. . . وعظم على أهل الإسلام هذا البلاء، واشتد الإنكار على الملك الكامل، وكثرت الشناعات عليه فى سائر الأقطار».

والذى يلفت الانتباه ويدعو فى الوقت نفسه للدهشة التامة حقا، أن الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق، قام فى عـام ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م بتسليم القدس وطبرية وعسقـلان، وقلعة الشقيف أرنون وأعمالهـا، وقلعة صفد وبلادها إلى الصليـبيين، وزاد على ذلك ما قدمـه من وعود لهؤلاء بإعطائهم جزءا من مصر إذا تم له بعونهم فتحها، والاستيلاء عليها من يد الصالح نجم الدين أيوب ابن أخيه الملك الكامل، وهذا يعنى أن الصالح إسمـاعيل كان أشد من الملك الكامل «تفريطا»، بل إنه عاقب حامية الشقيف أرنون التى أبت أن تطيع أوامره بتـسليم القلعة إلى الصليبيين!! فحاصرها واستـولى عليهـا وسلمهـا للصليبـيين وأنزل بالحامـية عـقابه الأليم، ومع كل ذلك فـإن المؤرخين المعاصرين الذين ذكروا لنا الصفحـات عن الشناعات التى ثارت ضد الكامل من جانب الرأى العام الإسلامى آنذاك. لم يذكروا شيئا عن مثل ذلك تجاه الصالح إسماعيل، إلا ما قام به شيخ الإسلام العز بن عبد السلام من استنكار بيع السلاح للصليـبيين علانية فى دمشق، بعد أن أذن لهم الصالح إسماعيل بذلك، وما كتبه على استـحياء فى هذا الخصوص المؤرخ أبو الفدا، أما ابن واصل فكان صمته محيرا!!



ورغم ما فى هذا الأمر من غرابة، إلا أنه يفسـر لنا كثيرا من الجوانب التى يدور حـولها هذا البـحث، والتى تتعـلق بالأهميـة الكبرى التى يمثلـها موقف مـصر ودورها فى التـصدى للحـركة الصليـبية، ويضع النـقاط على الحروف كذلك فى ذكاء السياسة التى اتبعها الملك الكامل، والتى جلبت عليه كل ما كيل له من اتهامات وما قام ضده من «الشناعات»، ويؤكد فى الوقت نفسـه من جديد ما ذكرناه فى صـدر حديثنا من أن المؤرخين تناولوا سيـاسة الكامل تجاه الصـليبيين بمعـزل عن سياسـة الكامل عامـة وشخصـيته بصـفة خاصـة، وأن الرأى العام الإسلامى كـان ينظر إلى ما تفعله مـصر فى قضـية الجهاد المقـدس ضد الصليبيين بعين غير التى ينظر بها إلى مـا تقوم به القوى الأخرى فى المنطقة، وهذه النقطة الأخيرة فى حد ذاتهـا تضيف بعدا جديدا لما نحن بصـدده من موقف الملك الكامل من الصليبـيين، سوف نعالجه تفصيلا بعد قليل.

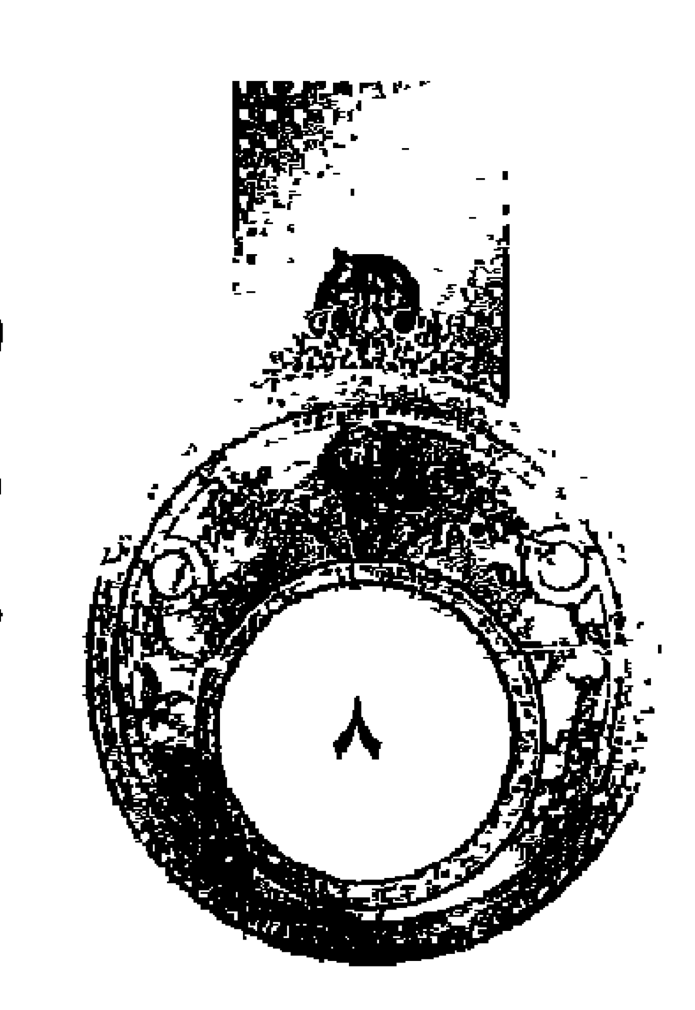
رسم يصور الحملة الصليبية على دمياط



ومن المعروف أن الإمبراطور فردريك الثانى كان قد قدم إلى الشرق فى فئة قليلة لا يتجاوز عددها خمسمائة فارس، وحظيت هذه الشرذمة بترتيب «السادسة» فى عداد الحملات الصليبية، مع أنها افتقرت إلى أى من سمات هذه الحركة، ولم يكن لها من الأهمية مكان إلا بقدر ما كان لقائدها وما حققه بـ «شخصه» فقط وليس بـ «قواته» من نتائج.

ما سبق يفضى إلى الاعتقاد للوهلة الأولى أن الملك الكامل كان يمسك «القدس» بيديه ورقة رابحة، يلوح بها فى وجه الصليبيين كى يسيل لعابهم، غير أن لعاب الصليبيين كان قد جرى بالفعل أبعد من «القدس» تطلعا إلى مصر، ولم يكن الكامل مخطئا، فيما يذهب إليه، بل كانت الحركة الصليبية نفسها هى التى انحرفت تماما منذ مطلع القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى، عن أهدافها الأولى «المعلنة»، وكشفت فى سفور عن أهدافها «الحقيقية» التى قامت فى البدء من أجل تحقيقها. وكان فشل الحملة الصليبية الثالثة التى قادها أعظم ملوك أوروبا آنذاك فى أخريات القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى، فردريك الأول بربروسا Frederick I Barbarossa إمبراطور ألمانيا، وريتشارد الأول قلب الأسد Richard I The Lion - Hearted ملك إنجلترا، وفيليب أوغسطس Philip Augustus ملك فرنسا، الحد الفاصل بين مرحلتين أساسيتين فى تاريخ الحركة الصليبية، اتسمت ثانيتهما باعتقاد راسخ ساد أوروبا كلها، مؤداه أنه إذا أريد تحقيق «النجاح» للحركة الصليبية فلا بد من القضاء على الإمبراطورية البيزنطية، وإذا أريد «البقاء» للوجود الصليبى فى الشرق فلا بد من القضاء على مصر وتحطيم قوتها العسكرية أو بمعنى أدق ضرب «الأفعى» على رأسها.

ولم يكن الملك الكامل بغافل عن حقائق هذه السياسة التى كانت قائمة لدى الأوساط الصليبية فى الغرب اللاتينى، أو ما يتردد بقوة فى الدوائر السياسية الصليبية أيضا فى بلاد الشام، ولم يكن هذا أيضا مستغربا على الكامل، وقد وصفه المؤرخ القاضى جمال الدين بن واصل بأنه كان رجل سياسة من الطراز الأول، أو بكلماته نفسها: «لم أجد فى شىء من التواريخ أن ثلاثة إخوة من الملوك اجتمع لهم من الشجاعة والنجابة والفضائل ما اجتمع فى أولاد الملك العادل الثلاثة، وهم: الملك الكامل، والملك المعظم، والملك الأشرف، وكان الملك الكامل أحزمهم وأسوسهم». أما المقريزى فيقول فى جملة وصفه أنه كان ملكا «كثير السياسة»، وهو تعبير يعنى بلغة أهل الزمان على إيجازه «الدهاء السياسى»، بينما جمع ابن أيبك الدوادارى ذلك كله فى عبارة بليغة حين حدث عن الكامل بأنه كان يتمتع بعقل متقد وتدبير حسن ورأى سديد، ولهذا عهد إليه أبوه.

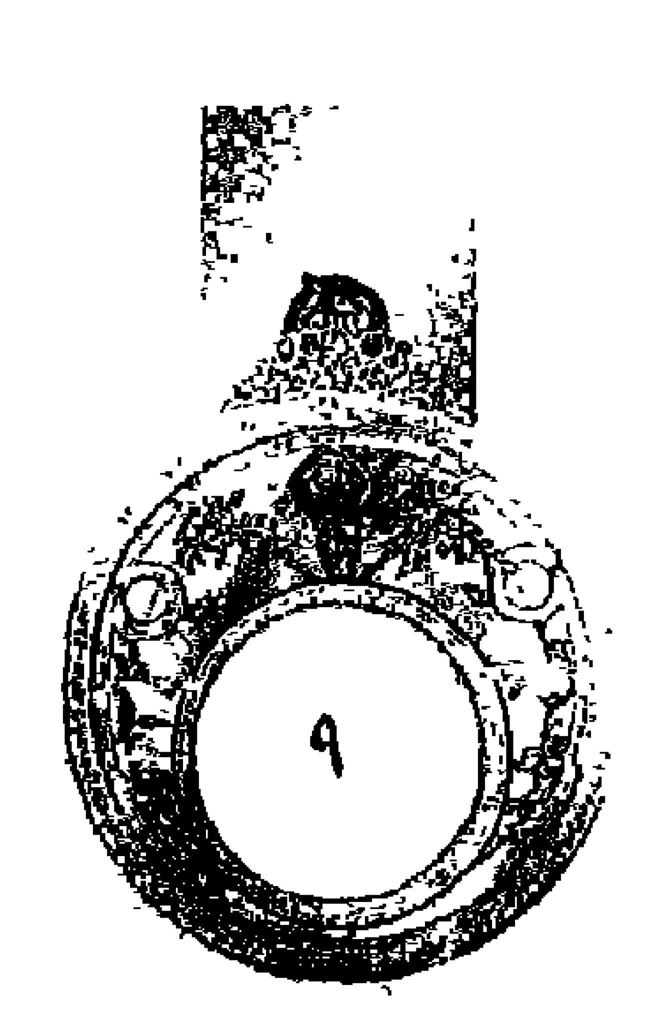


ولقـد أفاض عـدد من المؤرخين المحدثـين كثـيرا فى عـرض الظروف والملابسات التى أحاطت بالمـلك الكامل، ودفعته إلى تكرار عرضـه أكثر من مرة بتسليم القدس والفتوح الصلاحى إلى الصليبيين إبان الحملة الخامسة، ثم تسليمها بالفعل إلى فردريك الثانى فـيما عرف بين الدارسين بالحملة الصليبية السادسة، وجـاءت هذه التبريرات فى معظمـها استنتاجـا طبيعيا ومنـطقيا لما قدمته المصادر التاريخية المعاصرة فى هذا الشأن.

وتتلخص هذه الظروف جملة فى عدد من النقاط من بينهـا ـ ودون الدخول فى التفصيلات الدقيقة التى امتلأت بها المصادر المعاصـرة والمراجع الحديثة، تلك المؤامرة الشهيرة التى دبرها الأمير عمـاد الدين بن المشطوب أحد قـواد الكامل وأشهرهم، ويسـميه ابن أيـبك «ملك الأكراد»، وهو يقصد طبعـا الأكراد العاملين فى جيش ملك مصر، حيث يقـول: «وكان عسكر الديار المصرية فى ذلك الوقت أكثره أكراد (هكذا)، وابن المشطوب ملكهم» أى زعيمهم، بينما يصفه المقريزى بقوله: «. . .كان أجل الأمراء الأكابر، وله لفيف من الأكراد الهكاريـة، ينقادون إليه ويطيعونه. . . فاتفق معهم على خلع الملك الكامل وتمليك أخيه الفـائز إبراهيم، ليصير لهم التحكم فى المملكة» وأدت هذه المؤامرة فى هذا الوقت الحرج، إلى إخلاء الملك الكامل لمعسكر العـادلية الذى كان يقيم فيه، والارتداد إلى أشمـوم طناح، خوفا على حيـاته من غدر بعض أمرائه! وكان هـذا التقهقـر فرصة ذهبية وافت الصليـبيين للاستيلاء على مـعسكر العادلية، بعد أن ولوه الجنود دبرهم مـتحرفين إلى حيث السلطان. ومن ثم بدأ الحصار الصليبى لمدينة دمـياط. وقد تركت هذه الأحداث أثرها البالغ فى الحالة المعنوية لدى العسكريين والمدنيين على السواء.

وزاد الأمر سوءا بالنسبـة للكامل أن جماعات البدو والعربان انتهـزت فرصة هذه الفوضى، وأغارت على المناطق المحـيطة بدمياط وخاصـة قرى الدلتا ومدنهـا، أو على حد تعبيـر ابن الأثير «اجتمـعت العربان على اختلاف قـبائلهم ونهبوا البـلاد المجاورة لدمياط وقطعـوا الطريق وأفسدوا وبالغوا فى الإفساد، فكانوا أشد على المسلمين من الفرنج»!!.

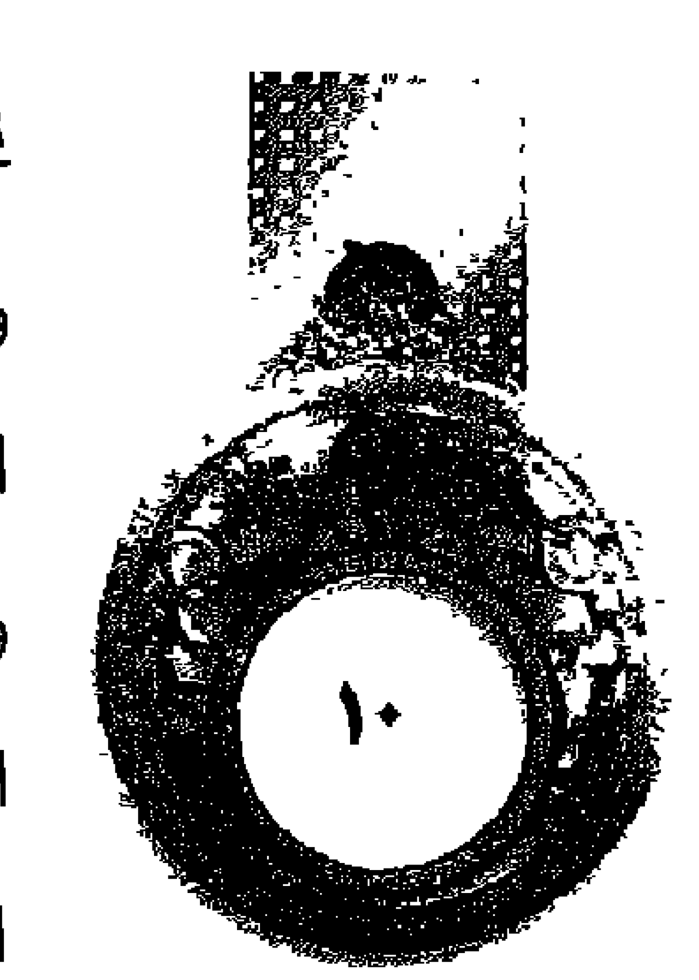
يضاف إلى ذلك أن الملك الـكامل كان قد بعث إلى أخـويه المعظم والأشرف يستـدعيهـما لنجدته، وكذا فـعل مع كل ملوك بنى أيوب فى الشام، ونقف من المصادر المعـاصرة للأحداث أو القريبة منها كابن واصل، وابن العديم، وابن العماد الحنبلى أن كتب الكامل ورسله كانت متواصلة إلى إخوته وغيرهم من الملوك فى طلب النجدة، وحثهم على سرعة القدوم إلى مصر للوقوف إلى جواره دفاعا عن مصر ضد الصليبيين. ويبدو أن هذه النُّجد لم تصل إلى المعسكر الكاملى بالسرعة المطلوبة، مما حدا بالكامل إلى سلوك مـثل هذه السبيل، أعنى عرض الصلح على الصليـبيين أكثر من مرة، والإلحاح على إخوته بضرورة القدوم إلى مصر للتصدى لهؤلاء الغزاة.



كانت هذه هى الحجج والأسانيد التى قدمها المؤرخون تبريرا لما أقدم عليه الملك الكامل فى المرة الأولى إبان الحملة الصليبية الخامسة، وفى المرة الثانية عندما تم تسليم بيت المقدس إلى فردريك الثانى كان هناك أيضا الكثير من الظروف التى أحاطت بالملك الكامل ودفعته إلى توقيع اتفاقية يافا سنة ١٢٢٩م، وساق المؤرخون هذه الملابسات فى كتبهم وبسطوها كل البسط، وكان من أهم مظاهرها ذلك الخلاف العنيف الذى دبَّ بين الكامل وأخويه الأشرف موسى والمعظم عيسى، والأخير بصفة خاصة، وظهور خطر الخوارزمية نتيجة طبيعية لحركة المد المغولى فى القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى، وإقدام المعظم عيسى على الاستعانة بهؤلاء الخوارزمية للوقوف معه فى وجه أخيه الملك الكامل، إضافة إلى ما بثه الإمبراطور فردريك الثانى نفسه من توسلات واستعطاف لسلطان مصر لينعم عليه بـ «قبضة البلد» يعنى القدس. ولم يجد فردريك حرجا مطلقا فى أن يصل بتوسلاته إلى حد الضراعة حين كتب إلى الكامل يقول: «أنا مملوكك وعتيقك، وليس لى عما تأمره خروج، وأنت تعلم أنى أكبر ملوك البحر، وقد علم البابا والملوك باهتمامى وطلوعى، فإن رجعت خايبا انكسرت حرمتى بينهم، وهذه القدس هى أصل اعتقادهم وضجرهم، والمسلمون قد أخربوها، فليس لها دخل طائل، فإن رأى السلطان أن ينعم علىّ بقبضة البلد والزيارة فيكون صدقة منه، ويرتفع رأسى بين ملوك البحر».

وليس من الصعب أن ندرك للوهلة الأولى أن هذه المبررات التى قدمها المؤرخون المعاصرون والمحدثون للأحداث، تدور فى إطار معالجة هذه الوقائع فى حد ذاتها بصورة جزئية، أى تتناول كلا منها منفصلة عن الأخرى بعيدة عنها، وليس من خلال السياسة العامة للدولة الأيوبية من ناحية، والصفات الشخصية للملك الكامل نفسه، وتلك المعالجة تهدف إلى البحث عن عذر أو تفسير لما أقدم عليه الملك الكامل، انطلاقا من قاعدة أساسية فى هذه النظرة، هى أن القدس كانت محور الأحداث كلها، مع أن الدراسة المتأنية للنصوص المعاصرة، تكشف بجلاء أن مصر فى المقام الأول كانت هى المحرك الأساسى والباعث الحق لكل ما أتاه الكامل من تصرفات مع الصليبيين، وأنها هى بالذات كانت بيت القصيد فى كل أعماله، انطلاقا أيضا من إيمان يقينى رسخ عند سلاطين مصر جميعا والصليبيين أيضا، يرتكز على بديهية لا شبهة فيها، لحمتها وسداها أن الطريق إلى القدس يبدأ من القاهرة، وهذه النقطة بالذات هى جوهر ما نذهب إليه هنا فى هذا البحث. ولا يعنى هذا أن المؤرخين لم يعرجوا على ما توقفنا نحن عنده، بل فعلوا، ولكن من خلال تبيان الأطماع الصليبية فى مصر منذ الأيام الأولى لهذه الحملات.

لقد وجد الملك الكامل نفسه وقد ورث كرسى السلطنة الأيوبية وملك الديار المصرية فى ظروف بالغة التعقيد؛ فالصليبيون يحتلون جيزة دمياط على الضفة الغربية للنيل قبالة المدينة، وقد



نجحوا فى الاستيلاء على برج السلسلة، قفل الديار الصرية، وهو ما كان له وقع الصاعقة على الملك العادل سيف الدين، توفى على أثره، وأخوا الكامل، المعظم عيسي والأشرف مشغولان بنفسيهما وملكهما عمن سواهما، ويغبطان فى الوقت نفسه، أخاهما على انفراده بحكم مصر، والجبهة الداخلية فى مصر لم تكن آنذاك فى أحسن أحوالها من جراء تلك الأحداث، زادها سوءا تآمر الهكارية الأكراد بزعامة عماد الدين بن المشطوب، والملك الكامل بفطنة سياسية يتمتع بها، وكان يدرك تماما أن القدس وإن كانت لدى الصليبيين محط آمالهم وقبلة صلواتهم، إلا أن مصر باتت لديهم منذ نهايات القرن الثانى عشر الميلادى وبواكير الثالث عشر، أكبر همهم وغاية سعيهم، وما الحملة الصليبية الرابعة عن ذلك ببعيد، فقد تشكلت منذ اليوم الأول لها بهدف القدوم إلى مصر، وما كان توجهها تلقاء القسطنطينية إلا نتاج عوامل متنافرة لم يجمع بينها إلا العداء للعاصمة الإمبراطورية، وشارك فى تحريكها البابوية والملكية الألمانية والأحوال السياسية الداخلية فى بيزنطة نفسها ولكن المحرك الأساسى والفاعل لما انتهت إليه كان البندقية، الجمهورية التجارية الإيطالية، التى رأت فى الاستيلاء على القسطنطينية تخلصا حقيقيا من منافس تجارى قوى لها فى حوض البحر المتوسط الشرقى، وحفاظا فى الوقت نفسه ـ إلى حين ـ على الامتيازات التجارية الواسعة التى كانت قد حصلت عليها فى مصر على عهد الملك العادل الأيوبى، وتلك كانت مرحلة تكتيكية فى خطة البندقية الإستراتيجية للسيطرة التجارية الكاملة على الحوض الشرقى للبحر المتوسط منفردة دون قرينتيها، جنوه والقسطنطينية؛ لذا كان طبيعيا أن تكون البندقية على رأس الذين ظاهروا المندوب البابوى بلاجيوس فى رفض عروض الملك الكامل بالجلاء عن دمياط مقابل إعادة مملكة بيت المقدس القديمة إلى الوجود، إذ كانت مصر هى المحطة التالية للبنادقة والصليبيين بعد القسطنطينية.

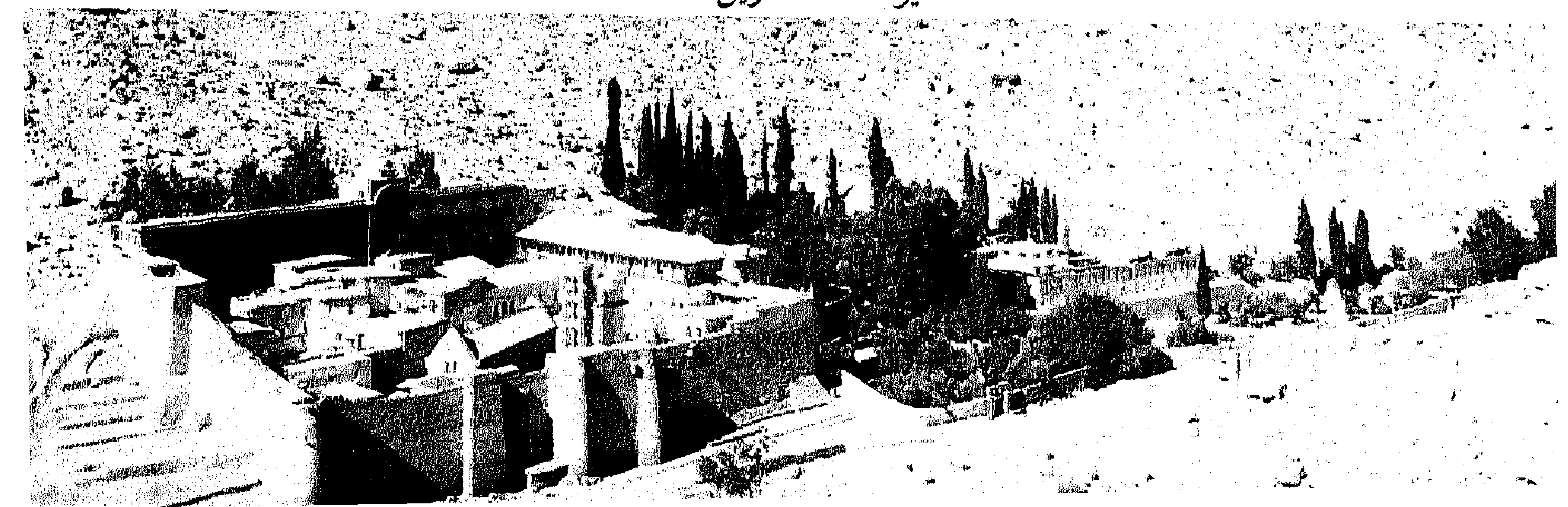
ويجب أن لا يغيب عن أذهاننا أن فكرة الاستيلاء على مصر، كانت هدفا سعى إليه الصليبيون منذ وطأت أقدامهم أرض الشام فى الحملة الأولى، وما فتئوا يعملون على تحقيقه على يد كل من بلدوين الأول البولونى Baldwin I of Boulogne وسميه الثانى، وفولك الأنجوى Fulk of Anjou وعمورى الأول Amalaric I ملوك بيت المقدس على التوالى، ثم ازداد هذا الهدف رسوخا بعد أن تحطمت آمال الصليبيين فى حطين. وضاعت أحلامهم العراض مع فشل الحملة الصليبية الثالثة التى قادها أعظم ملوك أوروبا فى القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى؛ فردريك الأول برباروسا Fredrick I Barbarossa إمبراطور ألمانيا، وريتشارد الأول ـ قلب الأسد ـ Richard I The Lion - Hearted ملك إنجلترا، وفيليب أوغسطس Philip

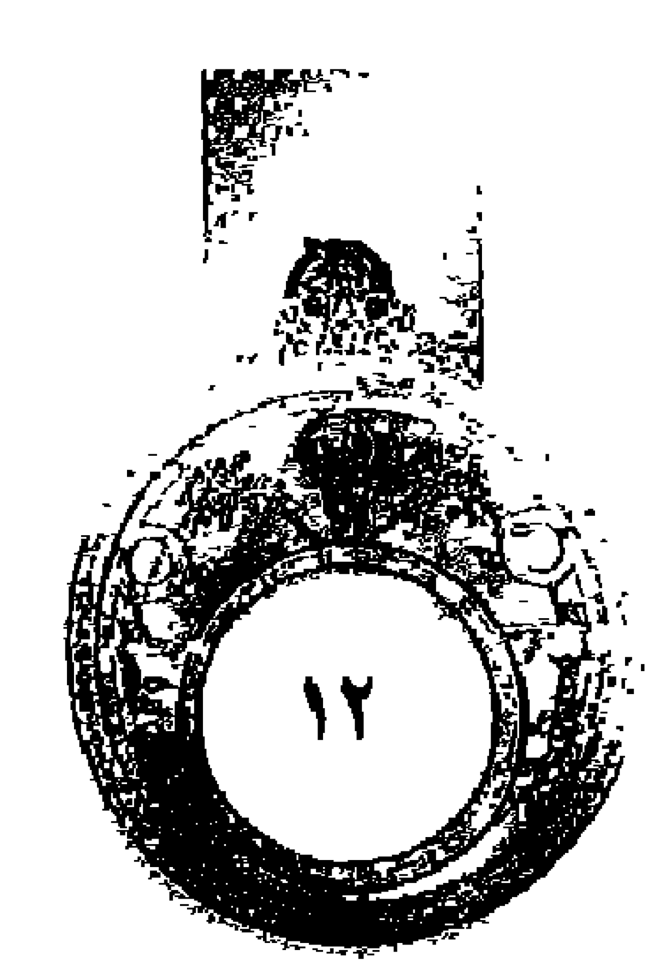
Augustus ملك فـرنسا، وكـان ذلك كله بفـضل جهـود مـصر العـسكرية وإمكاناتها الاقتصادية، وقيادتها السياسية.

وهذه الحقيـقة أدركها ملك إنجلترا، ريتـشارد الأول، بعد أن مكث فى بلاد الشام عامين بعد وفاة فردريك برباروسا، ورحيل فيليب أوغسطس عائدا إلى بلاده، ظل خلالهـما فى صراع دائم أو مفـاوضات متـقطعة مع السلطان صلاح الدين الأيـوبى، مما جعله يوقن أن مـصر هى العدو الأسـاسى الخطر للممتلكات الصليبـية فى بلاد الشام، ثم أبحر ريتشارد من عكا يريد بلاده فى الشهـر التالى لعقد صلح الرملة الذى أبرمه مع صلاح الدين سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م، وفـى رأسه أن الطريق لاسترداد مملكة بيت المقدس المفـقودة يبدأ أولا بمصـر، وقال بضرورة تنفـيذ هذه الفكرة أكثـر من واحد من رجاله قبل رحيلهم عن الشرق وشيئا فشيـئا اتضحت صحة الفكرة التى تقدم بها ريتشارد ورجاله، حتى نودى صراحـة بضرورة ضرب مصر أولا، وأن هذه هى الطريقة الوحـيدة لتخليص الأراضى المقدسة من هذا التهديد الدائم.

ولم تغب هذه الأفكار التى دارت فى رءوس زعـماء الـصليبـيين عن فطنة مؤرخ مـثل ابن واصل الذى ذكر أن الصليـبيين تشاوروا سنة ٦١٥هـ/ ١٢١٨م، فـأشار أصحـاب الرأى والمشورة فيهم بضرورة مهاجمة مصر أولا، حيث «إن الملك الناصر صلاح الدين إنما استولى على الممالك، وأخرج القدس والسـاحل من أيدى الفرنج بملكه ديار مصر وتقـويته برجالها؛ فالمصلحـة أن نقصد مصر أولا ونملكها، وحـينئذ فلا يبقى لنا مانع عن أخذ القدس وغـيره من البلاد». إذا جاز لنا أن نقفز عبر أسوار الزمن لنصل فجأة إلى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى، فإننا سوف نجد هذا المؤرخ النابه ابن واصل، يردد هذه الـعبارات نفسها، أو هذا المعنى بحـذافيره، عند حديثه عن حوادث سنة ٦٤٧ والتى شهدت مقدم حملة لويس التاسع ملك فرنسا إلى مصر، قائدا للحملة الصليبية السابعة، يقول: «فحدثته نفسه (يقصد لويس التاسع) بأن يستعيد بيت المقدس إلى الفرنج. . . وعـلم أن ذلك لا يتم إلا بملك الديار المصرية». وهذا الـقول وسابقـه يذكرنا بمـا قاله

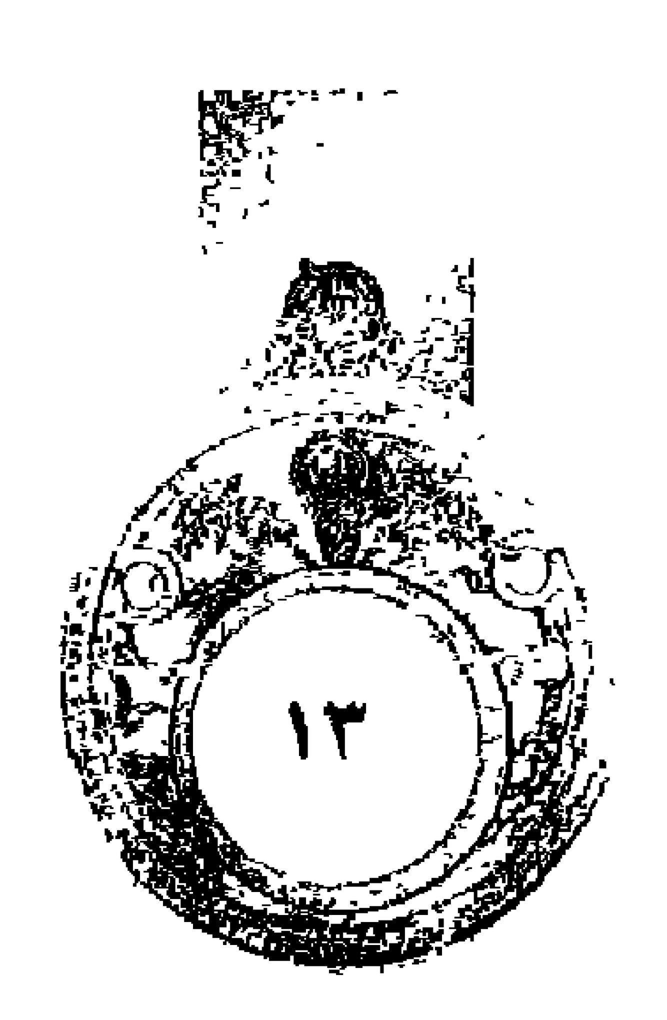

دير سانت كاترين





صـلاح الدين الأيوبى نفسـه قـبل ذلك بسنوات: «لما يسـر الله لى الديار المصـرية، علمت أنه أراد فتح السـاحل؛ لأنه أوقع ذلك فى نفـسى». ولعل ابن واصل يشيـر بعبـاراته هذه إلى تلك المناقشات التـى دارت فى عكا بعد تكامل وصول القـوات الصليبيـة من أوروبا، وتمخضـت هذه المشاورات عن ضرورة مهاجـمة مصر للتخلص من هذا الصداع المستـمر الذى يؤرق جفون الصليبـيين فى الشرق وأوروبا. ولم تكن هذه المناقشات سـوى صدى لما دار فى مـجمع اللاتيـران الرابع الذى عقـد فى عام ١٢١٥م تحت زعـامة البـابا إنوسنت الثالث Innocent III (١١٩٨ - ١٢١٦) الذى يعـد واحدا من أقـوى بابوات العصـور الوسطى جميعهم، والذى تقـرر فيه الإجماع على حتمية غزو مصـر مباشرة ودون إبطاء، للحفاظ على ما بقى مـن ممتلكات للصليبـيين فى الشام، ولضرورة اسـترداد القدس ثـانية، وصدرت فـيه المراسيم البابوية الشهيرة الخاصة بتوفير الموارد المالية اللازمة لتمويل هذه الحملة المقترحة إلى مصر.

ولـم يكن ريتشارد وأضـرابه، وإنوسنت الثالث وأمثاله، وبلاجيـوس وأشباهه، وچان بريين وقرناؤه، هم أول من تراءى لأعينهم تلك الأهمـية الإستراتيچية لمصـر، بل إن ذلك كان ماثلا فى أذهان الصليبيين منذ الحملة الأولى؛ فقد جـرت عدة محاولات من جانب ملوك بيت المقدس مثل بلدوين الأول، وفولك الأنجوى، وبلدوين الثالث للاستيلاء على مصر، سواء كان ذلك فى صورة حمـلات استطلاعية أو تهـديدات سياسيـة، مما يعنى أن مشروع غـزو مصر كان قـائما فى أذهان الصليـبيين منذ قدومـهم إلى الشام، وربما قـبل ذلك، وليس أدل على هذا من أن «جـودفرى دى بويون» Godfrey de Bouillon الذى كان أول من تولى حكم ممـلكة بيت المقدس الصليبيـة تحت اسم «حامى البيعة المقدسة» Advocatus Sancti Sepulchri كانت لديه أفكاره الطموحة وخططه التى وضعهـا لغزو مصر ضـمن مشروعاته لتـأمين مملكته، إلا أن الأجل لم يمهله، إذ لم يلبث أن توفى بعـد أقل من عامين فـقط من بداية عهـده. وقد حمـل أفكاره هذه إلى حيـز التنفيـذ أخوه «بلدوين الأول» الذى خلفه على عرش المملكة، فقام بحملة استطلاعية على حدود مصر الشرقية، وتوغل فى بعض مناطقـها، إذ وصل إلى دير سانـت كاترين فى سيناء، ثم رحل عـنه بعد رفض رهبان الدير استـضافتـه، حرصا على عـلاقتهم بخلفـاء الفاطميين، وانتـهى به المطاف إلى مدينة «تنيس» على بحيرة المنزلة، بعد أن استولى على «الفرما» وأحرقها ودمر مساجدها على حد وصف المؤرخ «أبو المحاسن بن تغرى بردى». وفى تنيس وقبل أن يصل إلى العريش، ألمّ به المرض، ولم يلبث أن وافـته المنيـة سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م، وحـمله أصحـابه ليـدفن فى بيت المقدس بعـد أن أخرجوا أحشاءه ودفنوها فى تلك المنطقة التى ما زالت تحمل اسم «البردويل» نسبة إليه، وتعرف بـ «سبخة البردويل» أو «السـبخة»، ويقال لها أيضا بحيرة البـردويل، لتبقى عنوانا على هذه المحاولة الصليبية.



ولم يكن بلدوين الثالث أقل من سميه الأول تطلعا لضم مصر إلى حظيرة الصليبيين واستخدم فى ذلك وسائل الحصار الاقتصادى باتفاقه مع البيزاوية حوالى سنة ١١٥٦م على عدم نقل الأخشاب اللازمة لصناعة السفن، وكذا بعض الآلات الحربية إلى مصر، وفى عام ١١٦٠م انتهز فرصة مقتل الخليفة الفائز وما أعقب ذلك من اضطرابات داخلية، إلى جانب الاصطراع بين الوزراء على السلطة، فتقدم بقواته إلى العريش معتزما غزو مصر، لكن الوزير طلائع بن رزيك تعهد له بدفع جزية سنوية مقدارها مائة وستون ألف دينار وهو مبلغ كبير كان كفيلا بإثقال كواهل المصريين من أجل سداده، لولا أن شاءت العناية الإلهية موته فى العام التالى ١١٦٢م.

وحمل خليفته أملريك Amalaric أو «عمورى» كما يناديه المسلمون، مهمة تحويل آمال الصليبيين وسعيهم لغزو مصر إلى حقيقة عملية ترجمها فى حملات عسكرية متتالية بين عامى ١١٦٣م، و١١٦٩م وراح هو ونور الدين محمود أتابك دمشق يستبقان للسيادة على مصر، فقد كان كل من الرجلين يدرك تماما أن مفتاح النصر أو النجاح لأى من القوتين الإسلامية أو الصليبية، يوجد فى مصر، وأن وقوعها فى يد أحدهما فيه القضاء على الآخر.

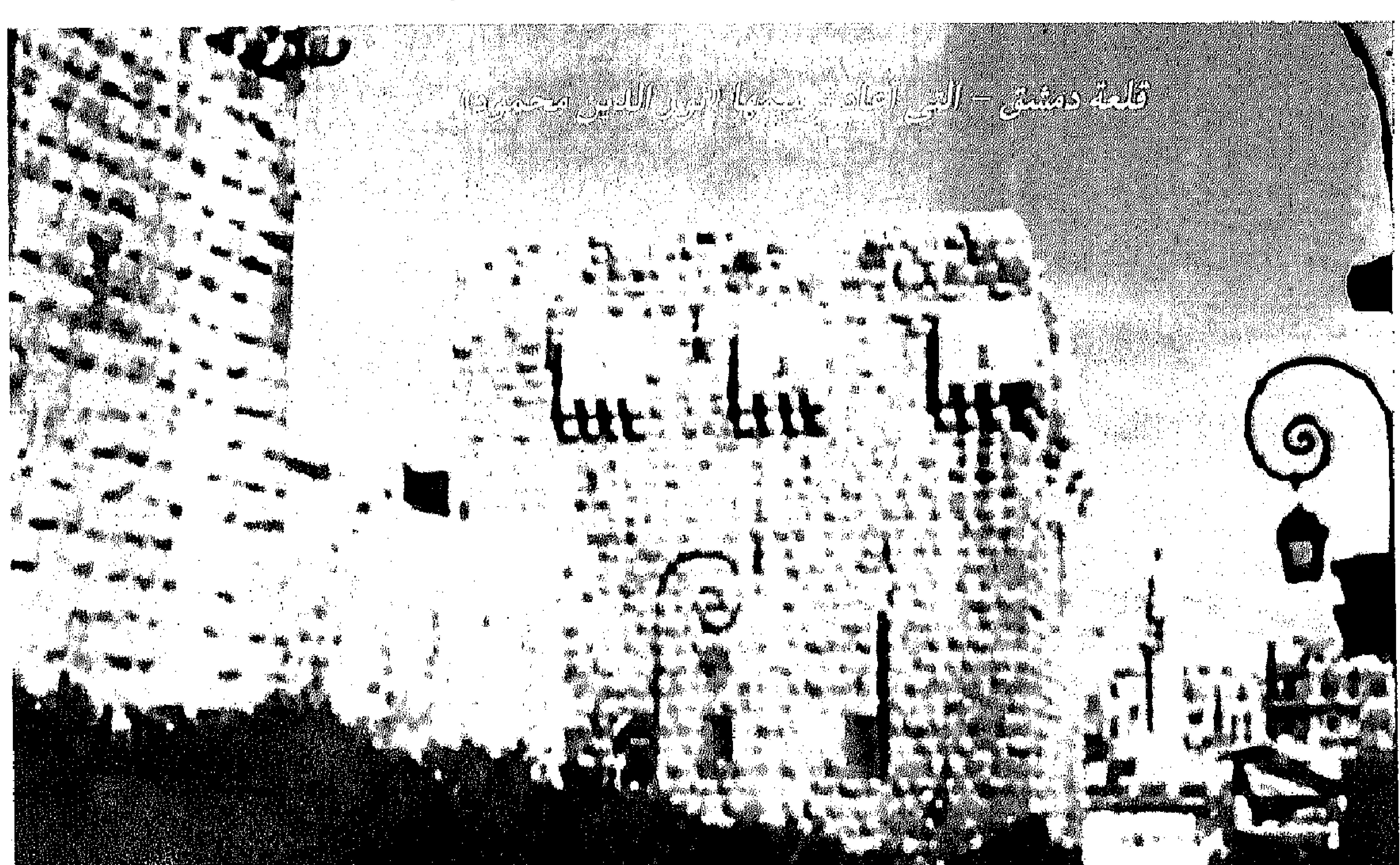
وقد سجلت أقلام المؤرخين، المسلمين واللاتين على السواء، هذه الناحية بكل الصراحة؛ فهذا ابن الأثير يعبر عما يدور فى نفس عمورى بقوله: «إنه خاف أن يملكها (يعنى مصر) أسد الدين (شيركوه قائد نور الدين محمود فى حملاته إلى مصر) فلا يبقى للفرنج فى بلادهم مقام»! ولم يهمل ابن الأثير كذلك هذه المشاعر عند أسد الدين شيركوه، إذ يذكر أنه «بعد عوده منها (فى الحملة الأولى)» لا يزال يتحدث بها ويقصدها (أى الخروج إليها ثانية)، وكان عنده من الحرص على ذلك كثير». ويؤكد أبو المحاسن هذا المعنى بقوله: إن أسد الدين شيركوه قد رحل عن مصر «وهو غاية من القهر»، ولم يكن نور الدين محمود بأقل من الرجلين حرصا على امتلاك مصر. أما أبو شامة فيقول: إن أسد الدين شيركوه ظل بعد عودته من مصر فى المرة الأولى «يحدث نفسه بقصدها، حريصا على الدخول إليها والتشوق إلى ملكها».

وبعد الخروج من مصر لكل من الجيشين الإسلامى والصليبى وعودتهما إلى الشام، واعتزامهما بالطبع القدوم للمرة الثالثة، راح أمراء الملك عمورى يتداولون الأمر بينهم، وكان من بين ما جرى على ألسنتهم فى مجلس مشورتهم: «دعونا ننهض إلى مصر، فنقوى بتلك الديار المصرية على سائر بلاد الإسلام»، ويلتقط عمورى الخيط من أمرائه ليضيف إلى قولهم هذا قوله: «ولئن تسلم نور الدين مصر، ولئن صار فيها مثل أسد الدين، فهو هلاك الفرنجة وإجلاؤهم من أرض الشام». وهذه العبارات التى فاه بها عمورى وشاركه فيها أمراؤه، هى شهادة حق تدعم ما

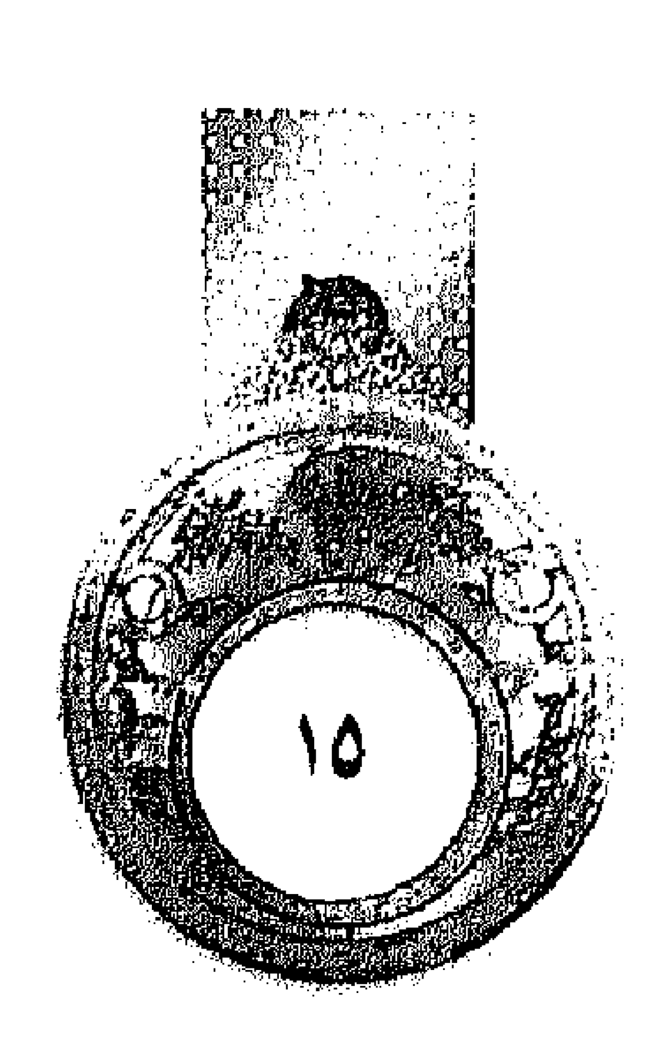
ذهبنا إليه منذ البداية من الأهمية الإستراتيچية لمصر، وتلك كانت دون أى تردد محور اهتمام الكامل وبؤرة فكره وخططه السياسية والعسكرية.

ولم يكن غريبا أن نجد العبارات التى رددها المؤتمرون فى مجلس مشورة عمورى، يقولها نور الدين محمود بالحرف الواحد لقائده أسد الدين شيركوه، مع اختلاف القصد، يقول: «إننا إن أهملنا أمر مصر ملكها الفرنج، ولا يبقى معهم مقام بالشام ولا غيره». ولندع القلم الآن للمؤرخ الصليبى وليم الصورى ليحدثنا عما انتاب الصليبيين من غم وحزن بعد ضياع مصر من أيديهم، يقول: «إننى حيثما قلبت ناظرىّ لم أر إلا ما يدعو للفزع والاضطراب، لقد أصبح باستطاعة نور الدين أن يخرج من مصر بأسطول ضخم وأن يحاصرنا بصورة فعلية، بل ويفرض حصاره على جميع مدننا الساحلية. . . لقد أمسى موقفنا من الناحية العملية غاية فى السوء، لقد انقلب الحال رأسا على عقب وتغير كل شىء إلى ما هو أسوأ»، ثم راح وليم الصورى يردد ما قاله إرميا فى مراثيه: «كيف اكْدَرَّ الذهب، تغير الإبريز الجيد»، ويعيد نجوى أيوب: «صار عودى للنواح، ومزمارى صوت الباكين».

لم يكن الكامل بغافل إذن عن كل ما يدور حوله ـ على هذا النحو ـ فى الداخل أو الخارج، ومن ثم بنى خططه السياسية والعسكرية فى ضوء هذه الاعتبارات، واضعا نصب عينيه الحفاظ على مصر من الوقوع فى أيدى الصليبيين، وإذا ما ضاعت الأطراف وبقى القلب سليما معافى، أمكن للقلب استعادة هذه الأطراف، أما إذا حدث عكس ذلك فهو بعينه الخسران المبين



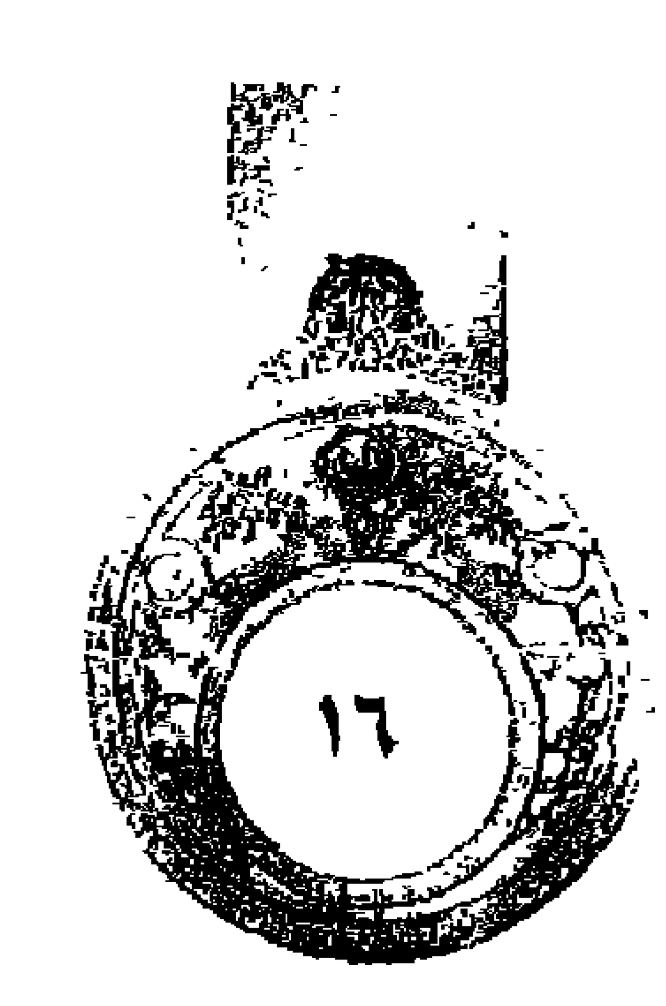
قلعة دمشق – التي أعاد بناءها (نور الدين محمود)



للمـركـز والدائرة، يقول ابـن واصل معـبـرا عن ذلك بكلمـات دقـيقـة فى موضعها: «لما مات والده «يعنى العادل» خشى (الكامل) أن يتخلى عنه إخوته ولا يطيق دفع الفـرنج عن الديـار المصـرية، وفى ملكهم لهـا بوار الإسـلام بالكلية»، ويضيف فى موضع آخر بعد أن تمكن الصليبيون من الاستيلاء على دمـياط: «واشـتد طمع الفـرنج حينئـذ فى ملك الديار المصـرية، وظنوا أنهم يملكون بملكها لبيت المقدس وسائر بلاد الشام».

وليس الكامل وحده هو الذى آمن بهذه الحقيقـة، بل شاركه إيمانه هذا الناس أجمعون وفى مقدمتهم ملوك وأمراء بنى أيوب فى الشـام، وعبّر عن ذلك سلوك الأشرف موسى حين اعتذر إلى الخليفة العباسى عن عدم استجابته لطلبه بالقدوم إليه بعساكره للمشاركة فى التصدى للمغول؛ لأنه فى شغل بمصر عن غيرها، وأنه ذاهب لنجدة أخيه الكامل حتى لا تقع مصر فى أيدى الصليبيين، بل إن الأشرف رفض الاستـماع إلى نصيحـة بعض خواصه بالاكتفـاء بإرسال العساكـر إلى مصر والبقاء هو فى دياره خـوفا من حدوث الفتن والاضطرابات أثناء غيابه، وكـان جوابه أنه خرج إلى مصر «بنية الجـهاد ولا بد من إتمام هذا العزم»، ويتكرر موقف الأشرف بعينه تجاه الخليـفة العباسى مع جماعات الكرج عندما كـتبوا إليه ليعينهم على التصدى للمـغول، ولا نجد هنا أفضل من ترك القلم للمـؤرخ المعاصر ابـن واصل ليؤكد كل مـا ذهبنا إليـه، يقـول: «. . .فوصلـت رسلهم (أى الكرج) إلى الملك الأشـرف وهو يتجـهز لـلمسـير إلى نجـدة أخيـه السلطان الملك الكامل، ليدفع الفرنج عن الديار المصرية، **وكـان ذلك عنده من أهم الوجـوه**، لأمور: أحـدها أن الفرنج ملكـوا ثغر دميـاط، وقد أشرفت الـديار المصرية على أن تُملك، **ولو مُلكت لم يبق بالشام ولا غيره مُلك لأحد**. وثانيـها، أن الفـرنج أشد شكيـمة من التـتار، **وطالبـوا مُلك وإقامـة ملة** (لاحظ هذه الملاحظة الذكـية لابن واصل)، وإذا ملكوا قـرية لا يفـارقـونها إلا بعـد العجز عن حفظهـا يوما واحدا. وثالثها، **أن الفرنج قد طمـعوا فـى كرسى مملكـة البيت الأيوبـى؛ وهو مصـر**، والتـتار لم يجـاوزوا بلاد العـجم، وليس غرضـهم إلا النهب والقـتل وتخريب البـلاد، والانتقـال من بلد إلى آخر» (لاحظ هنا أيضا استكمـال الملاحظة السابقة)، وما


بدلة حربية استخدمها المسلمون فى الحروب الصليبية

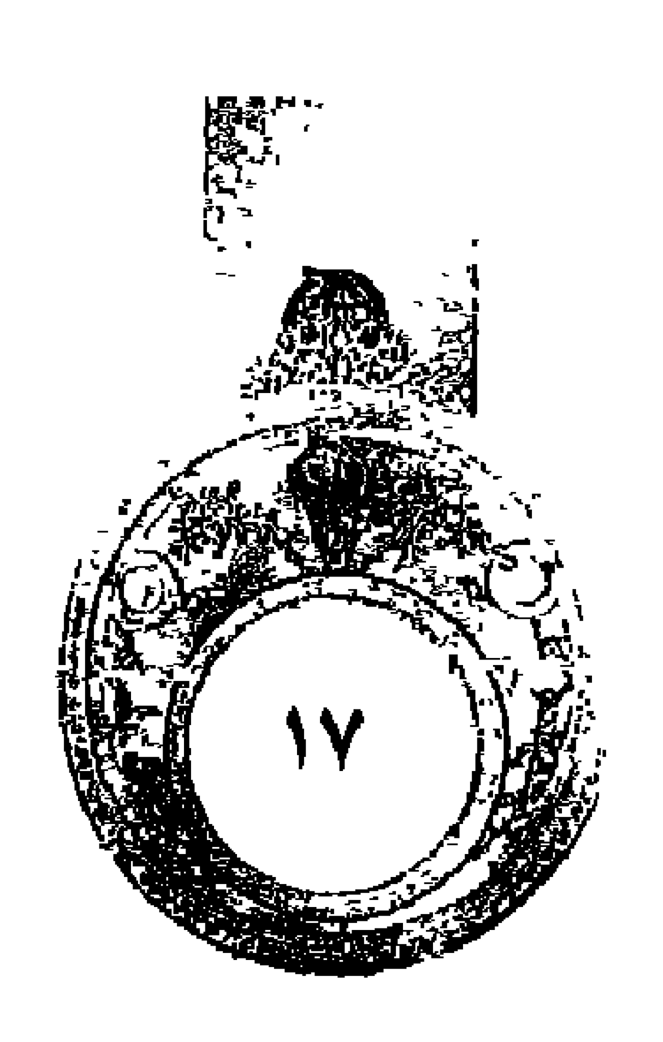


يقوله ابن واصل هنا لا يحتاج لأى تعليق سوى التركيز على عبارته «**إن دفع الفرنجة عن الديار المصرية هو من أهم الوجوه**». ويؤكد المقريزى هذا المعنى عندما يحدثنا عن الرسائل التى بعث بها السلطان إلى الآفاق «تستنجد أهل الإسلام على قتال الفرنج، وتستحثهم على إنقاذ المسلمين وإغاثتهم، وتخوفهم من تغلب الفرنج على مصر، **فإنه متى ملكوها لا يمتنع عليهم شىء من الممالك بعدها**».

وإذا كانت تلك مشاعر الأشرف موسى وجهوده التى لم تقف عند هذا الحد، بل تعدتها إلى قدومه بنفسه إلى مصر بقواته للوقوف إلى جوار أخيه جهادا ضد الصليبيين، فإن المعظم عيسى لم يكن أقل منه حماسة فى هذا المجال، فقد شخص إلى مصر وقبض على عماد الدين بن المشطوب، ونفاه إلى أعالى الشام، وخلص أخاه من شر تآمره، ووقف يؤازر الكامل بقواته لطرد الصليبيين، خاصة وقد راحت أعداد هؤلاء تزداد بصورة واضحة بعد سقوط مدينة دمياط فى أيديهم، إذ يخبرنا ابن واصل أن «الفرنج الذين هم داخل البحر لما بلغهم مُلك إخوانهم ثغر دمياط وتمكنهم من الديار المصرية، ساروا إلى مصر مجدّين واتخذوا مصر دار هجرتهم، وقدم منهم إلى دمياط أمم لا تحصى». هذا إضافة إلى أن المعظم كان قد أقدم من قبل على هدم أسوار بيت المقدس مخافة أن يستولى الصليبيون على المدينة فيتحصنوا بهذه الأسوار.

هكذا بنى الكامل إستراتيجيته على أساس أن تظل مصر آمنة بمنأى عن الوقوع فى أيدى هؤلاء الصليبيين، محتفظة بقدرتها العسكرية وقوتها السياسية حتى يمكنها أن تستمر زعيمة لحركة الجهاد، ولم يكن التلويح بتسليم القدس للصليبيين وإحياء مملكة بيت المقدس لتعود إلى ما كانت عليه حدودها قبل حطين، إلا مناورة تكتيكية فقط لا تذهب أبعد من ذلك مطلقا، وكان هذا واضحا تماما لأعين أخوى الكامل وأمراء البيت الأيوبى فى الشام، وماثلا بصورة لا تقبل الشك لدى المؤرخين المعاصرين آنذاك. يقول ابن واصل: «**كان الملك الكامل ـ رحمه الله ـ يعلم أن الفرنج لا يمكنهم الامتناع بالقدس مع خراب أسواره، وأنه إذا قضى غرضه واستتبت الأمور له، كان متمكنا من تطهيره من الفرنج وإخراجهم منه**»!! ويضيف «**رأى الكامل أن يرضى الفرنج بمدينة القدس خرابا ويهادنهم مرة، ثم هو قادر على انتزاع ذلك منهم متى شاء**»!!. ولا بد لمن يقرأ هذه العبارات أن يتوقف طويلا عند الثقة المطلقة التى يتحدث بها ابن واصل معبرا عن سياسة السلطان، والعبارة الأخيرة بصفة خاصة تدعم تماما الرأى الذى نذهب إليه.

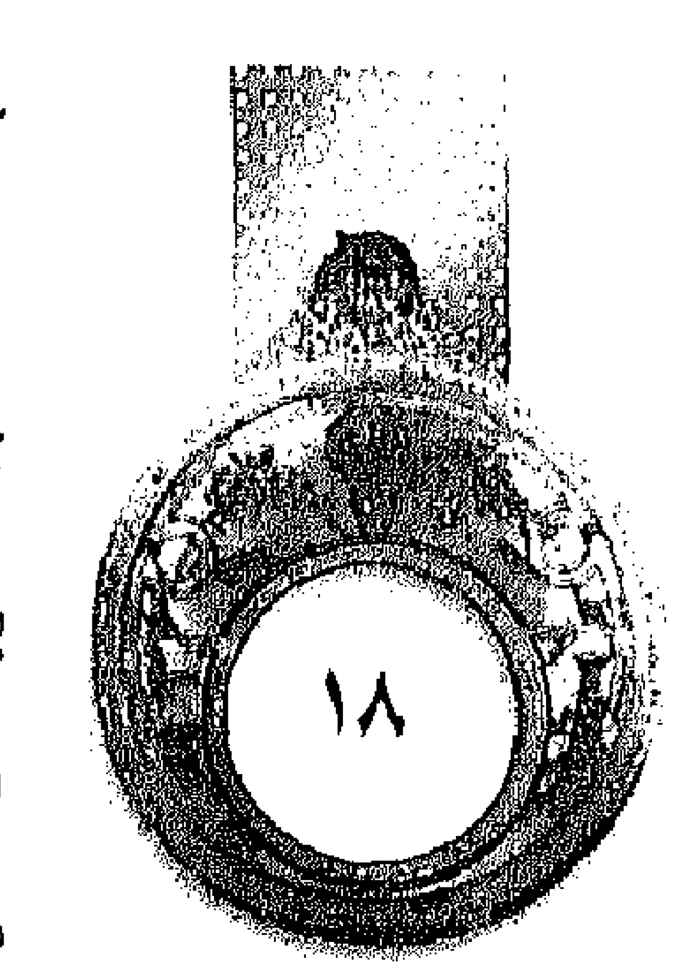
وبشىء من التدبر للخطوات التى خطاها الكامل فى المجالين العسكرى والدبلوماسى، ندرك أن الرجل كان يحسب للأمر حساباته بدقة متناهية، تنم فعلا عن دهاء سياسى كما حدّث عنه ابن واصل ومعاصروه، وأن عروضه المتكررة للصلح لم تكن خبط عشواء، بل كانت بقدر معلوم؛ فما



إن وقع برج السلسلة فى أيدى الصليبيين، وقطعت المآصر الحديدية التى تعترض مجرى النيل عند فمه، حتى بادر الكامل بإقامة جسر كبير يمتد بعرض النيل جنوبى برج السلسلة، عوضا عن البرج والمآصر ليحول دون دخول مراكب الصليبيين فى مجرى النهر، غير أن الصليبيين لا يزالون بهذا الجسر حتى قطعوه وحطموه رغم المقاومة العنيفة والقتال الشديد الذى أبداه الكامل للحفاظ عليه، فلما تم للصليبيين ذلك عمد السلطان إلى مجموعة من السفن فأغرقها حتى تعترض طريق سفنهم، بديلا عن السلاسل التى قُطعت والجسر الذى تحطم، وليس أدل على حرص الكامل على الجهاد من هذا الذى أقدم عليه لمنع زحف الصليبيين جنوبا باتجاه القاهرة، بل إن المقريزى يذكر أن الأموال التى أنفقها السلطان على تحصين البرج قبل سقوطه، والجسر الذى أقامه، بلغت سبعين ألف دينار، وهذا مبلغ ضخم جدا إذا قيس بمعايير تلك الفترة، وللمرة الثالثة تحايل الصليبيون على ما دبره الكامل، فاتجهوا إلى الخليج الأزرق الذى كان واحدا من فروع النيل القديمة، ويصل بين النيل والبحر المتوسط، وكان قد طُمر بعض الشيء، فأقدموا على حفره وتعميقه حتى يمكنهم تسيير دفة سفنهم فيه بين البحر والنيل، تفاديا للحواجز والعوائق التى أقامها السلطان فى مجرى النهر، وقد نجحوا فى ذلك فعلا، وواصلوا زحفهم إلى بداية الخليج القديمة عند قرية «بورة» على رأس المثلث الذى تشكله جيزة دمياط، فأصبحوا بذلك فى مواجهة معسكر العادلية الذى يعسكر فيه الكامل قبل ارتداده عنه فى أعقاب مؤامرة ابن المشطوب. ولم يقف الأمر بالسلطان عند هذه الجهود الدفاعية فقط، بل أقدم فى أكتوبر ١٢١٨م/ ٦١٥هـ، أى بعد أربعة شهور فقط من عبور النهر وشن هجوم مباغت على المعسكر الصليبى فى جيزة دمياط، وإذا كان هذا الهجوم لم يحقق نجاحا معينا، إلا أنه كان محاولة لشغل الصليبيين عن التمكين لأنفسهم فى المنطقة التى نزلوا بها غربى النيل، وتكرر هذا الهجوم ثانية من جانب سلطان مصر فى أغسطس ١٢١٩م/ ٦١٦هـ، وكان فى هذه المرة أقسى من سابقه.

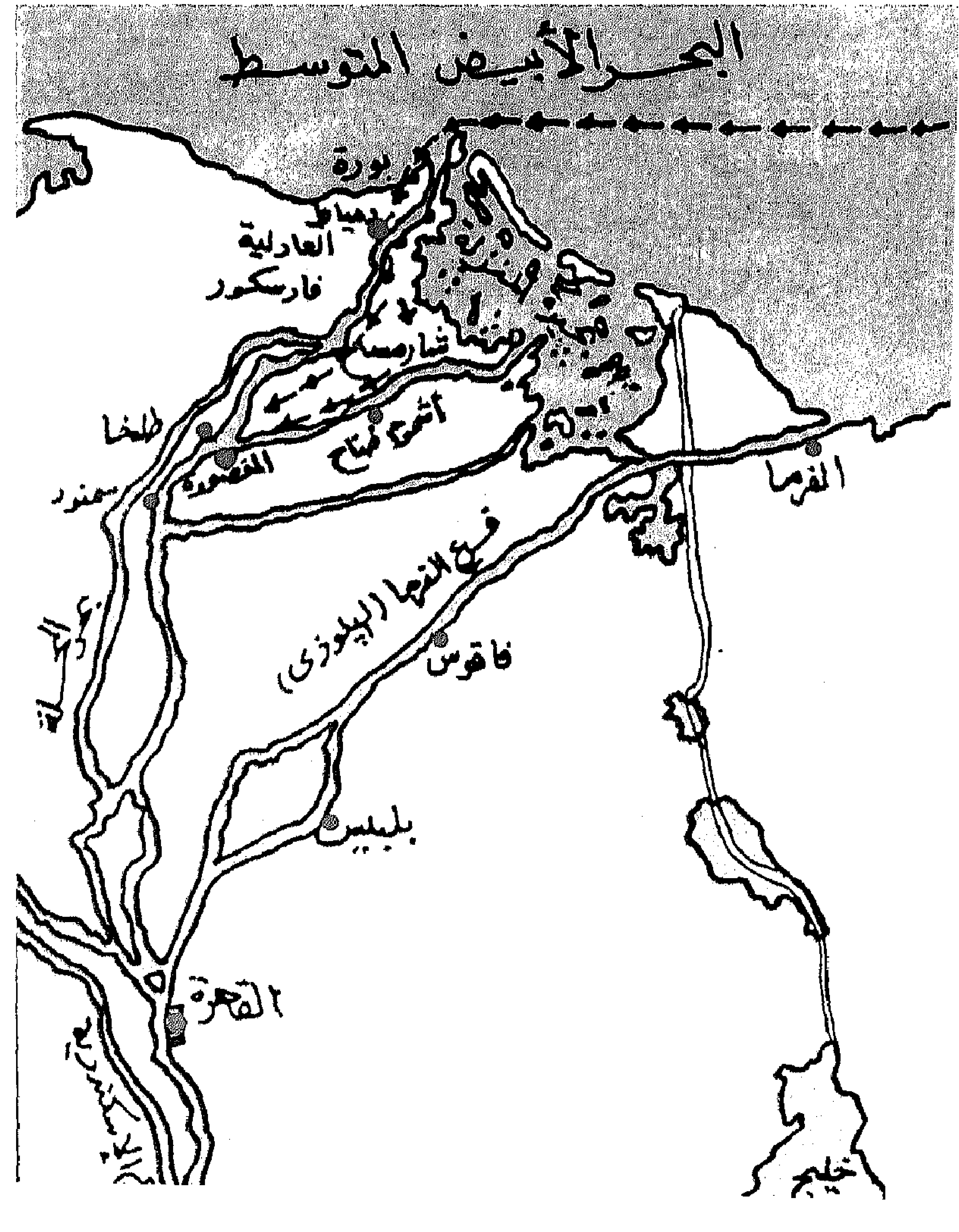
ووسط هذه الجهود الدفاعية والمناوشات الهجومية، سلك الملك الكامل الطريق الآخر، نعنى فتح باب المفاوضات مع الصليبيين، فى محاولة للتوصل إلى حل عن طريق الدبلوماسية، فتقدم بعرضه الأول خلال الأسبوعين الأولين من مارس ١٢١٩م/ ٦١٦هـ وبعد شهر واحد فقط من استيلاء الصليبيين على معسكر العادلية، بعد انسحاب الكامل منه على إثر التآمر الذى دبره عماد الدين بن المشطوب. ومن الجدير بالذكر أيضا التأكيد على أن المعظم عيسى كان قد وصل لتوه إلى مصر آنذاك استجابة لنداءات أخيه المتتالية لمؤازرته فى هذا الموقف العصيب، ومن ثم فليس هناك شك فى أن الكامل قد أطلع أخاه المعظم على نيته بعرض الصلح وأهم بنود هذا العرض.

ومن الخطأ القول: إن العرض تضمن تسليم الصليبيين مدينة بيت المقدس وكل «الفتوح الصلاحى» فى مقابل الجلاء عن دمياط، فلم يكن الصليبيون قد استولوا بعد على دمياط، وإنما

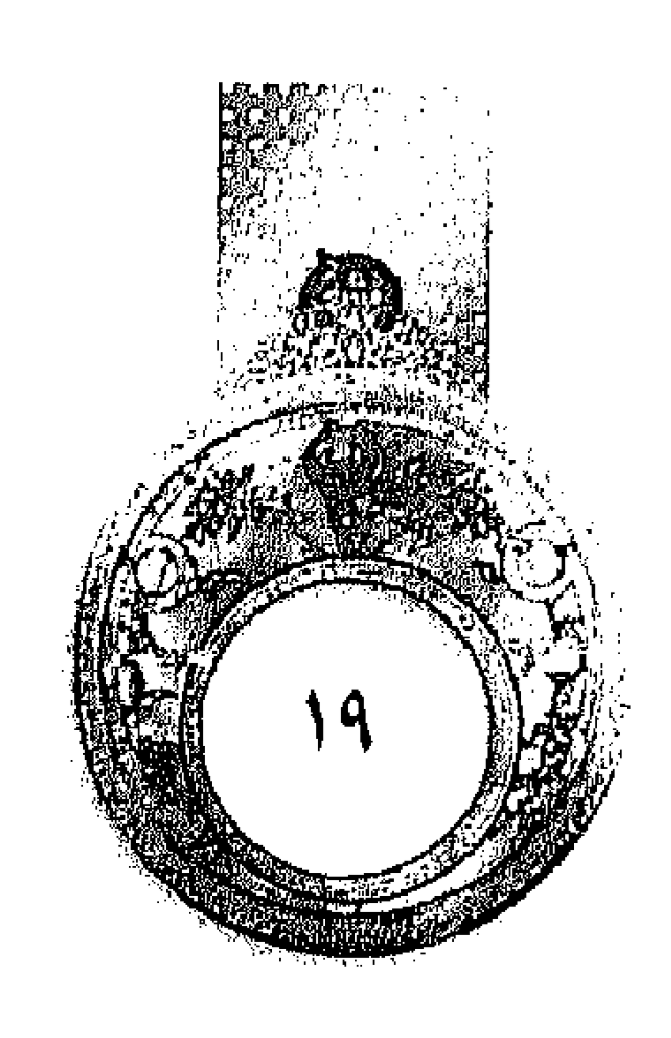


كانوا فقط قد بدأوا فى تطويقها وفرض الحصار عليها، ومن المعلوم أن المدينة ظلت صامدة لهذا الحصار على امتداد تسعة أشهر كاملة، ومن ثم لا بد أن تكون شروط الصلح قد تضمنت دعوة الصليبيين للجلاء عن الديار المصرية، بتعبير أدق، عن المناطق التى احتلوها بالفعل وهى جيزة دمياط والعادلية، ورفع الحصار عن دمياط. وتجدد عرض هذا الصلح مرة ثانية فى أغسطس من العام نفسه (١٢١٩م)، فى أعقاب هجوم الكامل على المعسكر الصليبى، وأضيف إلى شروط هذا العرض هذه المرة، طلب الصليبيين دفع مبلغ ثلاثمائة ألف دينار لإصلاح أسوار بيت المقدس التى كان الملك المعظم عيسى قد أقدم على هدمها حتى لا يفيد منها الصليبيون إذا وقعت المدينة فى يديهم، وهو ما أشرنا إليه قبلا.

وقبيل سقوط دمياط مباشرة فى يد الصليبيين، وهو ما حدث فى الخامس من نوفمبر ١٢١٩ (٢٥ شعبان ٦١٦هـ)، تقدم الملك الكامل للمرة الثالثة يعرض الصلح على الصليبيين، وعاد هؤلاء أيضا يقفون من العرض بين مؤيد يتزعمه الملك چان دى برين، ومعارض يقود خطوه المندوب البابوى بلاجيوس، وكانت النتيجة المحتومة فشل المفاوضات هذه المرة أيضا كما فشلت سابقا. وبسقوط المدينة أقام الصليبيون فيها عامين كاملين فى نوع غريب من الاسترخاء العسكرى، وآمنوا أنهم باستيلائهم على دمياط قد ملكوا مفتاح الديار المصرية، وأن القاهرة قد أمست قاب قوسين أو أدنى من أيديهم، وأن مملكة بيت المقدس آتية لا ريب فيها!! حتى إذا كانت بدايات النصف الثانى من يوليو ١٢٢١م/ ٦١٨هـ وأخذت القوات الصليبية تتحرك باتجاه الجنوب تبتغى القاهرة، أسرع الكامل للمرة الأخيرة يعرض الصلح



تحرك الصليبيين جنوبا



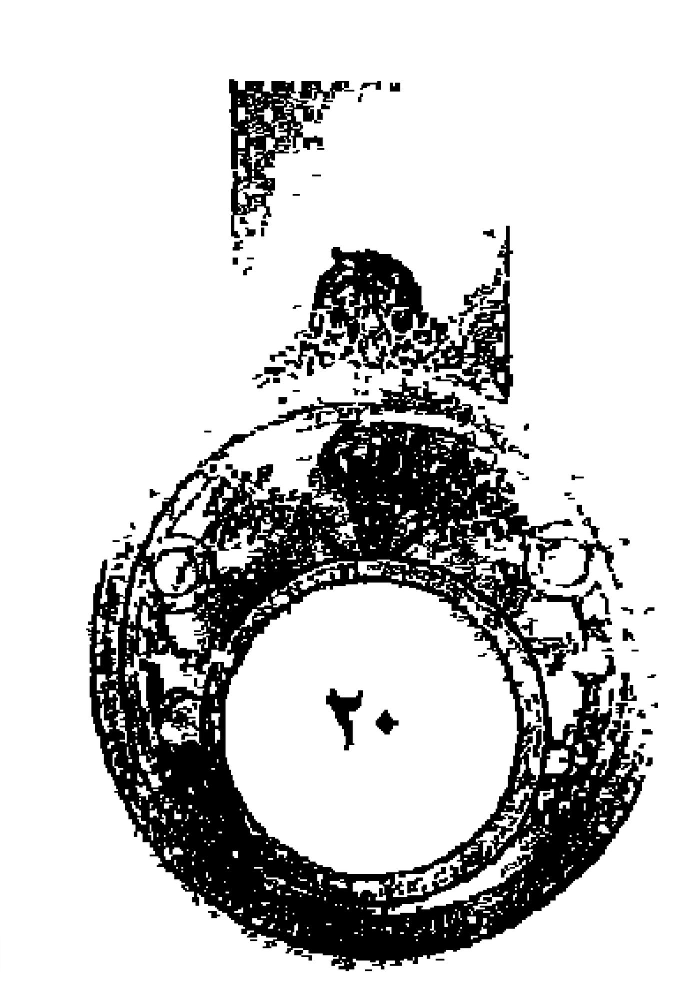
على الزاحفين، ويعدهم بتسليم مدينة بيت المقدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبلة واللاذقية، وجميع «الفتوح الصلاحى» وثلاثمائة ألف دينار لإصلاح أسوار بيت المقدس، ويزيدهم من فضله التعهد بإعادة «صليب الصلبوت» أو «الصليب الأعظم» الذى تردد الروايات المسيحية أنه هو الذى شهد تعليق المسيح عليه!! وإذا كانت العروض السابقة كلها قد لقيت الرفض وخاصة من جانب بلاجيوس وشيعته، فقد كان من المنطقى أن يتم رفض هذا العرض أيضا، ولم لا وقد آنس الصليبيون من أنفسهم قوة وهم يرون زحوفهم تقترب من المعسكر الكاملى فى المنصورة، وإن هى إلا جولة أو بعض جولة ثم يجدون أنفسهم فى القاهرة!!

وطوال هذين العامين (١٢١٩ ـ ١٢٢١م)/ (٦١٦هـ - ٦١٨هـ) لم يقف الكامل مكتوف اليدين، بل ظل مرابطا للجهاد، مثابرا على مناوشة الصليبيين فى دمياط وحولها من المناطق فيما يمكن أن نسميه بتعبيرنا الحديث «حرب الاستنزاف» حتى لا يهدأ للصليبيين بال أو تقر لهم عين.

ولعل أوضح الأمثلة على ذلك قيام الكامل باختيار موضع إستراتيجى لإقامة معسكره فيه بعد ارتداده من العادلية وتخليه عن فكرة الإقامة فى فارسكور، وهو موضع يقع إلى الجنوب من فارسكور شرقى دمياط، فسيح معتدل الهواء مثلث الشكل تقريبا بين بحر أشموم والشاطئ الشرقى للنيل، قبالة قرية اسمها «جوجر» إحدى قرى طلخا حاليا. وليس أفضل هنا من أن أترك القلم لأستاذنا الدكتور محمد مصطفى زيادة ليسجل بنفسه «عبقرية المكان» الذى اختاره الكامل وهيئة قيادته، يقول: «. . . كان طبيعيا أن يختار السلطان الكامل هذا الموضع الفضاء الفسيح لمعسكره الجديد، لا اعتباطا أو خبط عشواء، بل بناء على



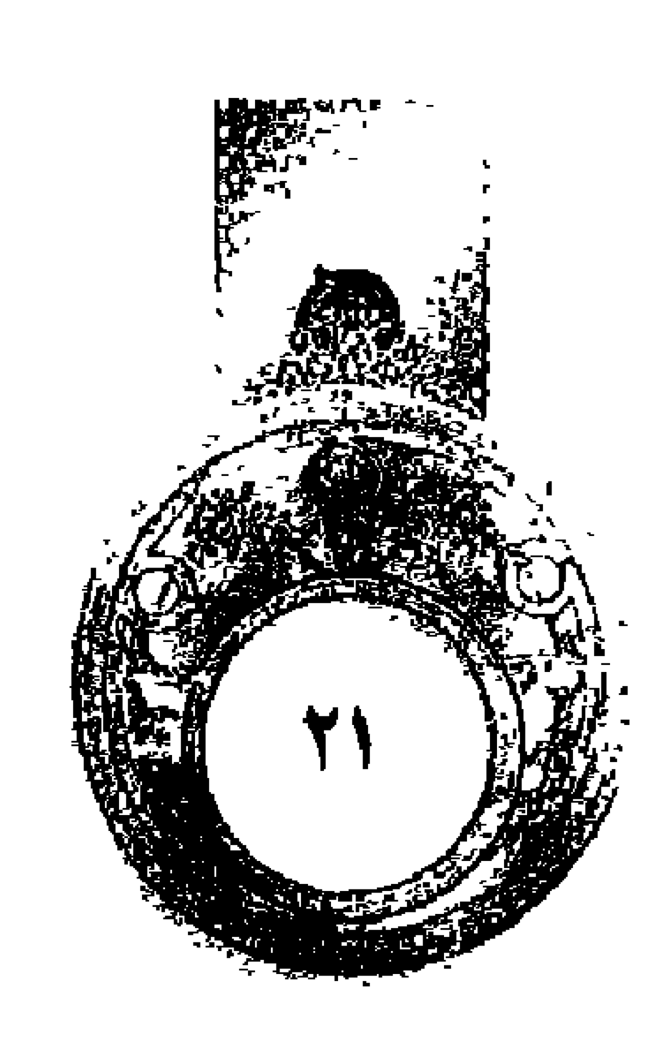
مدينة المنصورة



اعتبارات إستراتيچية واضحة الأهمية لأغراض السلطان الحربية ضد الحملة الصليبية التى باتت مسيطرة على دمياط وتستعد للزحف إلى القاهرة. ويبدو أن اختيار هذا المكان قد استقر فى ذهن الكامل قبل ذلك عند انتقاله من العادلية إلى فارسكور، فأودعه فى حساب خططه العسكرية المستقبلية. وكان من بين الاعتبارات الإستراتيچية أن هذا الموضع حصين بضلعين مائيين هما البحر الصغير وفرع دمياط، ومن ثم فلا تستطيع الحملة الصليبية أن تصل إليه برا إلا بعد عبور البحر الصغير الذى يعرف بشدة انحدار جانبيه وسرعة تياره، كما لا تستطيع أن تصل إليه عن طريق النيل إلا بأسطول نهرى طويل لا بد أن يبعد عن قواعده، ثم إن هذا الموضع تنتهى عنده أقصر مسافة لوصول النجدات الأيوبية المنتظر قدومها من الشام عبر شبه جزيرة سيناء والأطراف الشرقية المصرية، كما أنه قريب من طريق البريد والمواصلات الرئيسية إلى القاهرة، فضلا عن قربه من ميناء سمنود ذات الصوارى والسفن النيلية التجارية الكثيرة، والمحاصيل الزراعية الوفيرة، والمركز الجغرافى الواصل بين بلاد الدلتا، وهكذا يتضح أنه لم يكن فى الإمكان أحسن مما كان من اختيار السلطان الكامل لهذا الموضع لنقل معسكره إليه. وليس أدل على حسن هذا الاختيار من مجموعة الحوادث التى جرت فى مسالكها، ودونت حركات الحملة الصليبية غداة زحفها من دمياط، وسجلت أوصاف النشأة الأولى لمدينة المنصورة الحالية».

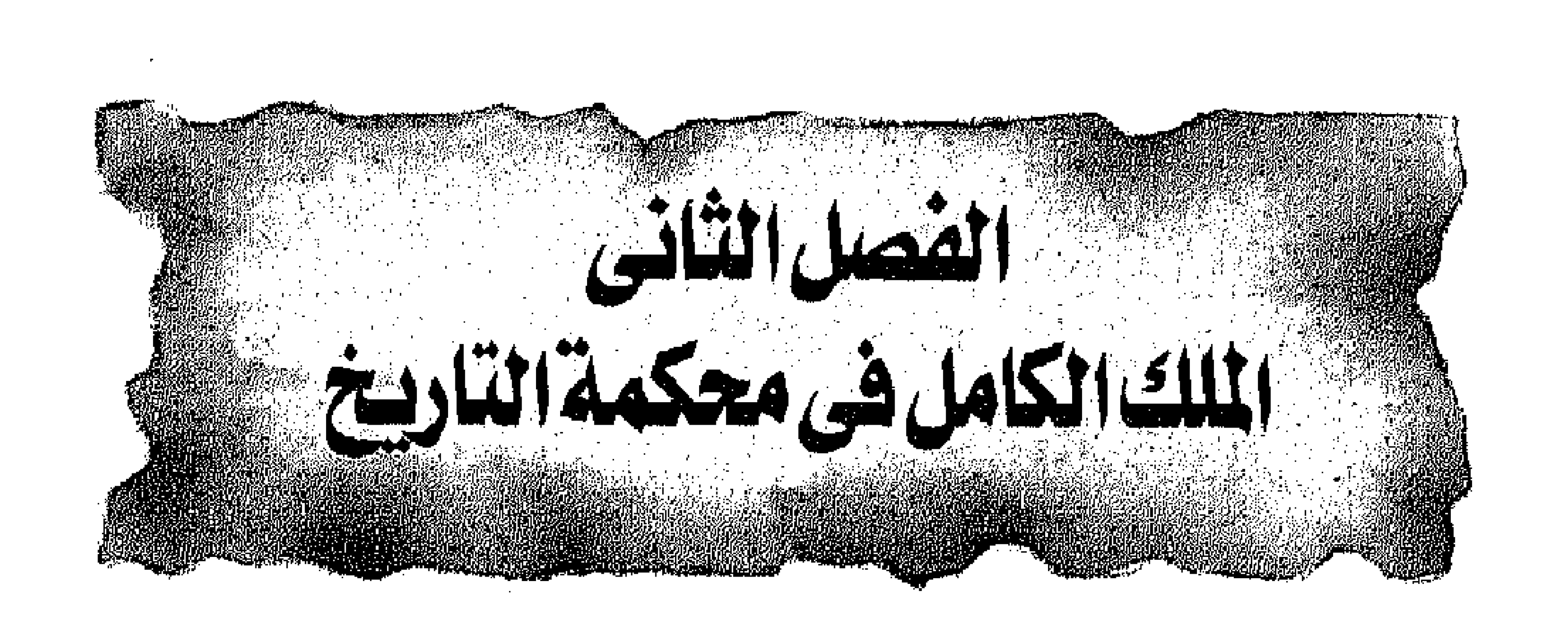
لقد كان هذا الموضع الذى اختارته القيادة العسكرية السياسية فى مصر لإقامة معسكرها فيه. هو الذى عرف فيما بعد باسم «المنصورة»، وكانت إقامة المعسكر هناك هى النواة الأولى لميلاد هذه المدينة، التى قدر لها أن تحقق شهرة واسعة فى التاريخ الأيوبى، وخاصة فى الحملة الصليبية السابعة التى قادها لويس التاسع ملك فرنسا من بعد إلى مصر. ويقول مؤرخنا المقريزى: «هذه البلدة على رأس بحر أشموم تجاه طلخا، بناها السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد. . . فى سنة ست عشرة وستمائة، (٦١٦هـ/ ١٢١٩م) عندما ملك الفرنج مدينة دمياط، فنزل فى موضع هذه البلدة وخيم به وبنى قصرا لسكناه، وأمر من معه من الأمراء والعساكر بالبناء فبُنى هناك عدة دور ونصبت الأسواق، وأدار عليها سورا مما يلى البحر (النيل) وستره بالآلات الحربية والستائر (الدفاعات)، وتسمى هذه المنزلة «المدينة المنصورة»، ولم يزل بها حتى استرجع مدينة دمياط».

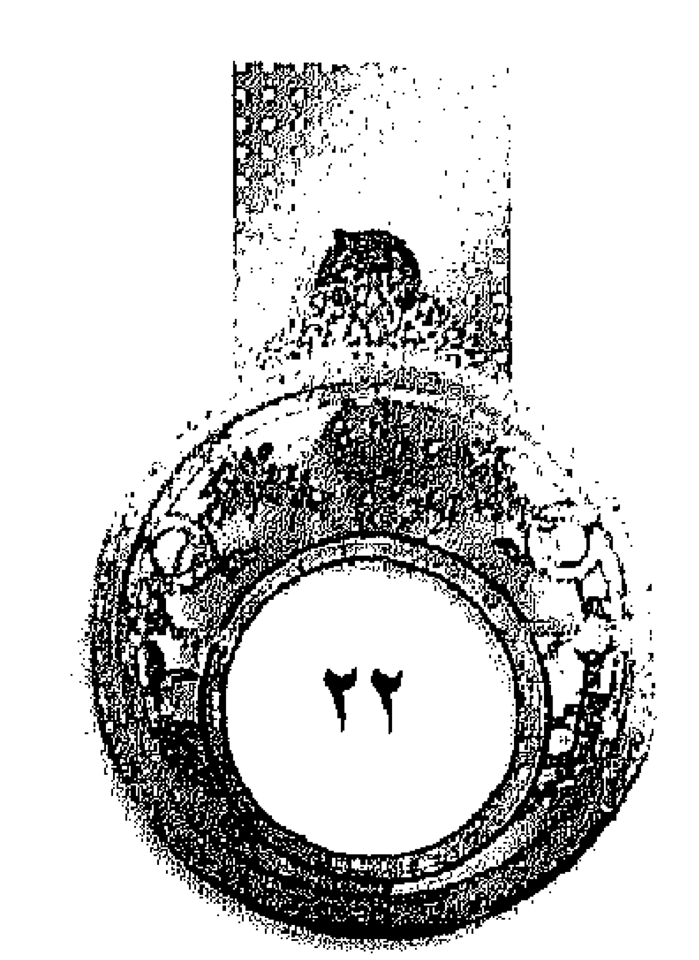
هكذا استغل الكامل فترة «الاسترخاء العسكرى» الصليبى فى دمياط طيلة العشرين شهرا التى أمضاها الصليبيون فى المدينة بعد سقوطها فى أيديهم (الخامس من نوفمبر ١٢١٩م) وحتى بداية زحفهم جنوبا باتجاه القاهرة (السابع عشر من يوليو ١٢٢١م)، وأخذ فى تحصين هذا «المعسكر» الجديد الذى نزل فيه، وإقامة الاستحكامات الدفاعية اللازمة لمواجهة الهجوم الصليبى



المتوقع، إضافة إلى ما ذكرناه لتونا عن المناوشات التى كانت قواته تقوم بها لإرهاق الصليبيين، ويكفى أن نرجع فقط إلى صفحات المؤرخ المعاصر ابن واصل لنجده يستفتح سنوات تأريخه لهذه الفترة وتلك الأحداث بعبارة واحدة تعنى قيام الملك الكامل بواجباته العسكرية خير قيام، فيقول مؤرخنا مثلا: «واستمر الملك الكامل إلى آخر هذه السنة (٦١٥هـ/ ١٢١٨م) محاربا للفرنج منازلا لهم»؛ وفى موضع آخر يقول: «ودخلت سنة ٦١٦هـ والملك الكامل صاحب مصر فى مقابلة الفرنج ومحاربتهم»؛ ويضيف ضمن أحداث هذه السنة، «وحين جرى هذا الأمر الفظيع (استيلاء الصليبيين على دمياط) ابتنى الكامل مدينة وسماها المنصورة. . . ونزل فيها بعساكره وبنى عليها سورا على بحر النيل»؛ «ودخلت سنة سبع عشرة وستمائة والسلطان الكامل مستقر فى المنصورة، مرابط لجهاد الفرنج».

وإلى جانب هذا الجهد العسكرى الذى بذله الكامل، نجده يسلك طريقا جادا آخر منذ اليوم الأول لتوليه مسئولية الحكم فى مصر، وذلك عن طريق إشراك أبناء البيت الأيوبى وأمراء المسلمين بالشام فى مسئولية الدفاع عن مصر باعتبارها زعيمة حركة الجهاد آنذاك والسند والمحرك الأساسى لها ضد الصليبيين، وكان الكامل شديد الإلحاح فى طلب النجدة والعون من أمراء المسلمين عامة، والبيت الأيوبى وأخويه المعظم والأشرف بوجه خاص. وتطالعنا افتتاحيات السنوات عند ابن واصل بهذه العبارة، «واصل السلطان الكامل كتبه إلى إخوته وأهل بيته يحثهم على سرعة الحركة، والقدوم إليه فى العساكر (الإسلامية) لدفع العدو عن مصر». وكانت نتيجة ذلك فى نهاية الأمر أن «خرج الملك الناصر (ابن المنصور) من حماه فى عساكره، ولقى خاله الملك الأشرف وانضوى إليه، وخرج إليه أيضا الملك المجاهد (صاحب حمص) أسد الدين شيركوه، والملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه ابن فرخشاه (صاحب بعلبك) فى عساكرهما، ثم سار الملك الأشرف وأخوه الملك المعظم ومن انضاف إليهما من العساكر المذكورة إلى الديار المصرية نجدة الملك الكامل على الفرنج». وهكذا لم يتوان أيضا أبناء البيت الأيوبى عن القدوم إلى مصر لعلمهم أهميتها بالنسبة لهم والعالم الإسلامى جميعه؛ لأن «فى ملك الصليبيين لها - كما يقول ابن واصل - بوار الإسلام بالكلية».





الفصل الثانى
الملك الكامل فى محكمة التاريخ

ترى.. هل يمكن أن يقال عن رجل مثل الملك الكامل أخذ على عاتقه منذ تولى زمام الأمور فى مصر بعد استيلاء رجال الحملة الصليبية الخامسة على برج السلسلة، مهمة الجهاد متمثلة فى حرب استنزاف طويلة، وتشييد معسكر المنصورة، ومواصلة المراسلات طلبا للنجدة من إخوته وأقربائه وآل بيته، وسط ظروف غاية فى التعقيد، سافرة أو مستترة، تتبدى فى مؤامرة أحد القادة العسكريين وجماعته الأكراد، وهجمات البدو والعربان على الدلتا، وانخفاض النيل وظهور بوادر الأزمة الاقتصادية، ووصول صدى دقات طبول المغول الزاحفين غربا بهمة لا تعرف الكلل أو الرحمة. نقول.: هل يمكن أن يقال عن رجل هذا شأنه أنه قد ألح فى عرض الصلح على الصليبيين إلى حد «الإفراط» فى هذا العرض، دون أن يكون فى رأسه تكتيكا عسكريا وبعدا إستراتيجيا يسعى إليه و«يرابط» من أجله؟

ولعل خير إجابة على هذا التساؤل ما قال به المؤرخ الصليبى المعاصر لأحداث هذه الحملة «چاك دى ڤترى» Jacques de Vitry، معبرا عما يدور فى ذهن عدد من زعماء الصليبيين آنذاك، وخاصة المندوب البابوى بلاجيوس، القائد الفعلى للحملة، وصاحب الموقف الرافض أبدا لكل عروض الكامل، إذ كان يعتقد تماما أن سلطان مصر لم يكن خالص النية فى عرضه ذاك، بل إنه يهدف من وراء ذلك إلى بذر بذور الشقاق بين صفوف القوات الصليبية. وقد يكون من المنطقى أن نصدق «ڤترى» فيما يذهب إليه ولكن بدءا من العرض الثانى للصلح وما تلاه، بعد ما رآه من حدوث الخلاف فعلا بين قادة الحملة، أما فى المرة الأولى فإن ذلك يعد مستبعدا؛ لأن الكامل كان يخاطب فيما يتصور قيادة واحدة للحملة هى الملك چان دى برين، أما وقد دب النزاع فعلا بين الملك والمندوب البابوى، فإنه يصبح من الذكاء السياسى تعميق هوة ذلك الشقاق بين الرجلين، كوسيلة من وسائل تحقيق أكبر قدر ممكن من الفشل لهذه الحملة. ولا يمكن أن ننكر أبدا أن هذه السياسة التى «أفرط» الملك الكامل فى اتباعها قد أتت أكلها فيما آل إليه أمر الحملة الخامسة فى النهاية.

لقد وقف چان دى برين وأنصاره من الأمراء الصليبيين فى الشام فرحين بما عرضه الملك الكامل، ولعبت المصالح الخاصة لدى الفريقين دورا كبيرا إن لم يكن الدور كله فى عناد كل منهم وإصراره على موقفه. ولعب الملك الكامل بدهاء سياسى على هذا الوتر لمصلحة مصر فى المقام

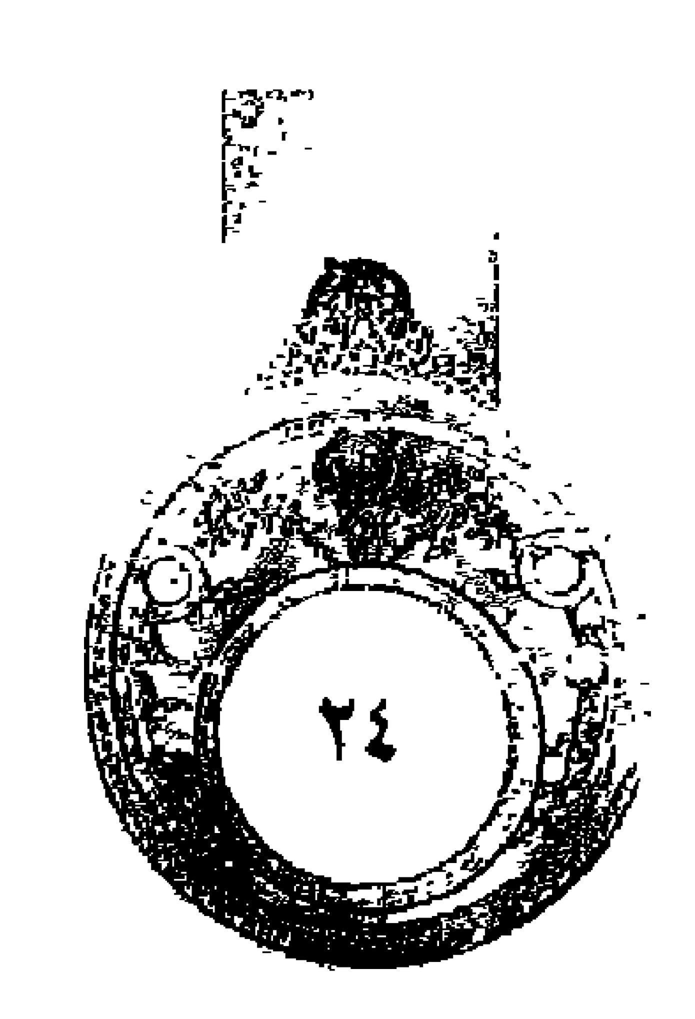
الأول، ولعله من المفضل أن نتوقف هنا قليلا لنجلو حقيقة الأمر ونفسر بدقة موقف الكامل رغم كل ما قيل عن الظروف التى أحاطت به ودفعته لتجديد عرض الصلح أكثر من مرة.

فالحملة الخامسة كانت تضم بين قواتها بصفة أساسية رجالا من المدن التجارية الإيطالية، البندقية وجنوة وبيزا، وهؤلاء جميعا لم يكن لهم هدف من هذه الحروب الصليبية إلا تحقيق أكبر قدر من الأرباح التجارية والمكاسب المادية، وهم يعلنون ذلك صراحة ودون مواربة؛ فالبنادقة يرفعون شعارا واضحا أنهم «بنادقة أولا وصليبيون ثانيا»!! أما الجنوية، «فجنوية أولا وعاشرا» ولا يرد للصليبية عندهم ذكر إلا بالقدر الذى يحقق لهم النفع الاقتصادى، وكذا كان البيزاوية. ومن ثم فالاستيلاء على دمياط، الميناء التجارى الهام شرقى البحر المتوسط، والقريب من الممتلكات الصليبية فى الشام، وبسط السيادة على مصر من بعد، وهذه المسألة الأخيرة بدت لهم شيئا قريب المنال بفعل وصول الكثير من النجدات إليهم قادمة من الشام أو أوروبا، وتكرار عرض الصلح من جانب سلطان مصر، وكان هذا كله يعنى لهم صفقة رابحة لا تعدلها صفقة أخرى ولا حتى سقوط القسطنطينية نفسها على أيدى صليبيى الحملة الرابعة والبنادقة بصفة خاصة، فمصر ملتقى الطرق التجارية الرئيسية القادمة من مناطق شرق أفريقيا وجنوب شرق آسيا، ولها السيادة على البحر الأحمر من مدخله حتى منتهاه، إضافة إلى ما تتمتع به هى فى حد ذاتها من الثراء والرخاء الاقتصادى، فكيف إذن لا تسيل لعاب التجار الإيطاليين أمام كل ذلك وقد تخيلوها الآن فى قبضة أيديهم؟!

ولعل نظرة إلى الشروط التى كانت تضعها هذه المدن التجارية الإيطالية مقابل نقل الصليبيين على سفنها من أوروبا إلى سواحل بلاد الشام، كضرورة إقامة أحياء تجارية خاصة بهم فى الموانئ التى يستولون عليها، بل



كنيسة القيامة - القدس



وتخصيص مدن كـاملة لهم فى بعض الأحيان مثل «جبـيل» وإعفاء تجارتهم من الضرائب والمكوس الجمركية، ومعاملـة تجارهم باعتبارهم أصحاب المرتبة الأولى وهكذا، لعل هذا كله يوضح الدوافع الحـقيـقية التى حـدت بهم إلى المشاركـة في هذه الحروب، كما أنه لا يخـفى علينا تلك الصراعات الدامـية والاقـتتـال العسكرى الذى دار بين هذه المـدن وبعضـها على سـواحل بلاد الشام، بسبب التنافس التجارى فيمـا بينها. وما لنا نذهب بعيدا وهذه الحالة ماثلة أمـامنا فى دمياط بعـد استيـلائهم عليهـا؛ فقد دبَّ النزاع بين التـجار الإيطاليين ومحاربيهم من ناحـية، والقوات الفرنسية وأنصار المندوب البابوى بـلاجيوس من ناحية أخرى، وشارك فى الفـوضى فرسان الداوية والإسبتـارية، فلم يكن أحد من هؤلاء جميعـا راضيا عما حـصل عليه من تصيب فى المدينة ومن الغنائم، فـلما أعيد توزيع الأسلاب مـن جديد، كان طبيعـيا أن يحصل الإيطاليـون على نصيب أكبر من سـابقه، هذا يذكرنا بما حدث تمامـا عندما تم الاستيلاء على القسطنطينية عام ١٢٠٤م، حـيث حظى التجار الإيطاليون بنصيب الأسد من المدينة والغنائم!

ولا شك أن هذا كـان باعـثا أسـاسـيـا لحمل التـجـار الإيطاليين على مـسـاندة بل ودفع «بلاجـيوس» إلى رفـض عروض السـلام المتكررة التى قـدمـها الكامل، فكـيف يمكن التنازل عن دمياط، وخاصة بعد أن تملكوها، وكيف يمكن التـفريط فى مصر وهم الآن على جزء من أرضها، والأمل يملؤهم فى السيـطرة عليها كـها بعد قليل؟! وقـد «زين لهم سوء عملهم ـ على حـد قول مؤرخنا المقريزى أنهم يملكون أرض مـصر ويستولون منها على ممالك البسـيطة كلها»!! وقد يزول العجب تماما وتختفى الحيرة كلها إذا علمنا أن المندوب البـابوى بلاجيوس كان يصرف جهده وهمه كله فى أوروبا، عندما كـان أسقفا لكنيـسة «سانتا لـوشيا» St. Lucia قبل قدومـه إلى مصر فى سبـتمبـر ١٢١٨م، فى الأمور التجـارية والصناعية والإدارية أكـثر من اهتمـامه بالمسائل الروحـية والكنسية.

أما فرسان الداوية والإسبـتارية، فقد وقفوا هم الآخرون يعضدون بكل مـا وسعتهم الطاقة وملأهم العداء، هذا المندوب البابوى فى تشدده لرفض مشـروع السلام، وليس من الصعب تفسير موقفهم هذا فى ضوء ما يعلمه جمـيعنا من أن مصر تحت زعامة الناصر صلاح الدين الأيوبى هى التى قضت على زعمـائهم وكبار فرسانهم، واستـولت على حصونهم وقلاعهم التى تمركـزوا فيها بالشام، وقوضت أحلامهم سواء قبل حطين أو بعدها، فكيف إذا واتتهم الفرصة الآن للانتقام من مصر وضرب الأفعى على رأسها، أن يهجروها؟! ولذا كان أمرا طبيعيا أن يقف الداوية والإسبتارية فى صف بلاجيوس لرفض أى مـحاولة للجلاء عن مصر، حتى ولو كـان المقابل هو القدس، بل

ومملكة بيت المقدس كلها. وإذا كانوا قد ملأوا الدنيا ضجيجا أنهم يشنون هذه «الحرب المقدسة» من أجل تخليص القدس وقبر المسيح من أيدى المسلمين، فإن القدس جاءهم الآن يسعى دون قتال، فإذا هم عنه راغبون!!

هكذا تكاتف التجار الإيطاليون وفرسان الداوية والإسبتارية ورجال الدين وعلى رأسهم هذا الـ «بلاجيوس» مندوب البابا، للوثوب على مصر أملا فى تحقيق الحلم القديم الذى راود الصليبيين الأوائل، وقاد فى سبيله عمورى الأول أربع حملات متتابعات دون أن يحقق أى نجاح. وهكذا أيضا تلاقت المصالح التجارية والمطامع الدينية، مما كشف بوضوح تام وبشكل سافر عن الوجه الحقيقى للحركة الصليبية.

أما الملك چان دى بريين وأمراؤه، فقد كانوا هم فقط الذين قبلوا عرض السلطان بالصلح، وإذا كان الملك الصليبى يدرك أن هذه فرصة ذهبية قد لا تتاح لهم من بعد أبدا، وأن القوى الصليبية المعسكرة فى دمياط لن تتمكن، مهما تدفقت عليها الإمدادات من أوروبا، من الاستيلاء على مصر بهذه السهولة التى يتصورها بلاجيوس وبطانته، وإذا كانت دمياط قد استغرقت ثمانية عشر شهرا قبل أن تمسى فى حوزة الصليبيين، فكيف بمصر كلها؟! إذا كان هذا كله ماثلا فى ذهن چان دى بريين عندما أبدى قبوله لعرض الصلح، فإن الدافع الشخصى أيضا كان حاثا قويا له على ذلك؛ فالرجل كان يحمل لقب «ملك بيت المقدس»، وهو مصطلح بلا معنى، إذ إنه لا يملك من مملكة بيت المقدس القديمة قبل حطين، إلا عكا فقط وبعض المدن الساحلية، بمقتضى صلح الرملة الذى وقعه ريتشارد قلب الأسد مع الناصر صلاح الدين، ومن ثم فكيف له أن يرفض عرضا يعيد إلى لقبه معناه الحقيقى، ويصبح كما يقولون اسما دالا على مسماه؟!

إذن فقد لعبت المصالح الخاصة والأهواء المتنافرة لدى الصليبيين دورا أساسيا فى نجاح سياسة الكامل الذى راح يجدد عرض الصلح على هؤلاء الصليبيين أكثر من مرة، وقد اشتدت حمى الخلاف بين كل من الملك والمندوب البابوى، وراحت تتصاعد بصورة حادة فى أعقاب كل مرة كان الملك الكامل يتقدم فيها بعرض الصلح، حتى إذا سقطت دمياط فى أيديهم، اعتقد چان دى بريين «يائسا» أن مهمته قد انتهت عند هذا الحد، وأنه قد أدى دوره، فعاد أدراجه ثانية إلى عكا، تاركا الساحة كلها لصلف بلاجيوس وغروره، ولعله من المفيد هنا أن نعيد بعض ما قاله المؤرخ الألمانى «ماير» وقدمناه فى صدر هذا الموضوع: «لقد كان (بلاجيوس) رجلا متطرفا عجيبا، جبارا عنيدا، مغترا بنفسه إلى حد بعيد جدا، شكل لنفسه حزبا من الجدد ومن رجال الهيئات الدينية، ومن التجار الإيطاليين، واستطاع بدعم منهم أن يخرج الأمر من يد الملك چان دى بريين... ومن ثم انقسم الجيش الصليبى إلى معسكرين متعاديين، وراح بلاجيوس يتدخل فى الشئون العسكرية دون

أى اكتراث بالقانون الكنسى، حتى آل إليه أمر قيادة الجيش، ولكنه لم ينجح فى شىء إلا فى تحقيق الفشل الذريع للحملة».

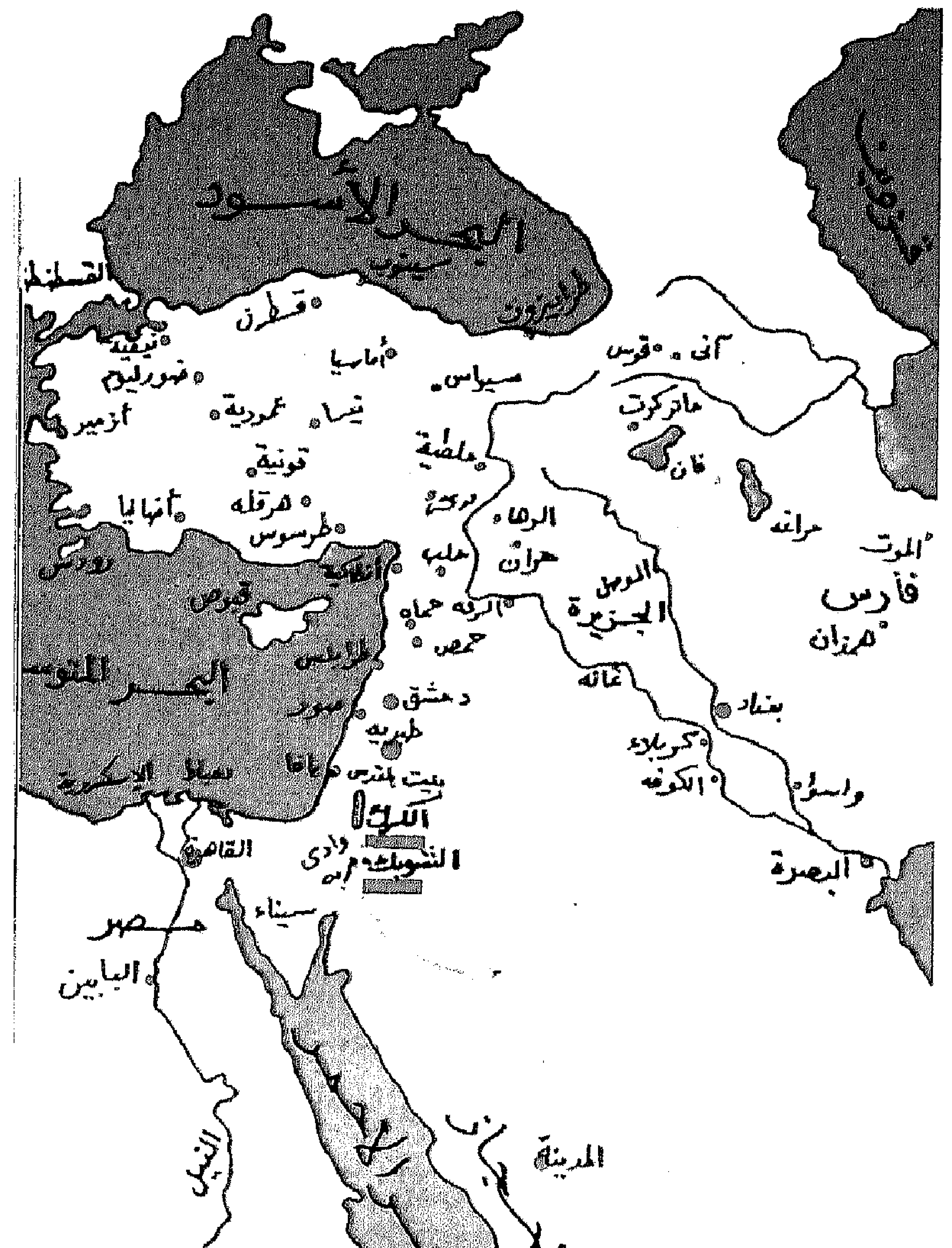
وهذه العبارة الأخيرة نجدها متمثلة تماما عندما تم اتخاذ القرار بالزحف جنوبا باتجاه القاهرة، فقد دبَّ النزاع مرة ثانية بين كل من الملك چان دى برين والمندوب البابوى بلاجيوس، إذ إن الأخير اتخذ قرار الزحف وحده دون الرجوع إلى الملك الذى لم يكن قد عاد من عكا حتى الآن، فلما قدم واطلع على خطة الزحف أبدى استياءه الشديد من تفاصيلها العسكرية، وأظهر عدم ارتياحه لجوانب هذه الخطة، غير أنه لم يجد آذانا صاغية من بلاجيوس وشيعته، ورغم تحذير الملك من مغبة الزحف فى هذا الوقت بالذات، حيث شهور فيضان النيل، إلا أن المندوب البابوى ضرب عرض الحائط بكل هذه الأمور العسكرية، مما كشف عن جهله التام وأنصاره بطبوغرافية منطقة الدلتا، ومع ذلك فقد جعل من نفسه القائد العام العسكرى للحملة، واضطر الملك الصليبى كارها أن يصيخ السمع لكل آراء المندوب البابوى، وإن كان فى الوقت نفسه قد اكتفى فقط بالتحذير من المخاطر التى تتهدد مسير الحملة على هذا النحو، وما يمكن أن يحيق بها من جوانب القوات الإسلامية.

ويلفت النظر فى هذا الجانب الذى نتحدث عنه، «المواقيت» التى اختارها الكامل ليتقدم بعرض الصلح مرارا على الصليبيين، فبغض النظر عن المرة الأولى التى أقدم فيها على ذلك مدفوعا بالظروف السياسية والعسكرية والأمنية والاقتصادية المحيطة به فى الداخل والخارج على السواء، نجده فى المرات التالية يتحين الفرصة السانحة بدقة بالغة للتقدم بهذا العرض حتى يكون له الهدف المنشود الذى يسعى إليه، بتعبير آخر، أن الملك الكامل لم يكن فى المرة الأولى قد وقف على الخلاف الكبير الحادث بين الملك الصليبى والمندوب البابوى، فلما تبين له حقيقة هذا الأمر بعد عرضه الأول بالصلح، أدرك بدهائه السياسى، والحرب خُدعة، أن العمل على تعميق هوة ذلك الشقاق بين الرجلين، كفيل بإحداث الاضطراب فى صفوف الصليبيين، ومن ثم كان هذا «الإفراط» فى عرض الصلح، وهذا لا ينفى وجود الدوافع الأخرى لدى الكامل، وإن كان هذا «الإفراط» من جانبه يمثل جزءا جوهريا من سياسته لإضعاف القوة الصليبية النازلة بالديار المصرية، يدعم هذا الذى نذهب إليه ذلك الاختيار الدقيق لـ «مواقيت» تقدمه بعرض الصلح على الصليبيين.

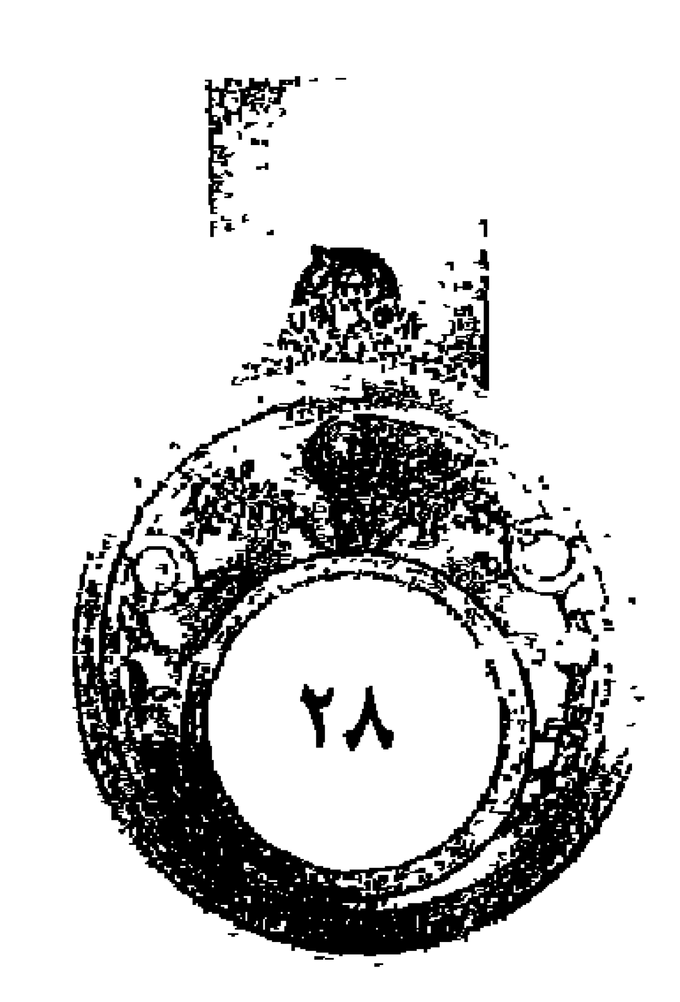
لقد جاء العرض الثانى من جانبه عقب الهجوم الذى شنَّه على المعسكر الصليبى فى أغسطس عام ١٢١٩م/ جمادى الآخرة ٦١٦هـ بعد فشل المحاولة التى قام بها الصليبيون لمباغتة القوات الإسلامية، وقد خسر الصليبيون عددا ليس بالقليل من قواتهم، يراوحه المؤرخون بين ألف وأربعة آلاف مقاتل، وحدث ما حدث من قبل فى المرة الأولى، إذ وقف چان دى برين وبارونات

بيت المقدس والفرنسيون والفرسان التيوتون فى جانب، بينما وقف بلاجيوس والداوية والإسبتارية والإيطاليون فى الجانب الآخر. وجاء العرض الثالث قبيل سقوط دمياط مباشرة، بعد الجهود المضنية التى بذلها الكامل للحفاظ على المدينة، ونجاحه مرارا فى اختراق الحصار الصليبى لها، وتزويد أهلها بالمؤن والمدد، حتى استطاعوا الصمود لهذا الحصار طيلة أشهر تسعة كاملة، ومن ثم جاء هذا العرض لعله يصرف جهد الصليبيين عن دمياط، ومع أنه عمق كثيرا من خرق النزاع بين چان دى برين وبلاجيوس، إلا أن الملك الصليبى لم يكن ليعصى للمندوب البابوى أمرا، حتى لا تحل به لعنة البابوية ويمسى محروما. أما العرض الرابع، فقد جاء بعد أن تمت الاستعدادات فى المعسكر الصليبى للزحف إلى القاهرة فى يوليو ١٢٢١م/ جمادى الأولى ٦١٨هـ وبعد وصول الملك الصليبى مباشرة عائدا من عكا، وكان هدف الكامل من ذلك واضحا هو الحيلولة دون تقدم الصليبيين جنوبا، عن طريق الدهاء السياسى الذى ظل يضرب على أوتاره طيلة هذه الفترة لتوسيع مساحة البعد بين معسكرى الجيش الصليبى.

وهنا نلاحظ شيئا فى غاية الأهمية يدعم ما نذهب إليه، وهو أن الملك الكامل لم يتقدم بعرض الصلح على الصليبيين طيلة العشرين شهرا التى أمضوها فى دمياط منذ سقوطها وحتى عزمهم الخروج منها باتجاه القاهرة؛ وذلك لأن چان دى برين كان هو الآخر خلال هذه الفترة بعيدا عن دمياط، زائرا لأرمينيا أو مقيما فى مقر مملكته فى عكا، بعد أن ارتحل عن المدينة فى أعقاب سقوطها، وبعد أن تبين له نزعة بلاجيوس الاستبدادية فى حكم



موقع حصنى الكرك والشوبك
نقلا عن سعيد عاشور «الحركة الصليبية، الجزء الأول»

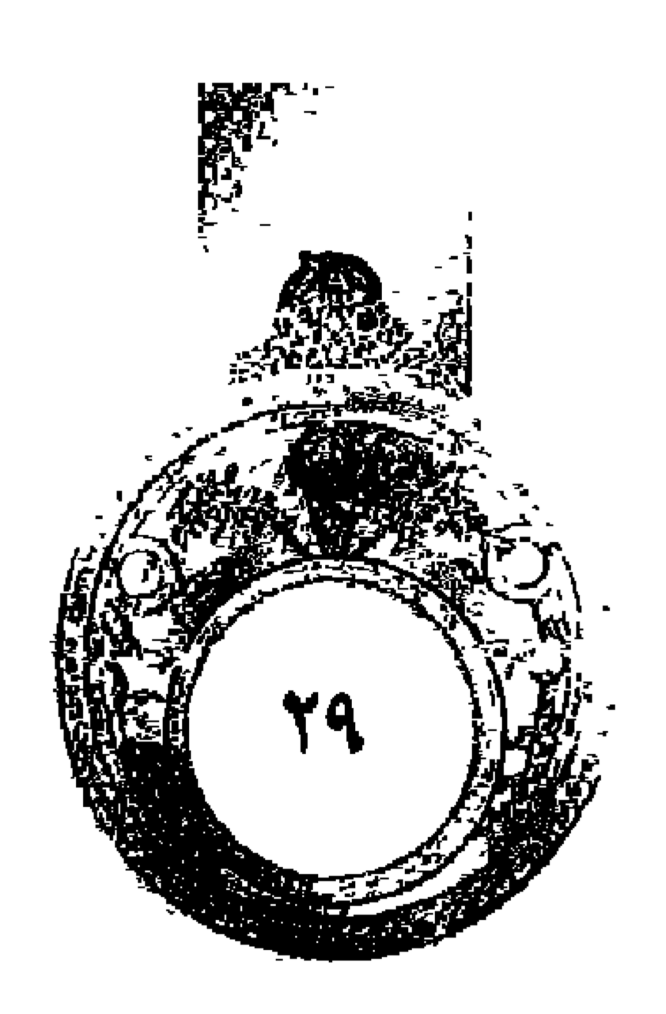


دمياط، ومن ثم فلا فائدة ترجى من عرض الصلح، لموقف بلاجيوس المعروف، ولغياب چان دى بريين عن الساحة السياسية، حتى إذا عاد هذا الأخير إلى دمياط ليشارك بدور مُتوار فى قيادة الحملة، عاد السلطان يجدد عرضه للمرة الأخيرة بالصلح، فإذا أضفنا إلى هذا أن القوات الشامية، بقيادة المعظم والأشرف وآل أيوب، كانت قد وصلت بالفعل إلى معسكر الكامل بالمنصورة، وأن السلطان كان قد أعلن النفير العام وتوافد إليه الناس من «أسوان إلى القاهرة» كما يشير المقريزى، أدركنا أن الكامل لم يكن فى عرضه هذا صادرا عن موقف ضعف عسكرى يعانى منه، بل عن دهاء سياسى كشفت عنه مواقفه هذه المتكررة تجاه الصليبيين، إلى جانب الشخصية «التسامحية» التى كان يتمتع بها الملك الكامل وملوك بنى أيوب بصفة عامة، وتلك مسألة أخرى سوف نعود لمناقشتها فيما بعد.

وإذا كنا قد ناقشنا حتى الآن الجانب السياسى التكتيكى من مشروع الصلح المتكرر الذى عرضه الكامل، فإن علينا أن نعرج على الجانب العسكرى البارز فى هذا المشروع، وهو الذى يؤكد دون أدنى شك ما ذهبنا إليه منذ البداية، نعنى أن مصر كانت محور سياسة الملك الكامل فى تعامله مع الصليبيين، وأن سلامتها وتأمينها وحفظها بعيدا عن الوقوع فى أيدى هؤلاء الغزاة، كانت الأهداف الإستراتيجية فى هذه السياسة.

لقد حرص الكامل خلال عرضه المتكرر للصلح على ضرورة الاحتفاظ بحصنى الكرك والشوبك وعدم تسليمهما إلى الصليبيين، ولعل فى تصميم هؤلاء أيضا على أن يكون الحصنان ضمن أراضى بيت المقدس التى يعدهم الكامل بإعادتها إليهم مع كل «الفتوح الصلاحى»، يفصح عن فهم الصليبيين وإدراكهم لما كان يهدف إليه السلطان، وكأنى بالكامل فى رفضه الكامل تسليم حصنى الكرك والشوبك إلى الصليبيين، يدفع بهؤلاء إلى حائط مسدود فى طريق المفاوضات، وهو يذهب إلى ذلك عمدا، فلم يتزحزح قيد أنملة عن موقفه خلال رحلة المباحثات الطويلة. ويشير المقريزى إلى ذلك عندما يحدثنا عن المشاورات التى دارت بين الطرفين أثناء عروض الصلح فيقول: «فلم يتم بينهم أمر وقالوا: «لا بد من أن تعطونا خمسمائة ألف دينار لنعمر بها ما خربتم من أسوار القدس، مع أخذ ما ذكر من البلاد، وأخذ الكرك والشوبك أيضا».

وقد أجمع الجغرافيون والرحالة المسلمون على أهمية حصن الكرك ومناعته من حيث وقوعه على جبل شاهق، وإحاطة الأودية به كما لو كانت خنادق حفرت من حوله، وتحكمه فى طرق المواصلات التجارية والعسكرية على السواء فيما بين مصر والشام والحجاز، ولا يقل حصن الشوبك عنه أهمية ومنعة، ويعد كلاهما من الناحية العسكرية وحدة واحدة، بحيث يقول عنهما «رانسيمان» أنهما يتحكمان فى طريق الحجاج إلى الحجاز، والطريق البرى بين مصر والشام، وهما

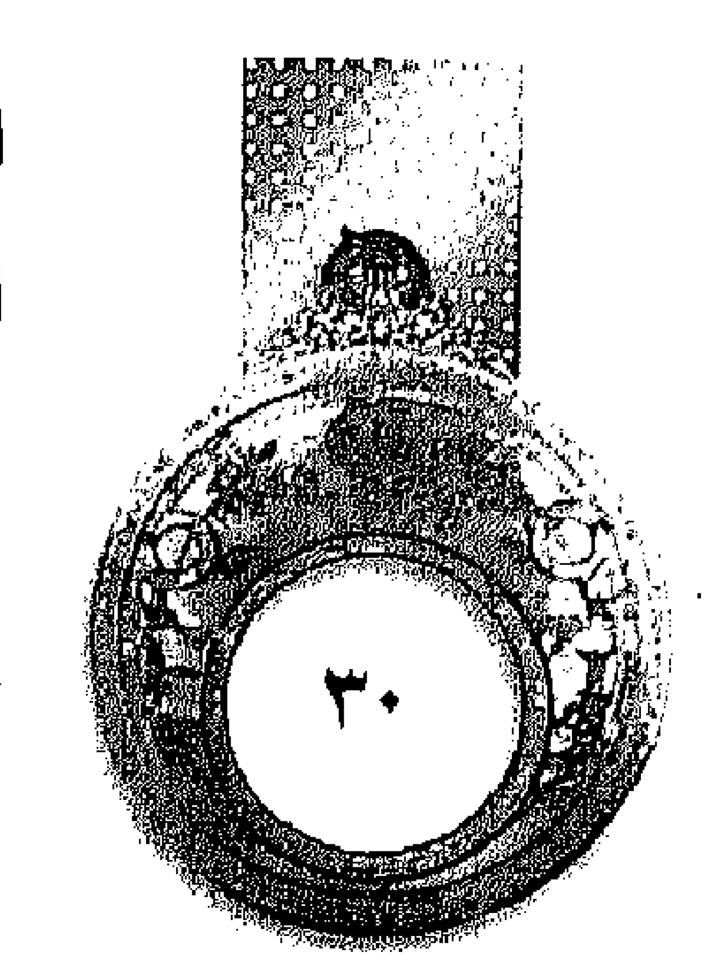


فى الوقت نفسه مفتاح الطريق إلى القدس، ونقطتا الدفاع أو الهجوم المتقدمتان للمدينة المقدسة. ويصف ابن شداد ذلك بقوله: «وكان على المسلمين منه (يعنى الكرك) ضرر عظيم، فإنه كان يقطع عن قصد مصر بحيث كانت القوافل لا يمكنها الخروج إلا مع العساكر الجمة الغفيرة»، ومن المعلوم لدينا كم عانى المسلمون الشىء الكثير من جراء الاحتلال الصليبى لهذين الحصنين زمن صلاح الدين، عندما كان «رينو دى شاتيون» Reunald de Chatillon والمعروف فى المصادر الإسلامية باسم «البرنس أرناط»، أميرا على حصن الكرك، إذ تعرض لكثير من القوافل القادمة من القاهرة إلى دمشق أو العكس، بل لقد استغله هذا «الأمير اللص» فى محاولة القفز على مكة والمدينة، وليس هناك أدنى شك فى أن فتح الطريق البرى بين مصر والشام وتأمينها كان شيئا يعض المسلمون عليه بالنواجز، حتى تظل دائرة الحصار على الصليبيين تقض مضاجعهم.

وابن الأثير يصف الكرك بأنه «من أمنع المعاقل على طرف البر»، ويخبرنا ابن أيبك الدوادارى أن الملك العادل، لما اشتد حصار الأفضل ابن أخيه صلاح الدين له بدمشق، عرض الخروج من البلد مقابل الحصول على «الكرك»! وهذا هو ابن جبير فى رحلته يعرج على الكرك فيجده «من أعظم الحصون، وهو المعترض فى طريق الحجاز والمانع لسبيل المسلمين على البر، بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أشف (أكثر) قليلا، وهو سرارة (أطيب) أرض فلسطين، وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة».

وما لنا نذهب بعيدا وبين أيدينا وثيقة تاريخية هامة، هى تلك الوصية التى تركها الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل، يعظ فيها ابنه المعظم تورانشاه، وكأنى به يقرأ ما فى فكر أبيه ويسطره بيديه لحفيده، أعنى حفيد الكامل، يقول الصالح بالحرف الواحد: «يا ولدى... لا تخرج الكرك من يدك. الله الله احفظ وصيتى، (لاحظ هنا كيف يشدد الصالح على ابنه بأهمية الاحتفاظ بالكرك تحت سلطانه)، فلا تعلم ما يكون من هذا العدو المخذول، لعله، والعياذ بالله - أن يتقدم إلى مصر، يكون ظهرك الكرك، تحفظ فيه رأسك وحريمك، فمصر مالها حصن، ويجتمع عندك العسكر وتتقدم إليهم، تردهم عن مصر، وإن لم يكن لك ظهر مثل الكرك، تفرقت عنك العسكر. وقد عزمت أن أنقل إليها المال والذخائر والحرم وكل شىء أخاف عليه، وأجعلها ظهرى، والله ما قوى قلبى واشتد ظهرى، إلا لما حصلت فى يدى»!!.

ترى.. هل هناك دليل أكبر من هذا على صدق ما نذهب إليه من أن مصر كانت محور تفكير الملك الكامل وبؤرة اهتمامه؟ وأن ما عُد «إفراطا» فى عروض الصلح من جانبه ليس إلا مناورة سياسية تكتيكية قصد بها أمن مصر وتأمينها أولا وقبل كل شىء، من الوقوع فى أيدى الصليبيين، وفى الوقت نفسه سلاحا ساعد كثيرا على اتساع هوة الشقاق بين زعيمى الحملة

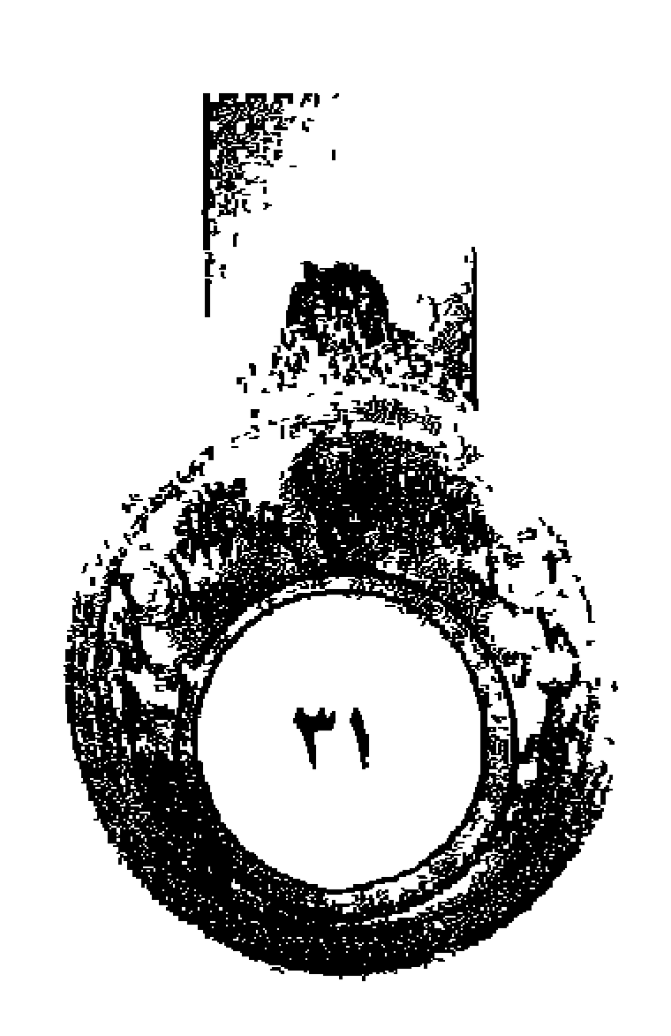


الصليبية الخامسة، چان دى بريين ملك بيت المقدس فى عكا، وبلاجيوس المندوب البابوى.

ويزيد الأمر وضوحا فى هذا المجال ما تضمنته الوثيقة نفسها والصالح يوصى ابنه تورانشاه قائلا: «وهذا العدو المخذول، إن عجزت عنه، وخرجوا من دمياط وصدوك، ولم يكن لك بهم طاقة وتأخرت عنك النجدة، وطلبوا منك الساحل وبيت المقدس وغزة وغيرها من الساحل - أعطهم ولا تتوقف، على أن لا يكون لهم فى الديار المصرية قعر قصبة». وهذه بعينها سياسة الكامل ووجهة نظره، مصر أولا باعتبارها قلب هذه المنطقة النابض، وقصورها عن تأدية رسالتها يعطل الجسد كله! ومن هنا جاءت عبارات الصالح التالية حاسمة حين يقول: «اعلم يا ولدى أن الديار المصرية هى كرسى المملكة، وبها تستطيل على جميع الملوك، فإن كانت بيدك، كان بيدك جميع الشرق»!

لم يكن الملك الكامل وحده إذن صاحب هذه السياسة، بل سار على خطاه من بعد ابنه الملك الصالح، وسبقه بها أبوه الملك العادل، وتلك سمة ملوك الأسرة الأيوبية الثانية، والعادل سيف الدين، والكامل محمد، والصالح نجم الدين، وهى أيضا سمة سلطان الأسرة الأيوبية الأولى، الناصر صلاح الدين، ولكن على خلاف فى الأسلوب، من هنا جاء تمييزنا بين سلاطين

حصن الكرك - (الأردن)

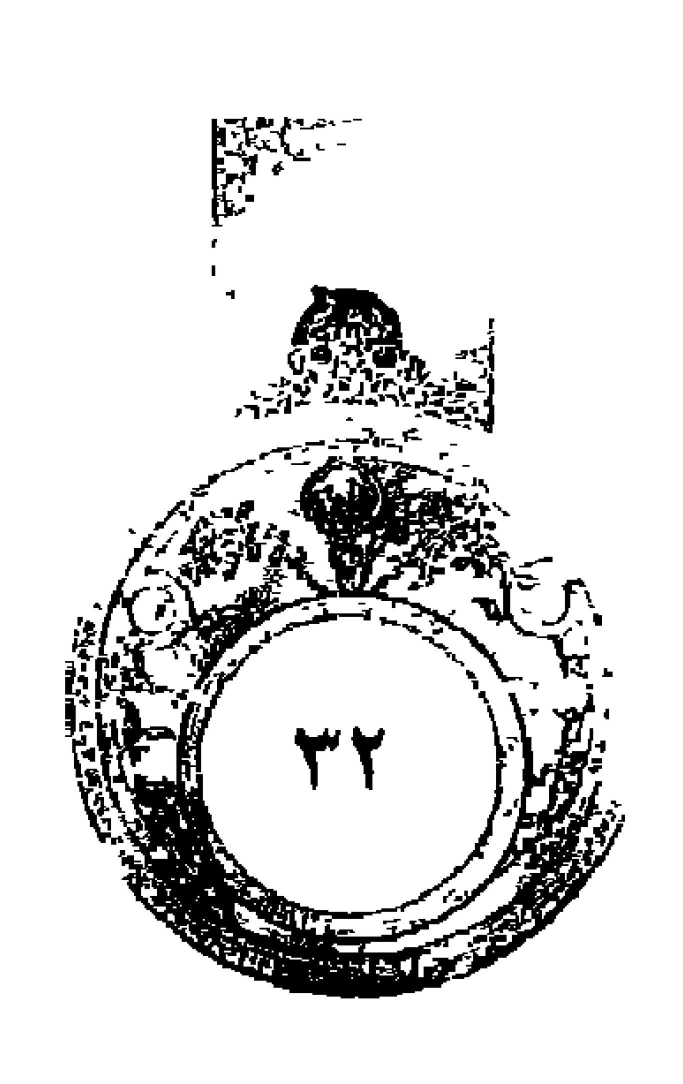


بنى أيوب فى أسرتين فيمـا يتعلق بالسياسة الخارجيـة؛ فالأسرة الأولى قامت على الخطة الهجومية لزعزعة أركـان الكيان الصليبى المتمركز فى بلاد الشام، وتقليص حجم الإمارات اللاتينية التى قـامت هناك منذ أخريات القرن الحادى عشر الميلادى/ الخامس الهجرى، وكان هذا أمرا لا مندوحة عنه فى ظل تدفق الحملات الصليبية إلى بلاد الشام مباشرة، بما فـيها الحملة الصليبية الثالثة التى ضمت القوى العظمى فى أوروبا آنذاك، ألمانيا وإنجلتـرا وفرنسا، وكانت مصر طوال هذه الفتـرة التى شغلها حكم صـلاح الدين الأيوبى، القاعـدة الأساسية التـى انطلقت منها الجيوش والإمـدادات البشرية والتموين الاقـتصادى، حتى إذا انتهت هذه الحـملة بالفشل، وانتهى أمرها بعقد صلح الرملـة بين الناصر وريتشارد قلب الأسد، آمن الصليبيـون يقينا أنهم لا بقاء لهم بالشام ما بقيت مـصر على حالها من القوة والاستقلال، وأنهـم لن يقر لهم جفن أو يهدأ لهم بال إلا بضمان إسكات هذه القوة تماما، بمعنى السيادة عليها، وإذا كانت الأحلام راودتهم منذ مقدمهم إلى الشرق بـ«أهمية» توسيع نفوذهـم وسلطانهم بضم مصر إلى ممتلكاتهم، فإن الآمال راحت تلح عليهم الآن بـ«ضرورة» الاستيلاء على مصر لتحقيق سيطرتهم الكاملة على هذه المنطقة.

هنا تغيـرت طبيـعة المرحلة التـالية، وكان لا بد أن يتـغيـر معهـا بالتالى أسلوب المواجـهة الأيوبية؛ فالحملات الصليبية أخذت منذ مطلع القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى، تولى وجهها شطر مصر مباشرة، لتضرب ـ بتعبير زعمائها ـ الأفعى على رأسها، ولتسلك طريق القدس من أوله، الذى يبدأ فى القـاهرة، بتعبير زعـمائها أيضا، ومن ثم تركزت السـياسة الإستراتيـجية للأسرة الأيوبية الثانـية على حماية مصر أولا، وتحولت الخطة من الهـجوم لتخليص الأطراف من الاحتلال الصليبـى، إلى الدفاع لحماية القلب وتأمينه من الغزو الصليبـى، وتمثل ذلك واضحا فى إقدام العـادل على تجديد الهدنة مع الصليـبيين فى الشام، وعقـد اتفاقيـات مع البندقية، وسيـاسة الكامل تجاه الحملة الخامـسة، وموقفه من فردريك الثانى، وتصدى الصـالح ومماليكه لصليبية الملك الفرنسى لويس التاسع.

عند هذه النقطة نجد أنفـسنا «تلقائيا» أمـام ما عده المؤرخون «تفـريطا» من الملك الكامل فى حقوق المسلمين والقـضية برمتهـا، عندما أقدم على تسليم القدس إلى الإمبـراطور فردريك الثانى بمقتضى اتفـاقية يافا سنة ١٢٢٩م، والذى من أجله قـامت الدنيا على الكامل ولم تقعـد، وكثرت عليه «الشناعات» فى الأقطار الإسلامية لما اعتبروه من الكامل شيئا إمرا.

ولعله مما يتفق ومـنطق الأمور أن نطبق كل ما قـدمناه آنفا عن إستـراتيجيـة الكامل على ما جرى بينه وبين فـردريك، بمعنى أن ما كان مـجرد عرض فى الحملة الخـامسة، بات واقعـا مع ما

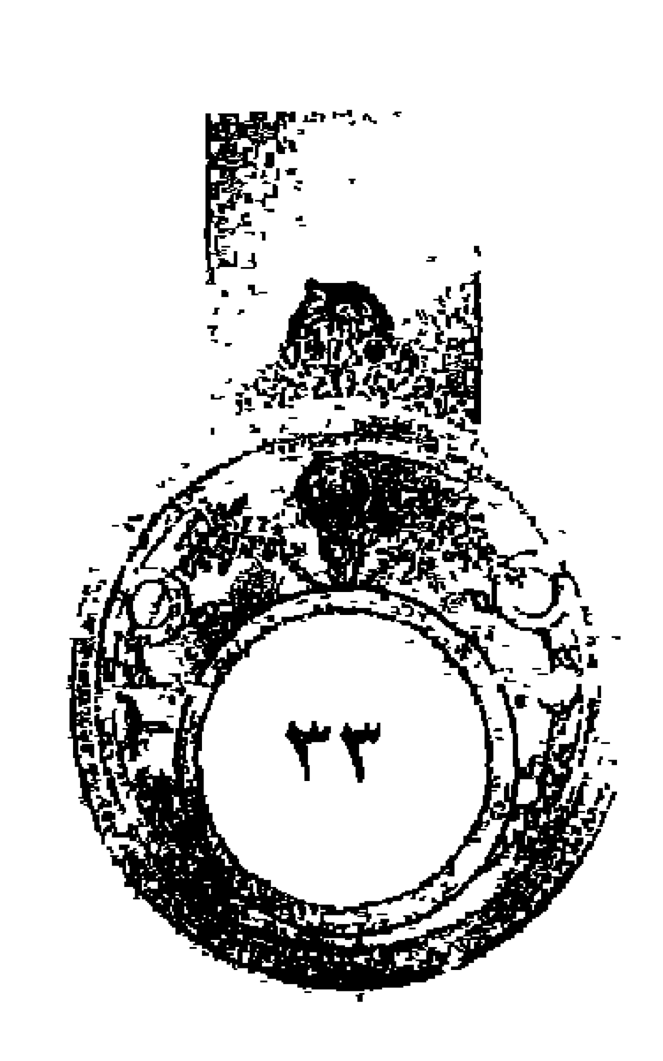


يسمى بـالحملة السادسـة، بتعـبيـر أكثر وضـوحا، أن الكامل لم يقـدم هنا لفردريك أكثر مما قدمـه لچان دى بريين وبلاجيوس، وليس هناك من خلاف سوى أن الإمـبراطور فـردريك الثـانى ألحف فى إلحاحـه على الملك الكامل بتسليم بيت المقـدس إليه، بـينما اشـتط بلاجـيوس فى رفـضـه تسلم بيت المقـدس، ولو اتفق هذا مع چان دى بريين فى قـبوله عـرض الكامل لكانت النتيجـة واحدة، ولغدا بيت المقدس وغـالبية «الفتـوح الصلاحى» فى حوزة الصليبيين ثانية بمقتضى اتفاقية للصلح كما حدث فى يافا عام ١٢٢٩م.

إذن. . هذى الضـجة الكبـرى علام؟! لقـد كان الملـك الكامل واضحـا فى سيـاستـه تمام الوضوح، هناك خطة تكتيكية ينفذها لحينها، وهناك سياسة إستراتيچية يلتزم بقواعدها، وتقوم فى جوهرها على أن مصر هى بيت القصيد، وأنهـا يجب أن تبقى أولا وقبل أى شىء آخر آمنة بعيدة عن أيدى الغزاة، أو بتعبير ابنه الصـالح، إنه لا مانع من التنازل عن «الساحل وبيت المقدس وغزة وغيرها من الساحل، بشرط أن لا يكون للصليبيين (أو غيرهم) فى مصر قعر قصبة. . . لأن الديار المصرية هى كرسى المملكة، وبهـا تستطيل على جميع الملوك، فإن كانت بيدك، كـان بيدك جميع الشرق».

قد يكون من الهام جدا هـنا أن نستعيد ثانية ما قـاله مؤرخنا ابن واصل فى هذا المقام: «إن دفع الفرنجـة عن الديار المصرية هو من أهم الوجوه، ولو ملكوها لـم يبق بالشام ولا غيره مـعهم ملك لأحد»، وهذه بعـينها عبـارات الصالح نجم الدين أيوب وهو يعظ ابنـه تورانشاه، ويزيد ابن واصل مؤكـدا أن الفرنج أيقنوا «أنهم بملكهم لمصـر يملكون بيت المقدس وسـائر بلاد الشام، وأنهم متى ملكوها لا يمتنع عليهم شىء من الممالك بعدها».

لهذا كله وفى ضوئه يمكن القول بكل الثقـة: إن الكامل عندما أقدم على تسليم القدس، أو بتعبير أدق، الأماكن المسيحيـة المقدسة فى بيت المقدس، لم يكن فى ذلك أى «تفريط» فى الحقوق أو القضية برمتها، بقـدر ما كان خطة تكتيكية ضمن سياسة إستراتيچـية تهدف إلى إنقاذ مصر من الوقوع في قـبضة الصليـبيين، وبالتالى الحفـاظ على الشام بما فيـها بيت المقدس خـالصة من دون العناصر الصليبيـة الغازية، وهذا بعينه ما أكدته الوقائع التـاريخية فيما بعـد، إذ تمكنت مصر بعد تخلصهـا من الحملة الصليبيـة السابعة، أن تسـترد فى خلال أربعين عامـا فقط، وبجهود مـصرية خالصة، إمارة أنطـاكية على يد الظاهر بيبرس، وإمارة طرابلس على يد المنـصور قلاوون، ومدينة عكا على يد الأشـرف خليل بن قلاوون، هذا بالطبع إضافـة إلى القدس نفـسها قـبل ذلك (عام ١٢٤٤م) على يد الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل.

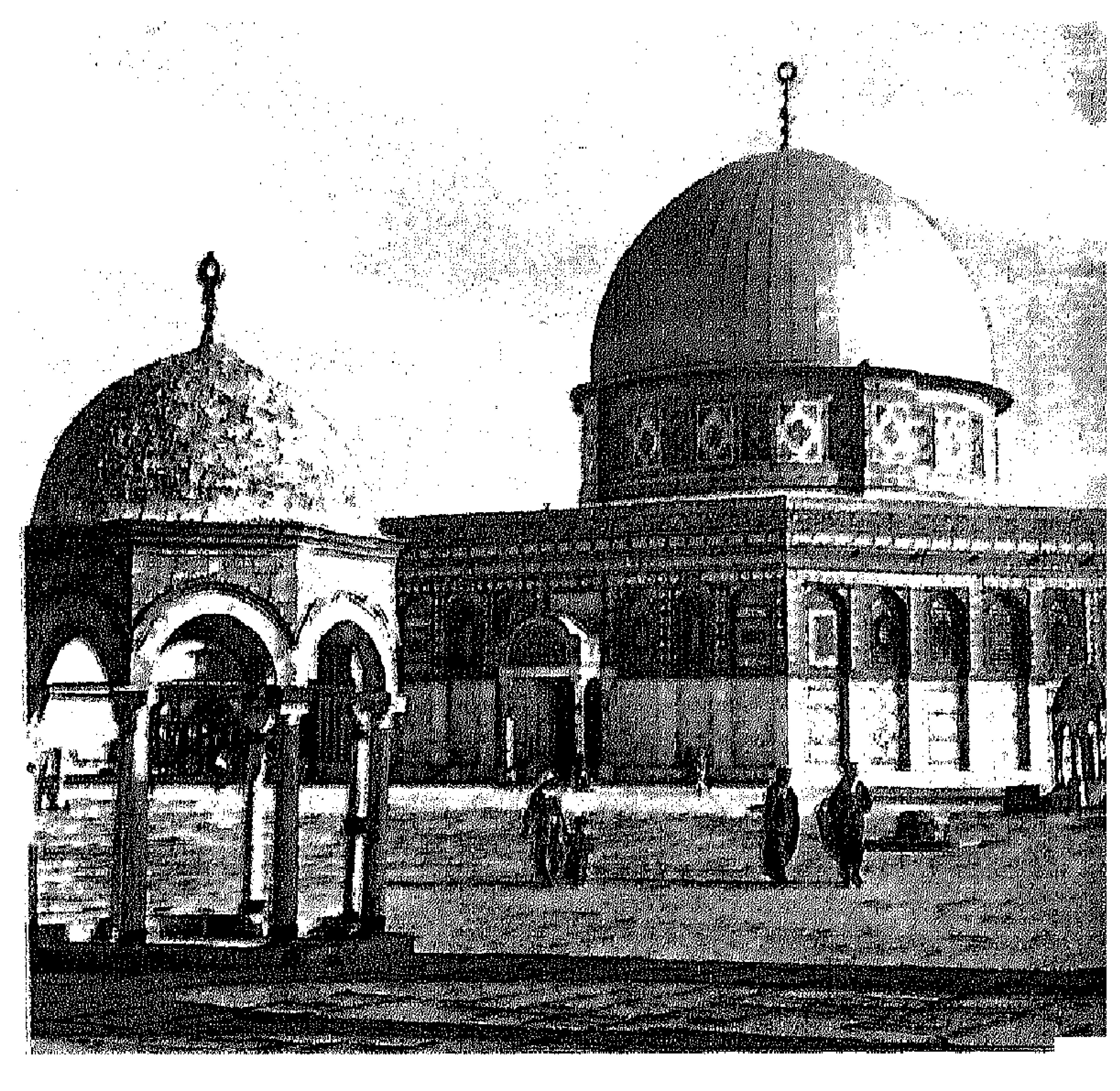


ولهذا كله أيضا وفى ضوئه لم يكن المؤرخ ابن واصل مبالغا فى قوله، بعد أن تم توقيع اتفاقية يافا عام ١٢٢٩م، «كان الملك الكامل ـ رحمه الله ـ يعلم أن الفرنج لا يمكنهم الامتناع بالقدس مع خراب أسواره، وأنه إذا قضى غرضه واستتبت الأمور له، كان متمكنا من تطهيره من الفرنج وإخراجهم منه»!! ولم يكن مبالغا أيضا حين أضاف: «رأى الكامل أن يرضى الفرنج بمدينة القدس خرابا، ويهادنهم مرة، ثم هو قادر على انتزاع ذلك منهم متى شاء»!! ولقد جئنا على ذكر هذه العبارات من قبل، ولا نجد غضاضة أو مانعا يحول دون الإتيان بها هنا مرة أخرى، بل إننا لا نجد أيضا مانعا من أن نستعيد ثانية تعليقنا ساعتها عليها، «لا بد لمن يقرأ هذه العبارات أن يتوقف طويلا عند الثقة المطلقة التى يتحدث بها ابن واصل، معبرا عن سياسة السلطان، والعبارة الأخيرة بصفة خاصة تدعم تماما الرأى الذى نذهب إليه عن الأهداف الإستراتيچية للكامل وخططه التكتيكية، وهو ما أكده الكامل نفسه فى قوله: «إنا لم نسمح لهم إلا بكنائس وآدر خراب، والحرم وما فيه من الصخرة المقدسة وسائر المزارات بأيدى المسلمين على حاله، وشعار الإسلام قائم على ما كان عليه، ووالى المسلمين متحكم على رساتيقه وأعماله».

وفى دراسة جادة قام بها أحد الباحثين المحدثين يتضح لنا جانب آخر من جوانب هذه الاتفاقية التى أقدم عليها الملك الكامل مع الإمبراطور فردريك الثانى، وهو الجانب الفقهى، أو بتعبير آخر، الوضع الفقهى الشرعى لهذه الاتفاقية، معتمدا على ما جاء فى كتاب «ابن أبى الدم الحموى القاضى الشافعى، والمعروف بـ «التاريخ المظفرى» مستمدا فتواه، أعنى ابن أبى الدم، من أحكام الإمام الشافعى التى وردت فى مؤلفه «الأم»، بالإضافة إلى ما جاء أيضا فى «التاريخ المنصورى» الذى هو «تلخيص الكشف والبيان فى حوادث الزمان» لابن نظيف الحموى، وخلص الباحث فى دراسته هذه إلى أن عددا من الفقهاء وقفوا إلى جانب الكامل فيما ذهب إليه، ولم يسايروا الرأى العام وأصحاب المصالح الخاصة فى استنكار ما فعله الكامل.

وسوف أسمح لقلمى هنا ـ بعد استئذان صاحب الدراسة- أن أنقل عنه بضعة أسطر معدودات تبين وجهة النظر الفقهية فى هذا الصدد، وهى بلا شك جديرة بالاعتبار؛ «. . . وصالح الفرنج على أن يسلم إليهم بيت المقدس حرسه الله وحده من غير شيء من أعماله ولا بلاده قليلا ولا كثيرا، وشرط عليهم أن لا يحدثون فيه بناءً، لا سوراً ولا دورا، ولا تجاوزوا خندقه، وأن تقام فيه الجُمع للمسلمين المقيمين به، ولا يُمنع مسلم من زيارته كيف أراد، ولا يؤخذ من زاير مالا أصلا» ويعلق الباحث على ذلك بقوله: «ذكر ابن أبى الدم النص السابق بشأن وضع القدس فى الهدنة وهدفه الرئيسى ليس تناول بنودها، بقدر الحكم عليها من الناحية الشرعية، وقد اعتمد بشكل

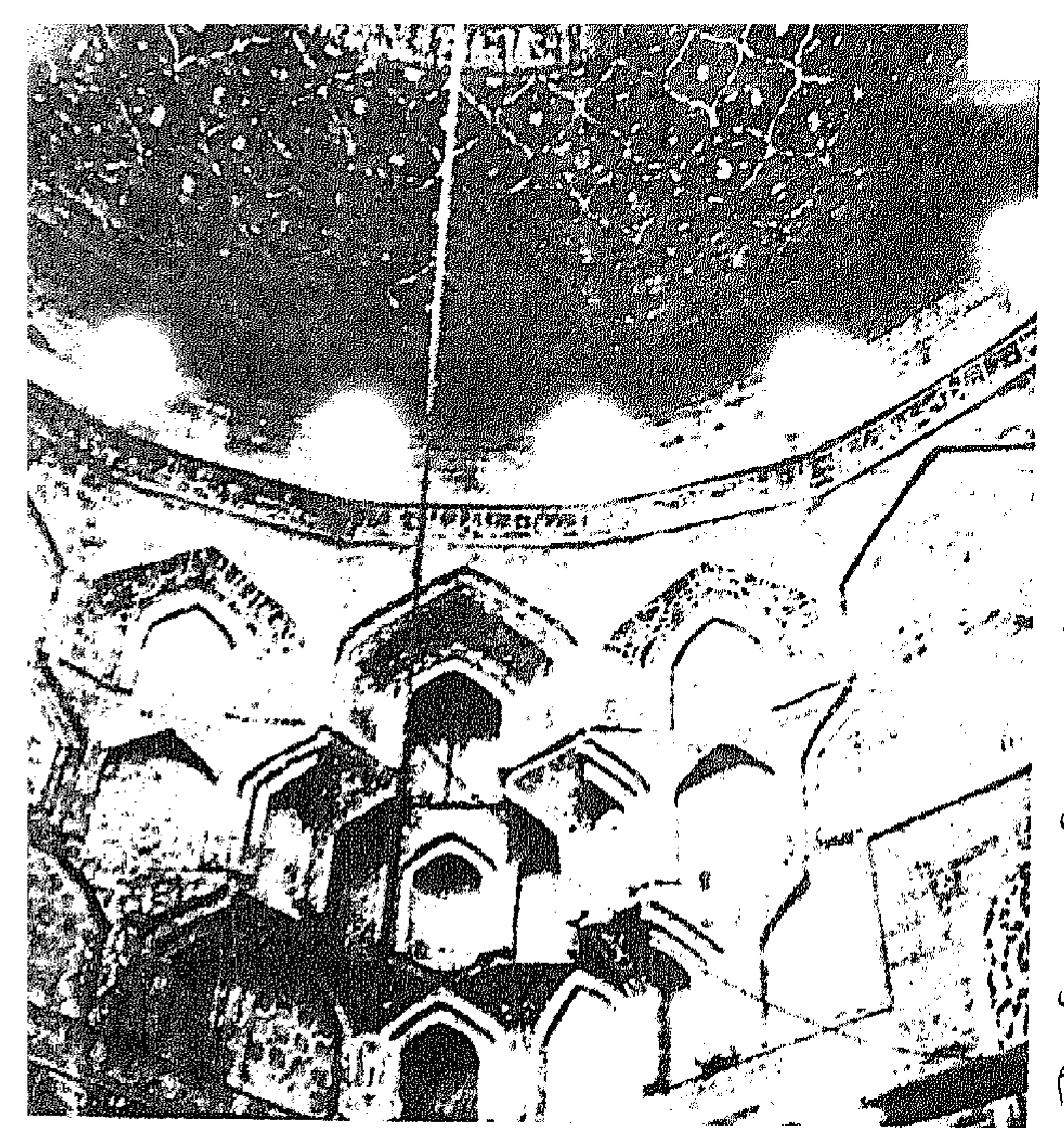
صورة قديمة لمسجد قبة الصخرة



رئيسى على كتاب الأم للإمام الشافعى فى ذكر الشروط الشرعية للهدنة وجوانبها التوثيقية الأخرى. . . وقد ذكر الإمام الشافعى أول شرط لعقد الهدنة بقوله: «فى حالة نزول نازلة بالمسلمين. . . يكون النظر لهم فيها»، وفى ضوء ذلك ذكر ابن أبى الدم أن الكامل عقد هذه الهدنة لوجود «شر عظيم وخوف، وكذلك حفظا لبقية الثغور والبلاد. ونلاحظ ـ والكلام هنا للباحث ـ استخدامه كلمة «المصلحة» فى تبرير عقدها، «فعل ما رآه مصلحة رآها»، «وكان ذلك ـ إن شاء الله تعالى ـ من أكبر مصالح المسلمين» ويمضى الباحث قائلا: «ولم يكن ابن أبى الدم وحده الذى قدم لنا هذه «المبررات الشرعية» لعقدها، وإنما نجد ابن الأثير يذكر أيضا الخوف من عودة الكامل إلى مصر وتركه بلاد الشام (وكان مقيما بتل العجول)، «وعلموا أنه إن عاد استولى الفرنج على القدس وغيره، أما ابن واصل فذكر خوف الكامل بأن «يفتح له باب محاربة مع الفرنج ويتسع الخرق ويفوت عليه كلما خرج بسببه «. . . ويضيف المقريزى «أن الكامل تورط مع ملك الفرنج وخاف من غائلته، عجزا عن مقاومته». ا هـ.

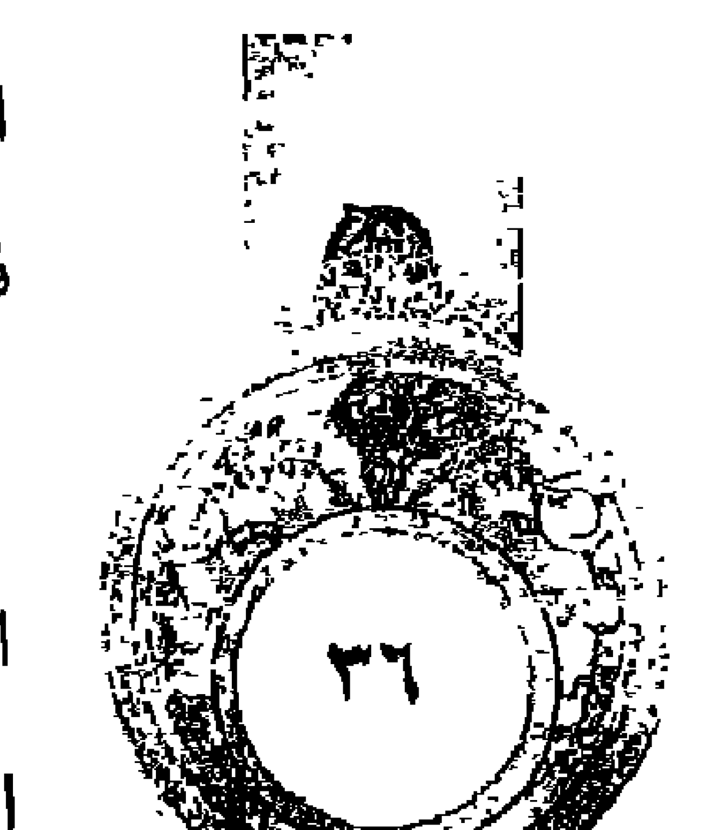
ويؤكد الباحث أيضا من خلال ما أورده ابن أبى الدم، اتساقا مع الإمام الشافعى، أن الملك الكامل أقدم على عقد هذه الاتفاقية باعتباره صاحب السلطة الشرعية فى ذلك، لكونه سلطان المسلمين والأمر إليه فى مثل هذه المسائل، كما أنه حرص على ألا تزيد مدة الهدنة عن عشر سنوات، وهى المدة المحددة شرعا ويجوز تجديدها لمدة مماثلة عند الاقتضاء، ولا شك أن هذه الدراسة الممتعة الجادة تلقى ضوءا جديدا على سياسة الكامل إزاء فردريك الثانى، وتقدم إلى جانب كل ما قدمناه دليل صدق على صحة ما رأيناه من قبل فيما يتعلق بالإستراتيجية التى وضعها الكامل وحرصه على الالتزام بها إلى أبعد الحدود.

ولعله من الأهمية بمكان أن نورد هنا نص ما ذكره القاضى ابن أبى الدم الحموى الشافعى، لنقف من قريب على صدق دوافع الكامل فيما ارتآه، وهذا لا يقلل مطلقا من كل ما ذكره المؤرخون القدامى والمحدثون عن الظروف التى أحاطت بالكامل ودفعته إلى توقيع هذه الاتفاقية



قبة مسجد الإمام الشافعى من الداخل - العصر الأيوبى

وتسليم القدس إلى الإمبراطور فردريك الثانى، والتى كان فى مقدمتها دون شك استعانة أخيه المعظم عيسى قبل وفاته بالخوارزمية، واستعدائهم على أخويه الأشرف موسى والكامل محمد بصورة استفزازية صارخة. يقول ابن أبى الدم: «... تجهز المولى السلطانى الملك الكامل أعز الله أنصاره إلى الشام والسواحل للقاء الفرنج خذلهم الله تعالى حين علم بحشدهم وتجمعهم، ولترتيب أمور المسلمين فى بلادهم... واجتمعت عساكر المسلمين هناك (تل العجول)، وكان الأنبرور (الإمبراطور) طاغية الفرنجة وعظيمهم خرج بجمع كثيرة إلى الجزاير والسواحل، وخيف على البلاد الإسلامية منهم، فاجتهد المولى السلطان الملك الكامل برأيه وصالحهم صلحا تاما رأى فيه صلاحا للمسلمين وغبطة، وهو - إن شاء الله تعالى - راعى هذه الأمة المحمدية وسلطان الملة الإسلامية، ومن أعز الله به الدين وأهله والمأمون عليهم، والناصح المشفق لهم وعليهم ففعل ما رآه مصلحة رآها، وغبطة ترجحت فى نظره راعاها، وصالح الفرنج على أن يسلم إليهم بيت المقدس حرسه الله، وحده من غير شيء من أعماله ولا بلاده قليلا ولا كثيرا وشرط عليهم أن لا يحدثون فيه بناءً لا سورا ولا دورا، ولا تجاوزوا خندقه، وأن تقام فيه الجُمع للمسلمين المقيمين به، ولا يمنع مسلم من زيارته كيف أراد، ولا يؤخذ من زاير مالا أصلا. وكان ذلك - إن شاء الله تعالى - من أكبر مصالح المسلمين وأعظمها مما لا يخفى عن ذوى البصاير، فإن بيت المقدس موضع عبادة المسلمين، وللكفار فيه اعتقاد عظيم يحملهم على قصد المسلمين وبلادهم لأجله، والمقصود منه التردد إلى زيارته لإقامة العبادة على حسب اعتقاد الملتين، فسلم المولى السلطان الملك الكامل خلد الله سلطانه ذلك إليهم مع تهدمه وعدم حصانته حفظا لبقية الثغور والبلاد، ونزله منزلة مسجد يتردد إليه المصلون، وعقد معهم الهدنة الشرعية المدة المرعية فى نظر سلطان المسلمين وملكهم ومتولى أمورهم، أعز الله أنصاره، واندفع من المسلمين بذلك شر عظيم وخوف، وحصل الأمن بعد الهدنة. فلا مصلحة للمسلمين أيمن من هذه المصلحة، ولا غبطة لهم أعظم من هذه الغبطة. ودخل بيت المقدس أناس قليلون من الفرنج لا شوكة لهم ولا عَدد ولاعُدد.. ومتى مهد المولى السلطان الملك الكامل خلد الله أيامه بلاد الشرق، واتفقت كلمة الملوك على سلطنته والطاعة له،

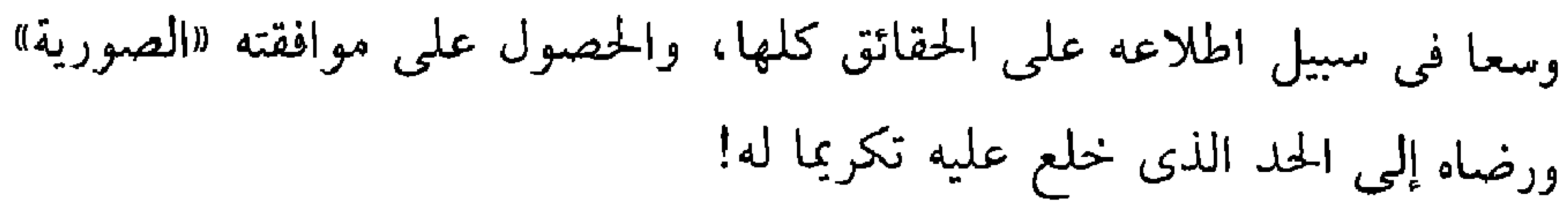


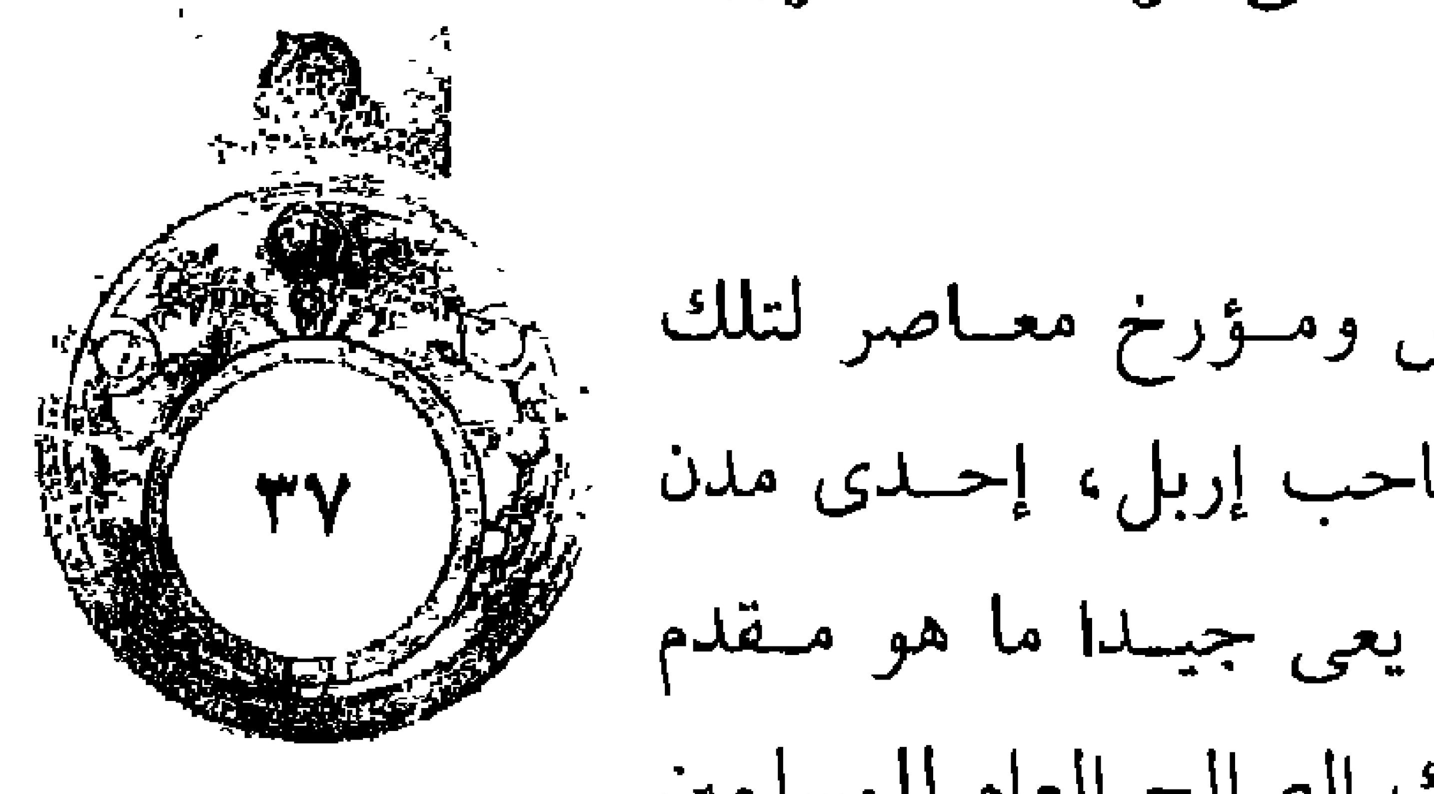
استعـاد بيت المقدس من يد من هو فى حوزه من الفـرنج فى يوم واحد، بل فى ساعة واحدة».

هذا ما ذكره بنصه ابن أبى الدم الحموى، وهو يؤكد فى كل عباراته ما ارتأيناه منـذ بداية هذا الموضـوع من أن المـلك الكامل كـان يضع المـصلحـة العامة، المتمثلة فى نجاة مصر من الوقوع فى براثن الصليبيين فى المقام الأول، لتنجو بها بلاد الشـام كلها، والعبارة الأخيـرة التى أوردها ابن أبى الدم تتفق تماما مع عبارات ابن واصل، حول قدرة الملك الكامل على استرداد القدس متى شاء.

ورغم أن الملك الكامل كان يعـد رأس الأسرة الأيوبية، باعتبـاره سلطان الديار المصرية التى هى كرسى السلطة الأيوبية، كما تقول بذلك كل المصادر المعاصرة، إلا أنه كان ـ مع ولايته للأمور شرعا ـ حريصا على أن يطلع أمـراء بنى أيوب على خططه واتجاهاته، وهذا ما حدث عندما أطلع أخاه المعظم عيسى على العـرض الذى قدمه لصليبيى الحملة الخامـسة بعد فتنة ابن المشطوب، أثناء وجود المعظم فى مصر، ثم اطلاع كل الأمراء الأيوبيين الذين قدموا لنجدته واجتمعوا فى معسكره بالمنصورة، بعد أن راح الصليبـيون يحركون قواتهم من دمياط باتجاه المنصورة ابتـغاء القاهرة، فقد عرض الصلح عـلى الصليبيين للمـرة الأخيـرة تحت سمع وبصر كل هؤلاء الأمـراء. وها هو هنا يفعل الشىء نفسه فى علاقته مع فردريك، ذلك أنه فى إحدى مراحل المفاوضات التى كانت دائرة بين السلطان والإمـبراطور، وصلت رسل الأخـير إلى الكامل تحـمل رسالة من فـردريك مؤداها: «. . . إن الجيد للمسلمين والمصلحة لهم أنهم كانوا قد بذلوا لنائبى الساحل وإطلاق الحقوق، هذا فى حصاركم لدمياط، وما فعلوا، وفعل الله لكم ما فعل من ظفركم وأعاد إليكم، ومن نائبى؟ إن هو إلا أقل غلمانى، فلا أقل من إعطائى ما كنتم بذلتموه له».

وحالما علم الكامل بفحوى هذه الرسالة، استدعى إليه سيف الدين بن قلج رسول الأشرف إلى الكامل والذى كان بحـضرة السلطان آنذاك وكلفـه أن يكتب إلى الملك الأشرف يعرفـه صورة هذه الرسالة وأن يبدى رأيه فيـها، فما كان جواب الأشرف إلا أن قـال: «يا سيف الدين ما يقول عبد مملوك هو وجماعته، مهـما رسم السلطان الكامل كان؛ لأنه هو سلطان البلاد ولا يخرج أحد عن أمره، بل تسأله اتفـاق الكلمة لتجمع العساكـر من البلاد إلى خدمته، ويقرر مـا فيه الصلاح للمسلمين وللبيت». وعلى هذا النحو كانت إستراتيچية الكامل وخططه معلومة لدى ملوك وأمراء بنى أيوب جميعا، وهم أهل الحل والعقد آنذاك، وتحظى بمـوافقة الغالبية العظمى منهم. وإذا جاز القول: إن الخليفة العباسى كان صاحب السلطة الشرعية العليا فى الدولة الإسلامية، فمن المعروف أنه كان مسـلوب الإرادة تماما فى ظل السيادة التـركية فى بغداد، ومع ذلك فـإن الكامل لم يدخر

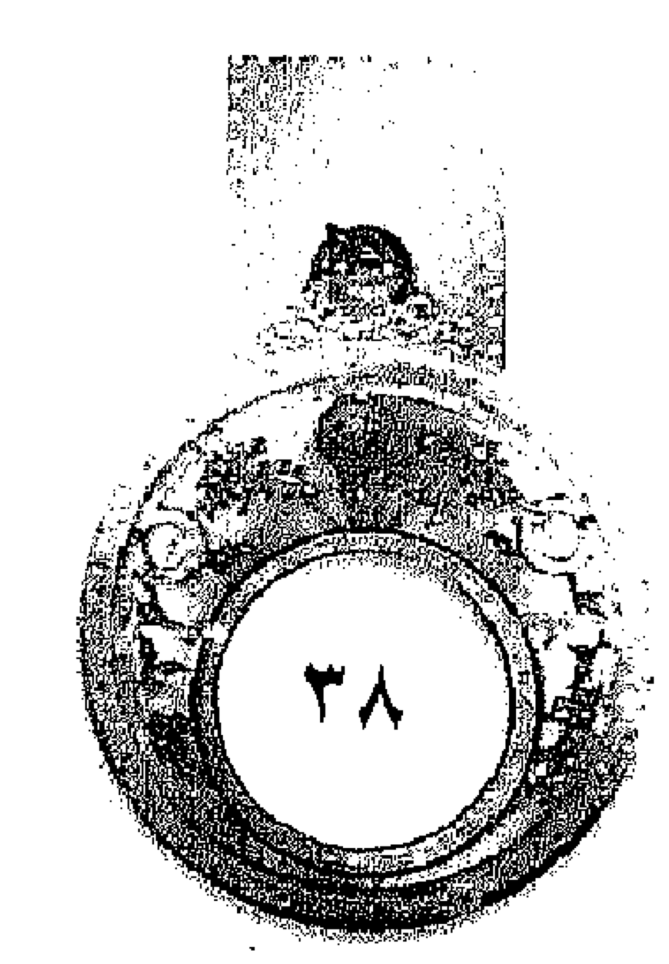




وسعا فى سبيل اطلاعه على الحقائق كلها، والحصول على موافقته «الصورية» ورضاه إلى الحد الذى خلع عليه تكريما له!

ويورد ابن نظيف الحموى، وهو فقيه وقاض ومؤرخ معاصر لتلك الأحداث، حوارا دار بين الملك الكامل ورسول صاحب إربل، إحدى مدن أعالى الفرات، يكشف بجلاء عن أن الكامل كان يعى جيدا ما هو مقدم عليه، مقتنعا تماما بما يفعله، مدركا يقينا أن فى ذلك الصالح العام للمسلمين فى مصر والشام والبيت الأيوبى، واثقا الثقة كلها أن ما قام به ليس فيه ما يشين ما دام يبتغى من ورائه دفع الأذى والعدوان عن الديار المصرية كرسى السلطنة الأيوبية، ومن ورائها بلاد الشام بأسرها؛ يقول ابن نظيف الحموى: «وصل رسول صاحب إربل يشير بأن يسيّر السلطان الكامل رسولا إلى الخليفة فى نعى بيت المقدس والعذر عنه، فقال الملك الكامل: «نحن مماليك هذا البيت المقدس، وآباؤنا وخدماتنا له معروفة ما نرائى ولا نماذق»، والسلطان يشير هنا إلى ما قام به مؤسس الدولة الأيوبية، السلطان صلاح الدين من استرداده وإعادة إعماره، وما قام به الأيوبيون جميعا من رعايته والحفاظ عليه، ومن ثم فهو لا يخشى فى الحق لومة لائم، وليس هناك من خطأ وقع فيه حتى يقوم بالاعتذار عنه للخليفة، ومن ثم أيضا ما كانت رسله إلى بغداد إلا لإخباره فقط بما حدث.

الفصل الثالث
القدس بين الملك الكامل والإمبراطور فردريك الثانى



بقيت صفحة واحدة لم تطو بعد، ولا بد من الإتيان عليها حتى تستكمل الصورة تماما، ولندرك من خلالها الإطار العام الذى كان يتحرك فيه الملك الكامل، والأهداف الإستراتيجية لسياسته العامة تجاه الصليبيين.

فمن المعروف تماما أن ملوك بنى أيوب جميعهم منذ أسس صلاح الدين دولته، قد اتسموا بسمة واحدة هى «التسامح» الكامل حتى مع أعدائهم الصليبيين، بل إن شئت الدقة قرأت الجملة من غير «حتى»! ولم يأت ذلك عن ضعف فى شخصياتهم أو وهن فى نفوسهم، بل كانوا جميعا محاربين أشداء وضعوا قضية الجهاد نصب أعينهم، ولكن «التسامح والرحمة» مع أعدائهم كانت تسبق غضبهم، و«عفوهم» كان يتغلب دائما على «عقوباتهم»، ويزيد الأمر هذا تقديرا أننا فى عصر اتسم بالتعصب الشديد، كل حسب معتقده وهويته، وحملت العناصر اللاتينية عامة وفرسان الداوية والإسبتارية خاصة، عداءً شديدا تجاه المسلمين فى الشرق، بل تجاه الإمبراطورية البيزنطية الأرثوذكسية ذاتها، وسيطر سلطان التعصب على النفوس فى الشرق والغرب على السواء، وإن كان فى الأخير أشد نتيجة التأثيرات البيئية والخلفيات الثقافية الحضارية، فهؤلاء اللاتين هم حفدة الجرمان بكل ما تعنيه هذه الكلمة، كما وصمتهم بذلك المؤرخة البيزنطية الأميرة «أنا كومننا» Anna Comnena، بينما كانت الحضارتان البيزنطية والإسلامية قد حققتا لنفسيهما شأوا عظيما فى الرفعة والارتقاء والسلوك الحضارى.

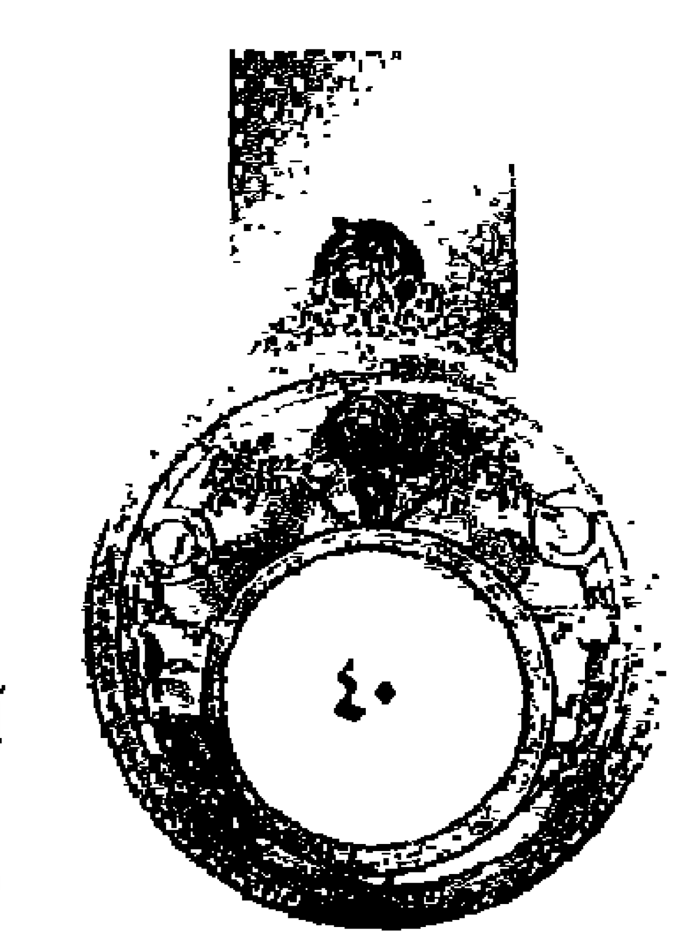
ونظرة واحدة إلى ما كتبه المؤرخون اللاتين بأنفسهم عما فعله بنو جلدتهم الصليبيون خلال الحملات الصليبية عامة، والأولى خاصة، تكشف بوضوح عن هذه الروح العدائية والتعصب الشديد، والابتعاد تماما عن روح الاعتدال والتسامح الذى اتصف به المعسكر الإسلامى فى معاملة الأعداء، ويكفى أن نشير فقط إلى المذابح التى جرت على أيديهم فى معرة النعمان ثم ما كان من أمرهم عند دخولهم «البيت المقدس» وما أحدثوه فيه من الفظائع التى تقشعر من هولها الأبدان، يقول المؤرخ المجهول صاحب «أعمال الفرنج وحجاج بيت المقدس» Gesta Francorum et Aliorum Hierosolymitarum وحديثه يقطر بالتشفى عند دخولهم أنطاكية: «... ودخلوا المدينة من أبوابها، وذبحوا من صادفوه من الأتراك والمسلمين، ولم ينج من القتل سوى من تهيأ لهم الفرار إلى القلعة... وامتلأت جميع شعاب المدينة ومسالكها بالجثث، حتى لقد أصبح من المستحيل السير فيها نظرا للرائحة النتنة المتصاعدة منها، ولم يتمكن أحد منا من السير فى الشوارع



قتل المسلمين فى القدس

إلا على جثث الموتى». حتى إذا أتوا على بيت المقدس قال: «... وأخذ رجالنا فى مطاردتهم (المسلمين) معملين فيهم القتل والتذبيح حتى بلغوا هيكل سليمان حيث جرت مذبحة هائلة، فكان رجالنا يغوصون حتى كعوبهم فى دماء القتلى... فلما ولج حجاجنا المدينة جدوا فى قتل الشرقيين ومطاردتهم حتى قبة عمر، حيث تجمعوا أو استسلموا لرجالنا الذين أعملوا فيهم أفظع القتل طيلة اليوم بأكمله، حتى لقد فاض المعبد كله بدمائهم... وفى صباح اليوم التالى تسلق رجالنا سطح الهيكل وهجموا على الشرقيين رجالا ونساء، واستلوا سيوفهم

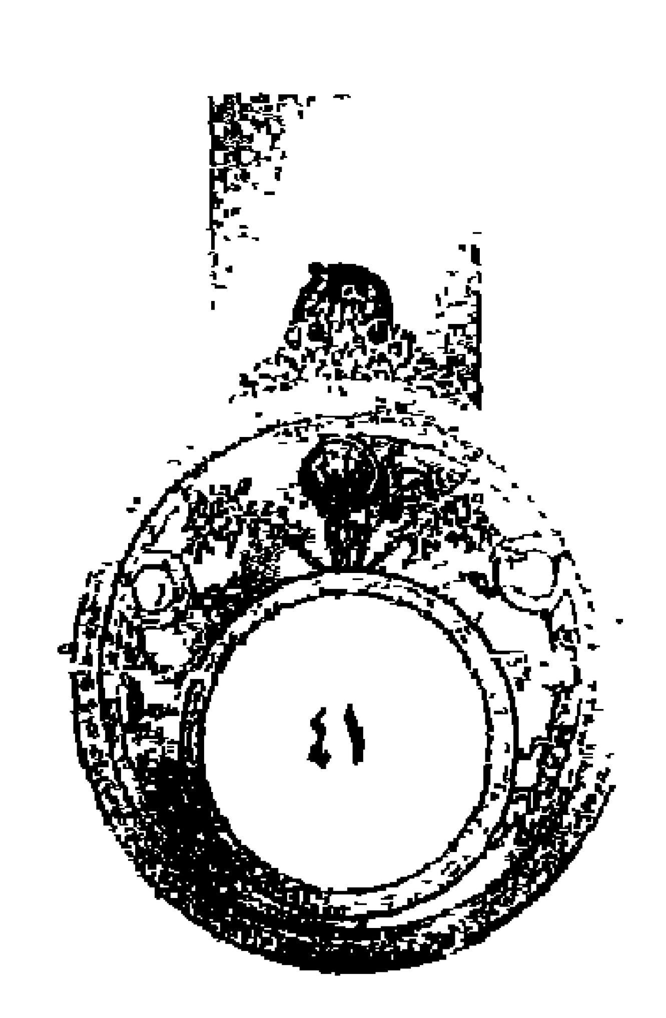
حصن عربى فى جزيرة صقلية



وراحوا يعملون فيهم القتل، فرمى بعضهم بنفسه من أعلى المعبد، فتلظى تنكرد غيظا حين شاهد هذا المنظر (تأمل مدى غيظ الرجل لأن سيفه لم يقتل هؤلاء الذين ماتوا بأيديهم قفزا من فوق سقف المسجد!) . . . وانطلق جنودنا فى جميع أنحاء المدينة يستولون على الذهب والفضة والجياد والبغال، كما أخذوا فى نهب البيوت الممتلئة بالثروات. . . ولأن المدينة كادت أن تكون بأجمعها مملوءة بجثث القتلى، فقد صدرت الأوامر إلى الشرقيين الذين قيضت لهم الحياة بسحب جثث إخوانهم خارج بيت المقدس وطرحهم أمام الأبواب (لاحظ مدى الإيلام النفسى فى هذا العمل)، وتعالت أكوامهم حتى حاذت البيوت ارتفاعا، وما تأتى لأحد قط أن سمع أو رأى مذبحة كهذه المذبحة التى ألمت بالشعب الوثنى (يعنى المسلمين)!!» ولنا بالطبع أن نتخيل ما تعنيه هذه العبارة الأخيرة. ويردد مؤرخ آخر هو بطرس توديبود Peter Tudebod هذا القول، فيقول متسائلا تساؤل العالم بالإجابة مسبقا: «هل شاهد أحد قط أو سمع عن مثل محرقة الكفرة هذه؟ والله وحده يعلم كم عددهم لأنه لا أحدا سواه يعلم ذلك»، على حين يقرر واحد ثالث هو فوشيه الشارترى Fulcher of Chartres «ترى. . ماذا أقول. . إنا لم نترك أحدا منهم على قيد الحياة، وحتى النساء والأطفال، لم نغادر منهم أحدا».

ولم يكن هذا النمط البربرى لسلوك اللاتين مقصورا على الحملة الأولى وحدها، ولا على الأمراء والجنود فقط، بل كان سمة كل الحملات التالية، وطبيعة زعمائها من الملوك أيضا، وليس أدل على ذلك ما فعله ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا فى الحملة الثالثة من قتل حامية عكا ومن معهم من المسلمين، وقد بلغ عددهم جميعا ثلاثة آلاف نفس، مخالفا بذلك لشروط تسليم المدينة، ولم يكن ما قام به صليبيو الحملة الخامسة فى دمياط بعيدا عن هذه الروح الهمجية، حيث «غدروا بأهلها» ووضعوا فيهم السيوف قتلا وأسرا، وباتوا تلك الليلة يفجرون بالنساء» على حد قول المؤرخ أبى شامة.

وقد امتد هذا السلوك الهمجى ليشمل كذلك المسيحيين، فقد تعرضت القرى المسيحية على طول الطريق من الغرب اللاتينى إلى القسطنطينية لاعتداءات وحشية من قبل هؤلاء الصليبيين، وعانى أهل القرى المجرية بصفة خاصة من ويلات عذاباتهم، يستوى فى ذلك المسيحيون واليهود، وما فعله رينو دى شاتيون، البرنس أرناط، بمسيحيى قبرص ورجال الدين القبارصة بصفة خاصة بخاف على أى باحث، وما حل بأهالى مدينة زارا على يد جنود الحملة الصليبية الرابعة لا يمكن إغفاله أو التغاضى عنه، أما النازلة التى وقعت على أم رأس القسطنطينية نتيجة الغزو اللاتينى عام ١٢٠٤م فحدث عنها ولا حرج، ويكفى أن نعود إلى صفحات المؤرخ البيزنطى نيقتاس الخونياتى Nicetas Choniates والمؤرخ اللاتينى ڤيلهاردوان Geoffrey de Villehardoiun لنقف منها تفصيلا على ما أثمته أيديهم فى حق القسطنطينية.

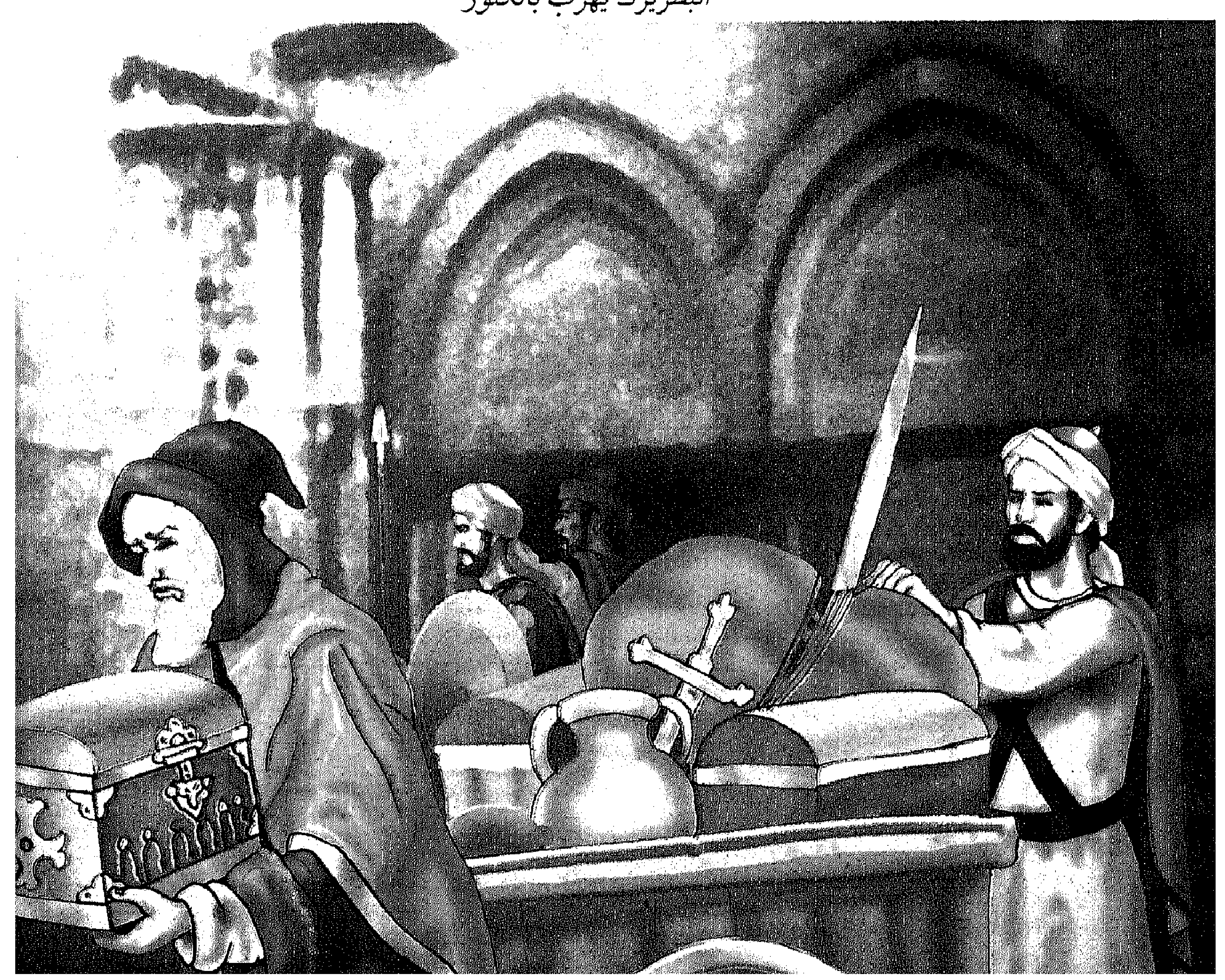


ولو عامل المسلمون الصليبيين بعد انتصاراتهم التى حققوها عليهم من بعد، بمثل ما عاملهم الصليبيون من قبل، لما لامهم على ذلك أحد، لكنهم أبوا إلا أن يسلكوا جادة السلوك الإنسانى فى معاملتهم مع أعدائهم خاصة الأسارى منهم، ولعل الموقف الذى اتخذه صلاح الدين إزاء الصليبيين فى بيت المقدس بعد استردادها، يشهد بوضوح على أن روح التسامح والاعتدال كانت ديدن ملوك بنى أيوب جميعا، ورغم أنهم كانوا هم حملة لواء الجهاد ضد الصليبيين على امتداد عمر الدولة الأيوبية كلها، سواء فى المرحلة الأولى الهجومية زمن الناصر صلاح الدين، أو المرحلة الثانية زمن العادل سيف الدين وأسرته، ولو أقدم صلاح الدين على ذبح كل من وجده من هؤلاء الصليبيين فى بيت المقدس، اقتداء بما فعلوه، لما كان لأحد أن يلومه، لكن الرجل سمح لهم بالخروج بأموالهم وأمتعتهم دون أن يتعرض لهم أحد، مقابل دفع فدية قدرها عشرة دنانير للرجل وخمسة للمرأة وواحد للطفل، وكان من الأمور التى أدهشت المسلمين أن يروا هرقل بطريرك المدينة المقدسة يدفع الدنانير العشرة ليفتدى نفسه بها، ويغادر المدينة حاملا ما استطاع حمله من الذهب والفضة وخلفه العربات تحمل نفائس كنيسة القيامة التى نهبها قبل خروجه، دون أن يبالى بفقراء الصليبيين الذين لم يجدوا ثمن فدائهم، بل إن صلاح الدين رفض أن يصغى لنصح بعض خاصته الذين أشاروا عليه بمصادرة هذه الأموال التى يهرب بها البطريرك، وقال: «لا أغدر به»!! ولكن الأكثر إثارة للدهشة، وإن لم يكن مستغربا من الصليبيين،أن هؤلاء الذين خرجوا بأمان المسلمين، وقعوا ضحية اعتداء الأمراء الصليبيين فى المدن الأخرى، إذ هاجموهم واستولوا على ما معهم مما أخذوه من بيت المقدس!!

وقد بلغت سماحة صلاح الدين واعتداله ـ فى هذا العصر المليء بالتعصب، حدا حمل معه بعض الضرار بالمسلمين أنفسهم؛ ذلك أن صلاح الدين كان قد فعل مع كل المدن والمعاقل الصليبية ما فعله بالقدس، ومن ثم خرج هؤلاء الصليبيون جميعا، وولوا وجههم شطر صور، وتحصنوا بها، حتى قويت بهم وتقووا هم بها، واستعصى من بعد على صلاح الدين فتحها، وكانت النواة التى ولدت حولها من جديد فكرة إحياء مملكة بيت المقدس بعد مجيء الحملة الصليبية الثالثة وسقوط عكا فى أيدى جنودها.

وكان لا بد أن يلفت سلوك صلاح الدين هنا أنظار المؤرخين الغربيين، فها هو مؤرخ الحروب الصليبية ستيفن رانسيمان Steven Runciman يعقد مقارنة بين موقف الصليبيين والمسلمين عند دخول كل منهم المدينة عقب انتصاره، قال: «كان المنتصرون (المسلمون) معقولين وإنسانيين، فبينما خاض الفرنج عند استيلائهم على المدينة منذ ثمانية وثمانين عاما فى دماء ضحاياهم، نجد فى هذه المرة أنه ما من بناء نهب وما من إنسان أصابه أذى، وتنفيذا لأوامر صلاح الدين انتشر الحراس يحرسون الطرق والأبواب ويمنعون أى اعتداء قد يصيب المسيحيين. . . وتقدم

نساء الفرنج اللاتى افتدين أنفسهن إلى صلاح الدين والدموع تملأ عيونهن وسألن أين يستطعن الذهاب بعد أن قتل أزواجهن أو آباؤهن أو وقعوا فى الأسر، فكان جواب صلاح الدين أن وعدهن بأن يطلق سراح كل زوج أسير، أما الأرامل واليتامى، فقد أعطى كلا منهن منحة تتناسب مع مكانتهن من ماله الخاص، لقد كان عفوه وعطفه مباينا مباينة واضحة لأفعال المسيحيين الغزاة فى الحملة الصليبية الأولى. ويقول ستانلى لين بول Stanley Lane Poole: «. . . هكذا عامل العرب المدينة المحتلة، ولا ينسى أحد الافتتاح الهمجى للمدينة المقدسة إبان الحملة الأولى. . . عندما عُذِّب المسلمون العزل، أُحْرِقوا وقُتِّلوا بلا رحمة على حصون وسقف الهيكل، عندما كانت الدماء لعنف المذبحة، تلوث شرف المسيحية، وتلوث المشهد، حيث كان المسيح يبشر بإنجيل المحبة والرحمة «طوبى للرحماء لأنهم يرحمون»، كانت الغبطة منسية عندما دمر المسيحيون المدينة المقدسة، ولحسن حظ غير الرحماء، فلقد نالوا الرحمة على يد

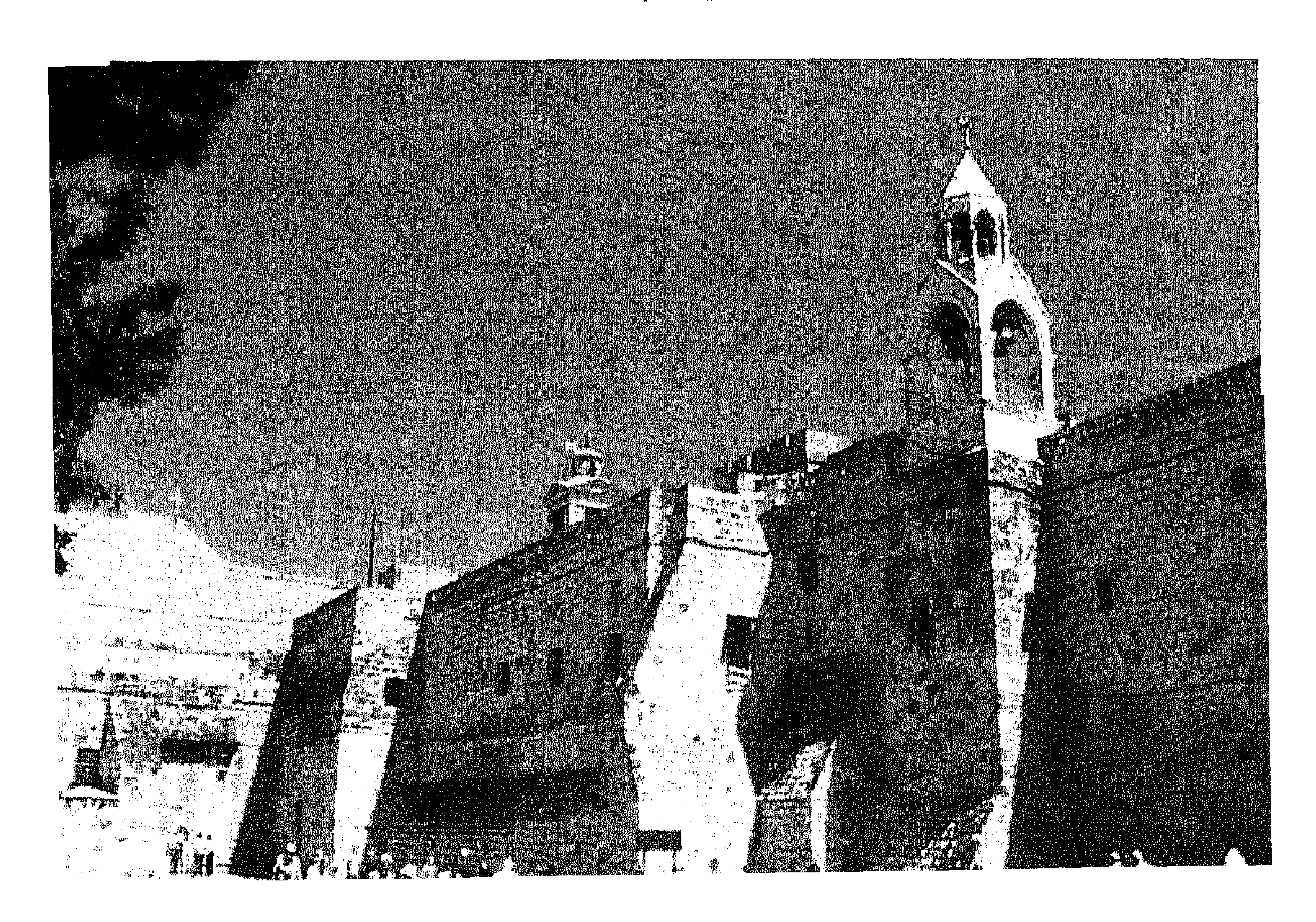


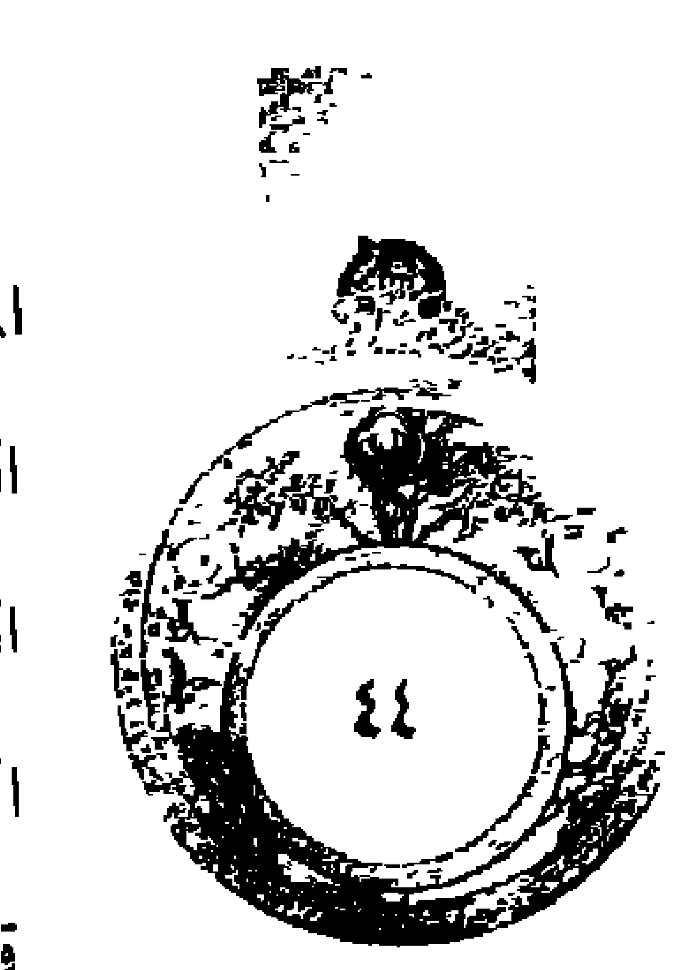
البطريرك يهرب بالكنوز

السلطان المسلم». أما المؤرخ الألمانى «ماير» فيلخص ذلك كله فى عبارة مختصرة غاية فى البلاغة حين يقول: «لقد كان سلوك صلاح الدين غاية فى التسامح والاعتدال»، ولعل هذا هو الذى شفع له عند دانتى اليجيرى Dante Alighieri فى الكوميديا الإلهية، حيث وضعه على حافة الجحيم وليس فى قاعها!!

وكان موقف صلاح الدين عظيما أيضا مع ريتشارد ملك إنجلترا، وهو الذى قدم إلى الشرق بهدف استرداد بيت المقدس ثانية من يد المسلمين، حيث بعث إليه فى مرضه بما طلبه من «فاكهة وثلج». وهكذا كان الناصر صلاح الدين أنموذجا احتذاه من بعد ملوك بنى أيوب جميعهم، فموقف العادل سيف الدين كان واضحا جدا من أهل بيت المقدس، حيث افتدى من ماله الخاص منهم عددا كبيرا، ولم يشأ الملك الكامل ـ وكان بمقدوره ـ أن يأخذ الصليبيين فى الحملة الخامسة وقد أحيط بهم أخذا وبيلا. لكنه جمع إلى التسامح والاعتدال فطنة سياسية وذكاء، فلم ينزل على رأى أخويه وأقاربه من بنى أيوب بالقضاء على الصليبيين وهم ملك يمينه، وأصر على رأيه بإطلاق سراحهم جميعا سماحة وكياسة.

كنيسة المهد



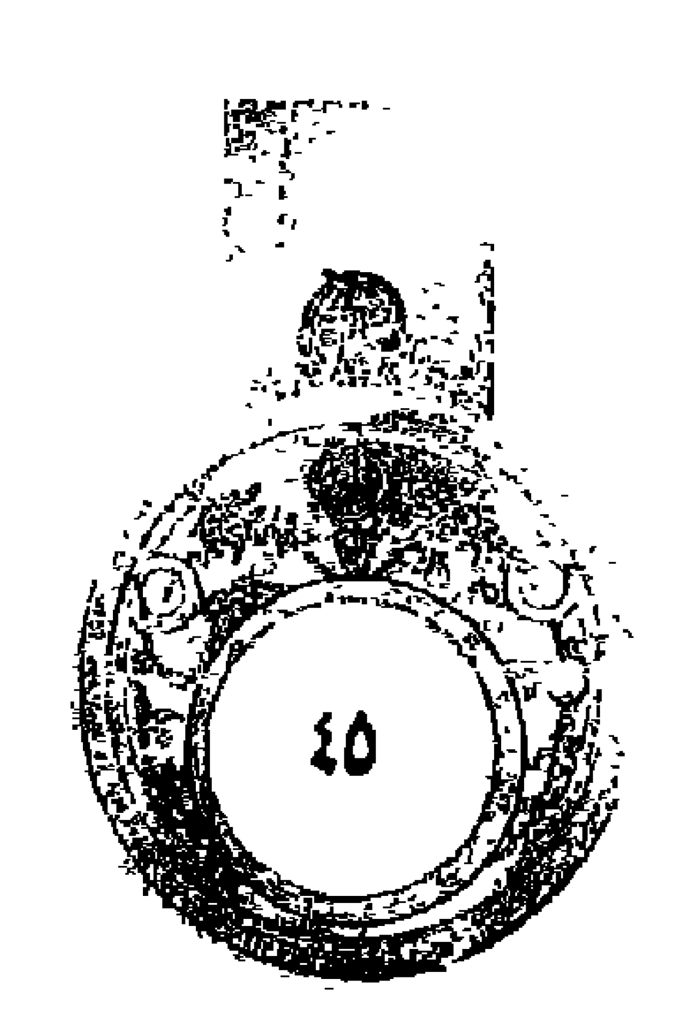


وكان هذا التسامى والتسامح بابا ولج منه فردريك الثانى إلى قلب الملك الكامل وعقله، وأضحى ذلك واضحا فى المراسلات التى دارت بين الرجلين، والتى كان همزة الوصل فيها بينهما الأمير الدبلوماسى المثقف فخر الدين ابن شيخ الشيوخ، وقد قدمنا من قبل تلك الرسالة التى يستعطف فيها الإمبراطور السلطان لينعم عليه بـ«قبضة البلد» حتى لا يرجع «خايبا» إلى قومه، يقول ابن واصل: «بلغنى أن الإمبراطور قال للأمير فخر الدين: لولا أنى أخاف انكسار جاهى عند الفرنج، لما كلفت السلطان شيئا من ذلك، ومالى غرض فى القدس ولا غيره، وإنما قصدت حفظ ناموسى عندهم».

هذه العبارة الأخيرة التى قالها مؤرخنا على لسان فردريك الثانى، تقود خطونا إلى أوروبا لنسير مع الإمبراطور فكرة رحلته إلى الشرق، ولا تستخدم كلمة «حملة» هنا؛ لأن ما قام به فردريك كان مجرد رحلة بكل المقاييس، وإن غنم من خلالها ما فشلت فيه أعظم الحملات العسكرية الصليبية التى قادها ملوك فرنسا وإنجلترا وألمانيا من قبل؛ فبينما قدم على رأس خمسمائة فارس فقط، خرج جده فردريك الأول برباروسا يقود جيشا قوامه مائة ألف جندى، قال عنه ابن الأثير: لو وصلت هذه القوات كاملة إلى بلاد الشام، لكان يقال: إن مصر والشام كانتا للمسلمين!! فهل يمكن وصف الحرس الخاص لفردريك الثانى، أعنى الفرسان الخمسمائة بأنهم يشكلون حملة عسكرية صليبية؟!

هذا من الناحية العملية فى تكوين الجيش، أما من الناحية الجوهرية فى الفكر الصليبى، فقد خرج فردريك إلى الشرق وهو محمل بقرار اللعنة الذى أوثقه به البابا جريجورى التاسع، العجوز العنيد، ومن ثم كان لا بد أن تحل هذه اللعنة بمن يصحبه من القوات، وبكل منطقة يتملكها، وكل ما تصل إليه يداه؛ ولذا لم يكن لهذا «الخروج» من سند شرعى فى الفكر أو العرف الصليبى، ما دام فردريك قد حرم من رحمة الكنيسة، وأمسى طريد ملكوت السموات كما يقر الفكر البابوى.

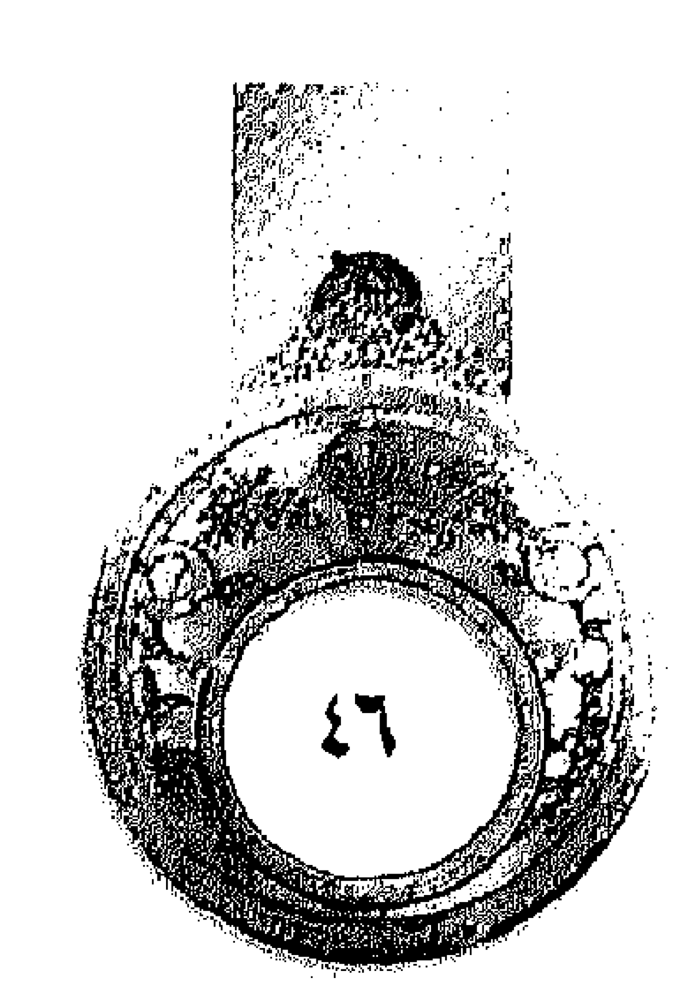
وكان فردريك الثانى قد توج ملكا على ألمانيا فى عام ١٢١٢م، إبان اشتعال جذوة الصراع الأهلى بين أسرة الهوهنشتاوفن التى ينتمى إليها، وعائلة الولفيين، العدو التقليدى، التى يترأسها الآن أوتو الرابع دوق برنسويك Otto IV of Brunswick، وقد اشترط عليه البابا إنوسنت الثالث Innocent III عندما وضع التاج على رأسه أن يتعهد بحمل الصليب والاتجاه إلى الشرق فى حملة لاسترداد بيت المقدس، ولم يكن فردريك استثناءً، بل كان أحد الثلاثة الذين قدموا هذا الوعد استجابة لدعوة البابوية، وكان الاثنان الآخران هما فيليب السوابى، الابن غير الشرعى



لفردريك الأول برباروسا، وأخو هنرى السادس، وأوتو الرابع دوق برنسويك الذى جئنا على ذكره توا، وهم رجال الحـرب الأهلية الطاحنة التى وقعت فى ألمانيا عقيب وفاة هنرى السادس عام ١١٩٨م، وفى عام ١٢٢٠م تكرر المشهد ثانية عند تتويج فردريك الثانى إمبراطورا، حيث جدد البابا هونوريوس الثالث Honorius III هذا الشرط، بحمل الصليب ثانية.

وطوال هذه الفترة لم يحاول فردريك الثانى القيام بما عاهد عليه البابا، فقد راح يتعلم تـدريجيا أصول السياسة الهـوهنشتاوفنية فى مواجهـة ادعاءات السلطة البابوية، أو بتعبير آخر، حقوق السيادة الإمـبراطورية وضرورة الحفاظ عليـها أمام محاولات البابوية وسـعيها الدءوب لتحقيق السمو الكامل من خلال نظرية الشمس والقمر التى أطلقها البابا إنوسنت الثالث، ولم ييأس البابا هونوريوس الثالث من حث فردريك الثانى على ضرورة حمل الصليب لإنقاذ بيت المقدس، وازداد إلحـاح البابا على الإمـبراطور، وخاصـة بعد الفشل الذريع الذى منـيت به الحملة الصليـبيـة الخامـسة عنـد دمـياط، وتعـددت اللـقــاءات بين الرجـلين فى «ڤيـرولى Viroli سنة ١٢٢٢م، و«فرنتينو» Ferentino عام ١٢٢٣م، و«سان جـرمانو» San Germano سنة ١٢٢٥م. وقد بدا واضحـا أن فردريك كان حريصا فى كل لقاءاته هـذه على تأجيل فكرة الخروج على رأس حملة صليبـية قدر استطاعته، متـعللا بانشغاله فى الأمور الداخلية فى ألمانيا والملـحة فى صقلية، وعلى هذا النحو تمكن من الحـصول على موافقـة البابا بأن يكون عام ١٢٢٧م هو التـاريخ الفعلى لبدء حملته.

كان هونوريوس الثالث يتحـرق شوقا لإتمام هذا العمل الصليبى ليخـتتم به عمره الذى راح يسعى إلى الفناء! ويسـاوره القلق والشك فى نيات الإمـبراطور، ويضيق صـدره ولا ينطلق لسانه حتى لا يغضب هذا الإمبراطور الشاب فتتبـدد أحلامه، وبلغ معه السعى حدا أهداه فيه مملكة بيت المقدس الصليـبية قبل أن يخـطو تجاهها خطوته الأولى؛ ذلك أنه تلقف فكرة «هرمـان السالزاوى» Herman of Salza مقدم الفرسـان التيوتون، القائلة بزواج الإمبراطور فـردريك الثانى من الأميرة «يولاندا» Yolanda (إيزابيلا الثانية Isabella II) ابنة چان دى بريين ملك بيت المقدس ووريثته، كى يعقد الزفـاف فى عكا أو صور حتى يضمن خروج فردريك الثـانى حاملا الصليب، ولم يكن هذا الأخير أقل سعادة بهذه الزيجة التى سوف تحـمل إليه عرش المملكة المقدسة، وتجعل منه زعيم العالم المسيـحى المدافع عن حقوقه، الحفيـظ على مقدساته، وذلك أمر كان يحـرص عليه الحرص كله لتثبيت دعائم نفـوذه الإمبراطورى لا فى ألمانيا أو صقلية فحسب بل فى إيطاليـا، وروما نفسها حاضرة مجد الرومان الأقدمين، ومقر الكرسى الرسولى لبطرس أمير الرسل!



غير أن الإمبراطور لم يفغل شيئا مما داعب أحلام هونوريوس الثالث، فلم يذهب إلى عروسه، ولم يخرج إلى الأراضى المقدسة، فقد ضرب وعدا ولن يُخلفه، ومن ثم جيء بالعروس الصغيرة إليه وقد حفت بوفد إمبراطورى رفيع المستوى، كان قد بعث به إليها، وجرت مراسم عقد الزواج ودخل بها فردريك فى ميناء برنديزى جنوبى إيطاليا، وهكذا بات واضحا أن الإمبراطور قد عقد العزم فعلا على عدم التحرك بقواته باتجاه الأراضى المقدسة إلا فى الموعد الذى اتفق عليه مع البابا هونوريوس الثالث فى سان چرمانو.

كنيسة القديس بطرس القديمة - البازليكا

وخلال هذين العامين ١٢٢٥ - ١٢٢٧ حرص فردريك على توطيد سلطانه الإمبراطورى فى كل من ألمانيا وجنوب إيطاليا وصقلية، وحاول قدر الطاقة أن يمد هذا النفوذ إلى الشمال، حيث مدن العصبة اللومباردية، حتى إذا كان عام ١٢٢٧م وأكمل فردريك ما ظنه الجميع استعدادات حربية فى طريقها إلى القدس، وتجمعت القوات التى توافدت على «برنديزى» من كل أنحاء أوروبا، مات هونوريوس الثالث قبل أن تقر عينه بما كان يمثل له حلم خريف العمر، ولعل القدر كان به رحيما عندما وافته المنية قبل أن يتفشى الطاعون فى كل هذه القوات ويبدد شملها، وحتى الإمبراطور نفسه ألمَّ به المرض، وإن لم يصل به إلى حد الهلاك، فلما أبحر بمن بقى معه من القوات عاندته الأمواج والرياح، فاضطر أن يلقى مراسيه فى أوترانتو Otranto، مؤجلا فكرة الزحف نحو الشرق إلى موعد آخر.

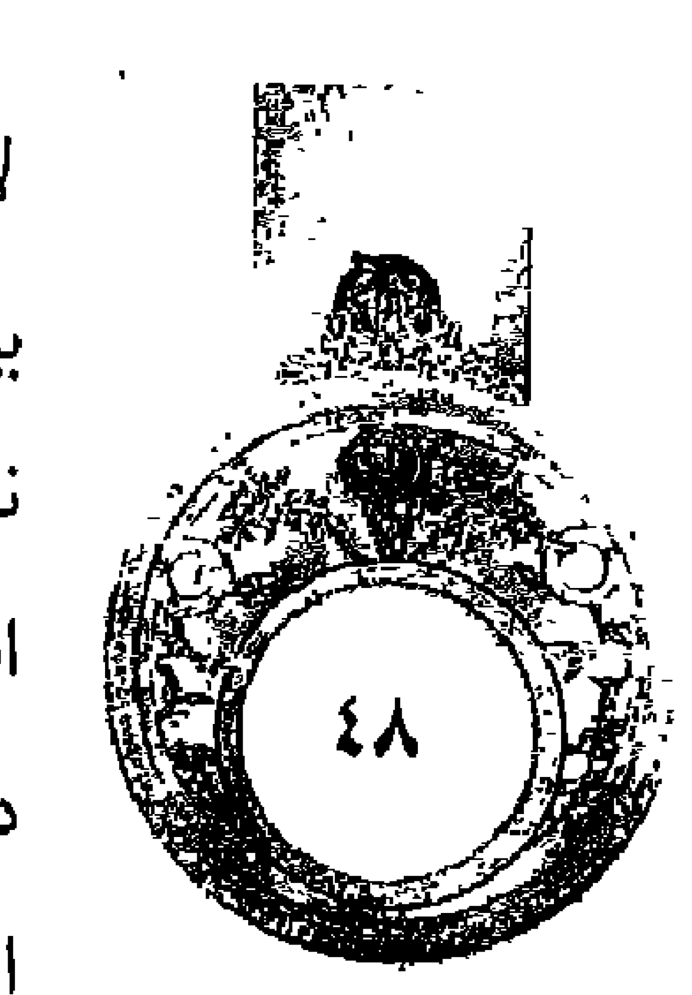
ولم يكد البابا الجديد جريجورى التاسع يتربع على عرش البابوية، حتى استفتح عهده بإصدار قرار الحرمان الكنسى ضد الإمبراطور فردريك الثانى، إذ اعتبر عدم خروجه على رأس حملة صليبية مماطلة متعمدة من جانبه لا تستحق غير اللعنة، فأوثقه بها؛ ذلك أن فردريك نزل فى أوترانتو فى الثالث عشر من سبتمبر ١٢٢٧م، ولم يمض على ذلك أكثر من أسبوعين حتى كان



الكنيسة التى توِّج فيها فردريك الأول بجزيرة صقلية

البابا قد حرمه من رحمة الكنيسة. وقد ينصرف الذهن للوهلة الأولى إلى أن عدم خروج فردريك بحملة صليبية كان السبب وراء هذا الحرمان، ولكن المسألة لم تكن على هذا النحو من البساطة، إذ إنها تدخل فى إطار العلاقة بين البابوية والإمبراطورية والتى لم تكن فى جملتها طبيعية، بل تميزت بالعداء فى أغلب الأحيان إن لم يكن على طول الخط، وازداد عنفها بشكل واضح جدا على عهد أباطرة أسرة الهوهنشتاوفن، وكل من الباباوات إسكندر الثالث وإنوسنت الثالث وجريجورى التاسع، وكلهم وأوسطهم خاصة، راحوا يقفزون قفزات واسعة باتجاه السمو البابوى، لتحقيق السيادة على العالم، من خلال نظرية الشمس والقمر، البابوية والإمبراطورية، وعلى اعتبار أن البابا هو نائب المسيح على الأرض Vicarius Christi.

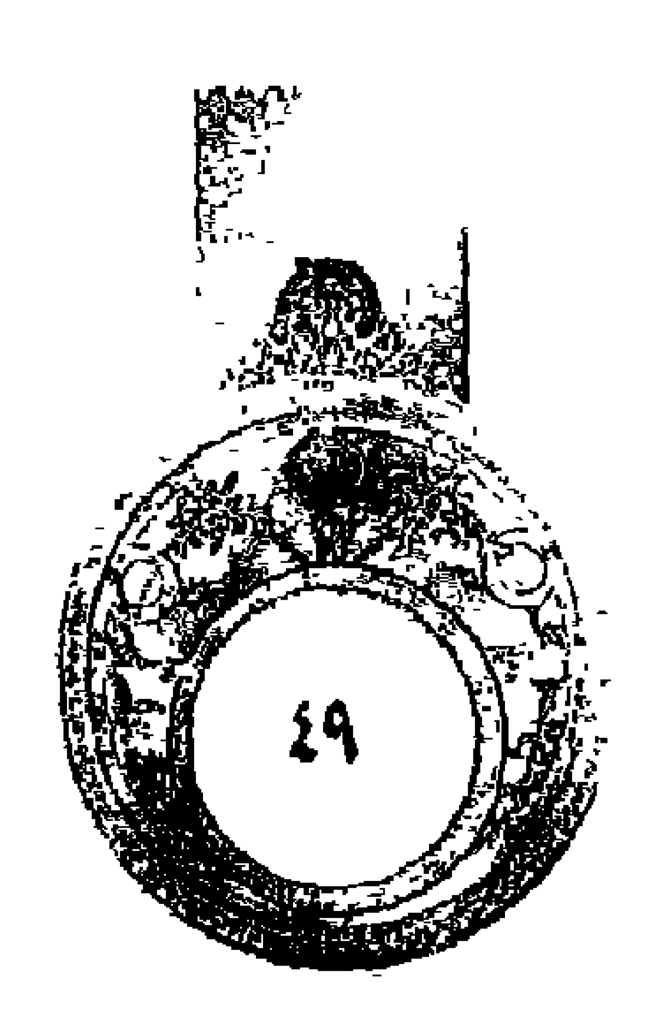
وكان جريجورى التاسع واقعا تحت تأثير اعتقاد يقينى بأن الخطر يكمن فى شخصية فردريك الثانى، وأن التسامح معه سوف يجر على البابوية كل الوبال، ومن ثم جعل قهر هذا الإمبراطور أكبر همه ومبلغ سعيه، ليس هذا فقط، بل إن هدفه الأساسى الذى جاهد لتحقيقه منذ اللحظة الأولى لاعتلائه العرش، تحطيم هذا الـ«فردريك» تحطيما تاما، ولم يكن جريجورى التاسع بالرجل الذى يحجم عن النزال، ورغم تقدم العمر به إلا أنه ظل محاربا عنيدا، وكاهنا من الطراز الأول، يجيد تماما فنون الاعتزاز بالنفس إلى حد الخيلاء والعجرفة، وظلت النيران المشتعلة فى صدره أيام شبابه، متأججة حتى الآن فى ليالى شيخوخته، لتتقد بالعداء ضد فردريك الثانى، والكراهية التى



لا حدود لها؛ ولـذا اهتبل هذه الفرصة التى سنحت، ولم يدعـها تفلت من بين يديه، وأقدم على حـرمان فردريـك الثانى من رحمـة الكنيسة، واضـعا نصب عـينيـه أن هذا القـرار هو بداية الطريق الأمـثل للقـضـاء كليـة على الهوهنـشتاوفن، وإذا جـاز لنا أن نعود إلى مـا كتبـه الأديب «چوزيف چاى ديس» متـخيلا أن فردريك الثـانى يكتب مذكراته، وجدناه يقـول على لسان الإمبراطور: «. . . إن أية توبة يمكن أن أقدمها غير مقبولة منى. . . فلن يقبل منى سوى التنازل عن مملكة صـقلية لتكون تحت حكم البـابا. . . لقد أماط جريجـورى اللثام عن النزاع الدفين، وقد تلخـصت مخاوفـه فيما يـلى: نمو الدولة الزمنية والإصلاح الكنسى وهمـا ما تمسكت بحقى فيها. . . والآن يريد أن يتحكم فىّ ويوجه مسلكى كى أسير على هواه، لقد أعلن الحرب على شخصى، وهى حرب لا رحمة فيـها ولا هوادة، فلقد كان الهلع يتسلط على البابوية من جراء سـيادة أسـرة الهوهنشـتاوفن على صـقلية منذ خطب فـردريك الأول بربـاروسا الأمـيرة كونستـانزا وريثة عرش النورمان لابنه هنرى السـادس، فأمست البابوية على هذا النحـو واقعة بين قدمى الإمبراطورية، الأولى فى ألمانيا، والثانية فى صقلية.

ولم تكتف البابوية بهذا الحرم الكنسـى الذى أنزلته على أم رأس فردريك الثانى، بل راحت تلاحقه أينما حلّ، وواصلت ملاحقتهـا له حتى الأراضى المقدسة وبلاد الشام، وبعثت برسلها إلى هناك تطلب إلى الصليبيين عدم الترحيب أو التـعاون مع هذا الإمبراطور «الملعون»، وتحرض حكام المسلمين ضده للقضـاء عليه وعلى مشروع حملتـه التى لم تباركها البابوية. وكـانت البابوية جادة تماما فى هذا السـبيل، إذ إنها كـانت تعلم علم اليقين أن أى نصر يحـققه الإمبـراطور فى الشرق سوف يكون وبالا عـلى الكرسى الرسولى الرومانـى، إذ إنه يحمل فى جوهره تعـرية لـ«قدسـية» البابوية و«بركاتها» التى تخلعها على هذه الحمـلات، حيث تمسى بذلك جوفاء لا قيمة لها، وهذا ما كان يؤرق جفنى جريجـورى التاسع، ويدفعه دفعًا إلى تصعيد نغـمة العداء مع أبرز أفراد أسرة الهوهنشتاوفن والسلطة الإمبراطورية، فردريك الثانى.

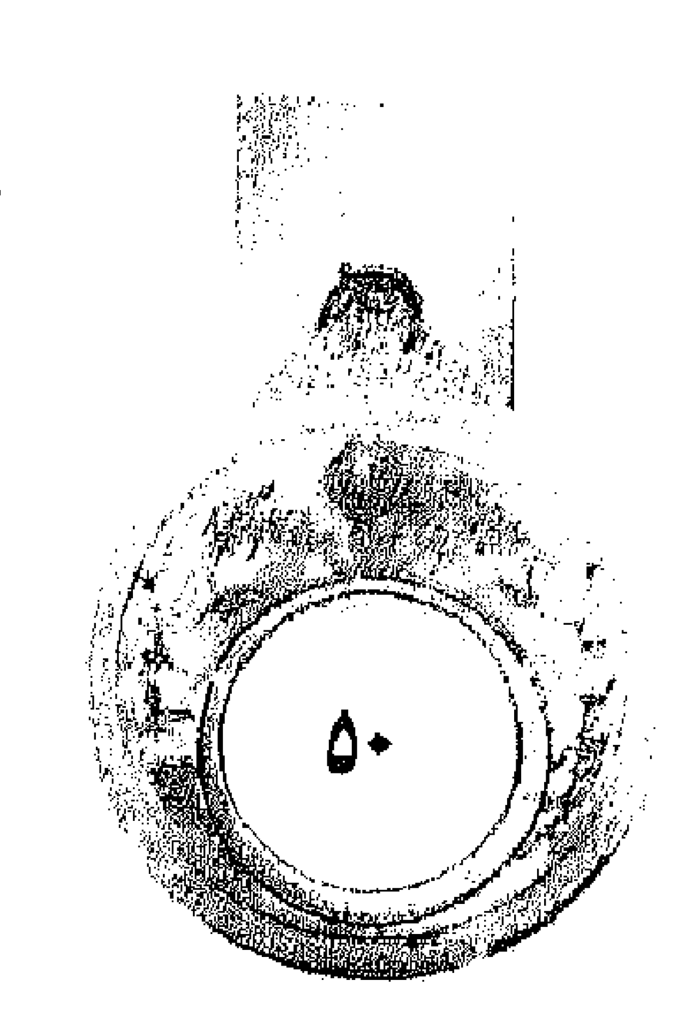
وقد تكون البابوية محقة فعلا فيـما ساورها من شكوك فى نيات فردريك الثانى حول جدية الخروج على رأس حـملة صليبيـة لاسترداد بيت المقـدس، فقد ظل فـردريك خمسـة عشر عـاما (١٢١٢ - ١٢٢٧م) بعيدا كل البعد عن التفكير فى هـذا المشروع الصليبى برمته، ومن المحتمل أن يكون انصراف الإمبراطور طيلة هذه السنوات إلى تثبـيت نفوذه الملكى فى ألمانيا أمام ادعاءات أمراء الإقطاع، وإقرار سـيادته الإمبراطورية فى إيطالـيا وصقلية فى مـواجهة مدن العـصبية اللومـباردية شمالا واضطرابات النورمان جنوبا، نقول من المحتمل أن يكون ذلك قد ترك أثره فى مسألة حمله الصليب، لكن من المرجح تماما أن ذلك لم يدر بخلده عبر هذه السنوات؛ بل لن نكون مبالغين إذا ذهبنا إلى القـول، استنادا لما جرت به الأحـداث، أن عدة تسـاؤلات كان يتردد صـداها فى ذهن



فردريك الثانى ويلح عليه، لماذا تدور رحى هذه الحرب التى تنعتها البابوية بـ «المقدسة»؟ وهل هى حقا مقدسة؟ وما هو الدور الغريب الذى تلعبه البابوية فى تأجيجها؟ وما مدى الفائدة التى جنتها من وراء ذلك؟ وهل المسلمون حقا بمثل هذا الذى تنعتهم به الدوائر الكنسية وعلى رأسها البابوية فى الغرب، من التعصب والهمجية؟! وهل كان هؤلاء القوم الذين أمضى بين ظهرانيهم طفولته وصباه وسنى شبابه الأولى، أعنى المسلمين، يستحقون فعلا كل ما جرى لهم فى بلادهم على أيدى جند المسيح هؤلاء كما تسميهم الكنيسة؟ علامات استفهام كبيرة ارتسمت فى مخيلة الرجل وهو يتابع هذا الإلحاح المستمر من الباباوات لدفعه للخروج بحملة صليبية إلى الشرق لحرب المسلمين!

لقد نشأ الطفل فردريك هذا فى صقلية، فقد مات أبوه هنرى السادس عام ١١٩٧م وهو لم يكمل بعد الرابعة من عمره، فتولت أمه كونستانزا النورمانية الوصاية عليه، حتى إذا أدركها الموت فى السنة التالية (١١٩٨م) انتقل الطفل إلى وصاية البابوية بوصية من أمه قبل وفاتها، ولما كانت البابوية آنذاك على عهد إنوسنت الثالث (١١٩٨ ـ ١٢١٦م) فى شغل شاغل بنفسها وسموها عمن سواها، تدس أنفها وأصابعها عن عمد فى ذلك الصراع الأهلى الطاحن فى ألمانيا حول العرش، والدائر بين فيليب السوابى، الأخ غير الشرعى لهنرى السادس، وأوتو الرابع دوق برنسويك، زعيم الولفيين، فإنها لم تلتفت مطلقا إلى ذلك الصبى فردريك، ولم تعره اهتماما، وأوضحت ذلك فى وثيقة رسمية أصدرتها فى عام ١٢٠١م، وجاء فيها الاعتراف بأحقية الطفل فى العرش، والتأكيد فى الوقت نفسه على أنها لا تملك الوقت الكافى لرعايته وتنشئته كما تقضى الوصاية الحق، وهكذا ترك الصبى فردريك وشأنه ليشب فى حارات صقلية وشوارعها، وليعتمد على نفسه، فى تربية نفسه، وليفتح عينيه على كل ما خلفه المسلمون فى الجزيرة من جوانب حضارة راقية، حرص النورمان وخلفاؤهم على الإبقاء عليها والإفادة منها قدر الطاقة، وكان ملوكهم أكثر ذكاء من ملوك إسبانيا والبرتغال الذين بذلوا الجهد كله لطرد المسلمين من شبه الجزيرة إبان حركة الاسترداد، وأدرك فردريك الشاب، بعقل واع وبصيرة نافذة عرفت عنه، أنه أمام تراث حضارى ضخم وقف إزاءه مشدوها، ورسخ فى ذهنه تقدير قيمته، وانعكس ذلك واضحا فى إجادته للغة العربية، وفيما أثر عنه عندما غدا من بعد ملكا إمبراطورا من عدم اهتمامه بالشئون السياسية الألمانية بقدر ولعه بإيطاليا وصقلية، وبدا هذا واضحا فى أنه خلال الثمانى والثلاثين سنة (١٢١٢ - ١٢٥٠م) التى حكمها، لم يمض منها فى ألمانيا سوى تسع سنوات فقط، وعلى فترتين!

ولعل هذا هو الذى دفع هنرى بيرين H. Pirenne إلى أن يتساءل فى صراحة.. ماذا كانت ألمانيا تعنى لفردريك؟ ويجيب فى وضوح: لقد كانت مجرد طريق عليه أن يسير فيه ليعتلى عرش



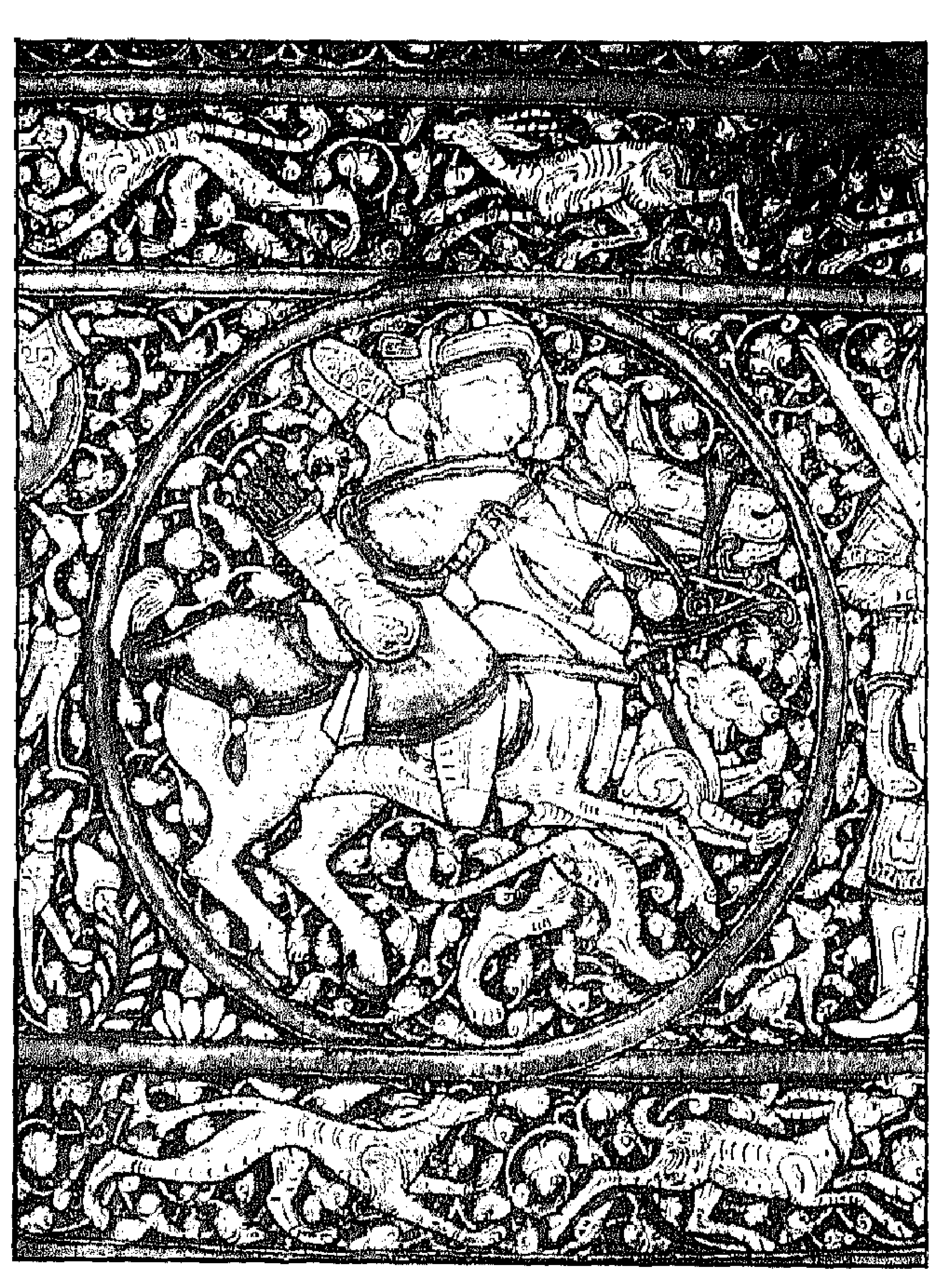
القياصرة، أمـا قوته الرئيسية فكانت تتمثل فى صـقلية. . . إنه لم يكن حتى يجـيد الحـديث بالألمانيـة. بل لقد كـان فى رأى «ويلى» D. Waley يمقت ألمانيا، بل ويعتبرها «أرض الأحراج الكئيبة، والمدن الموحلة والقلاع المنفرة»، بينما كـانت إيطاليا وصقلية بالنسـبة له، حسب تعبـير «كانتروفـتش» «مرفأه الأمين من الطوفان، وفـردوسه الحانى وسط غابة الأشـواك»! ومن ثم، فإن اهتمامه بألمانيا كان للحصـول على اللقب الإمبراطورى فقط، وبالتالى تدعيم نفوذه وسلطانه فى إيطاليا وصقلية.

وقد قـدر لفردريك أن يظل فى صـقلية حـتى العام السـادس عشـر من عمره، عـندما تم استدعاؤه من قـبل البابا إنوسنت الثالث، ليتوج ملكا على ألمانـيا بعد اغتيال عمـه فيليب السوابى سنة ١٢٠٨م، وليـزج به فى أتون الحـرب الأهليـة ضـد أوتو الرابع دوق برنسـويك، الذى قلب للبابوية ظهـر المجن بعد أن أصبح وحيدا فى السـاحة السياسيـة والعسكرية، وأدرك جيدا مـقاصد البابوية وسعيها الدءوب للسيادة على الحكام الزمنيين، طريقا إلى السمو!

من هنا كانت السنـوات التى أمضاها فـردريك الثانى فى صقليـة، وهى الفترة البـاكرة من العمـر والتى يتم فيهـا تشكيل العقل وغـرس القيم واحتـرام التقاليـد، وبقدر حنقـه على البابوية وكراهيـته الشديدة لهـا، لتركها له دون رعـاية خلافا لوصـية أمه، إلا أنه أفـاد من هذا «الإهمال البابوى» فى الإحاطة بهذه الثـقافة العريضة التى أحاطت به فى صقـلية، والإلمام والولع بكثير من

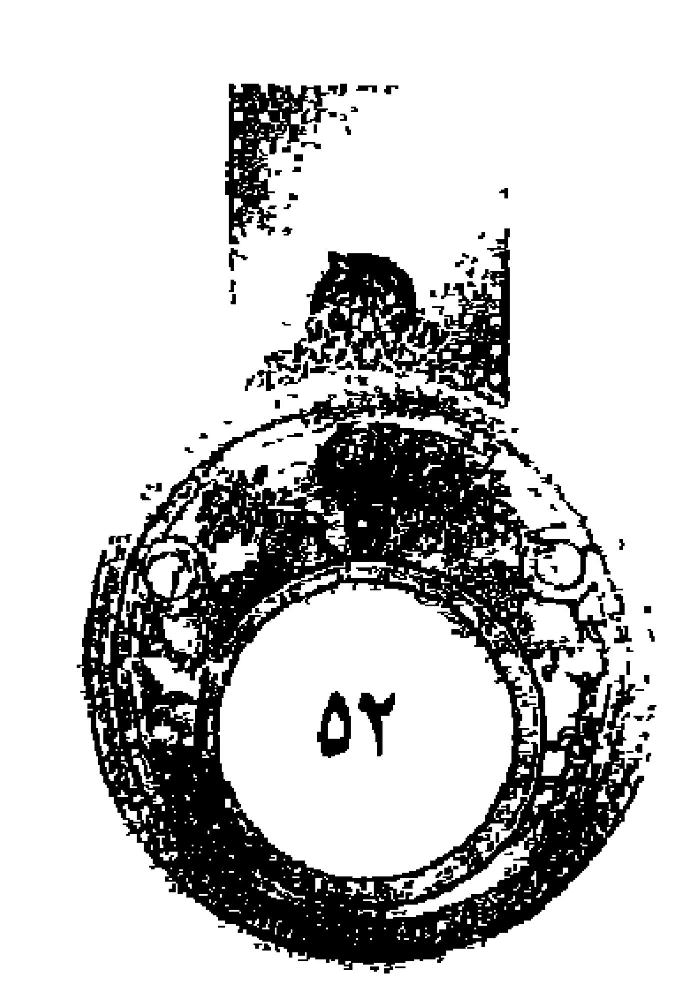
كنيسة سان چوڤانى ـ طراز عربى فى صقلية

جوانب الحضارة الإسلامية فى الجزيرة، وازداد رد فعله تجاه البابوية عندما ساقته إلى هذه الحرب الأهلية مباشرة عقب استدعائه من صقلية، تحت دعوى الحفاظ على حقوقه فى التاج الألمانى، وما أدركه خلال السنوات التالية قبل تتويجه إمبراطورا من محاولات البابوية لجعله خاضعا لسلطانها، سائرا فى ركاب رغائبها، حتى إذا حمل التاج الإمبراطورى (١٢٢٠م) لمس بوضوح الاتجاه أو النزعة الاستقلالية لذى رجال الأكليروس الألمان بتأييد من البابوية، إضافة إلى التعهدات التى فرضتها عليه البابوية فيما يتعلق بضرورة حمل الصليب باتجاه الشرق لإنقاذ بيت المقدس، ثم ما كان من أمر الإغراءات التى قدمت إليه ليخلع على نفسه لقب ملك بيت المقدس حالة زواجه من يولاندا وريثة عرش المملكة، ولهذا نراه يقبل هذه الزيجة، ليبين للبابا - ظاهريا - أنه سائر فى طريق الشرق حاملا الصليب، وفى الوقت نفسه يدعو فى العام التالى مباشرة (١٢٢٦م) لعقد مؤتمر فى «كريمونا» Cremona يعلن فيه حرصه الكامل على حقوق الإمبراطورية فى السيادة على المدن اللومباردية، وكان هذا المؤتمر فى جوهره موجها لادعاءات البابوية فى شمالى إيطاليا، من هنا لم نكن مبالغين عندما أسلفنا القول: إن قرار الحرمان الكنسى الذى صدر ضد الإمبراطور عام ١٢٢٧م لم يكن ناجما عن عدم خروجه إلى الشرق فى ظل الصليب، بل كان جزءا أساسيا من رحلة طويلة لعلاقات غير طبيعية، معقدة بين البابوية والإمبراطورية، وأن فردريك لم يكن راغبا أصلا فى الخروج بمثل هذه الحملة الصليبية.



نقش بارز بالفضة على طشت نحاس باسم لويس القديس ملك فرنسا - صنع فى مصر - ق ١٣ سنة ١٢٩٠م

لقد كان فردريك الثانى - على حد تعبير «رنسيمان» يمتلك قدرا عاليا من الفكر والثقافة الواسعة، وعقلا ذكيا، يعرف ست لغات هى الفرنسية والألمانية والإيطالية واللاتينية واليونانية والعربية، متضلعا من الفلسفة، عالما بالطبيعيات، عارفا بالطب والتاريخ



الطبيعى، على قدر كبير من الإلمام بأحوال الأمم والبلدان الأخرى، يأخذ حديثه ـ متى شاء بالألباب، وإن كان يحمل إلى جانب ذلك صفات أخرى تتمثل فى القسوة وعدم التسامح مع أعدائه. ويمضى «رنسيمان» فى حديثه قائلا: إن فردريك لم يكن رجلا بلا دين كما أشيع عنه، بل كانت مسيحيته لا تقل عن بعض الأباطرة البيزنطيين، بل كان ينظر إلى نفسه باعتباره «نائب المسيح» على الأرض، ولعل هذا هو السبب الرئيسى فى عداء البابوية تجاهه وكرهها العميق له، حيث كان الباباوات ابتداء من إنوسنت الثالث يحملون اللقب نفسه، بعد أن كانوا مجرد خلفاء لبطرس حتى القرن الثالث عشر الميلادى.

ولم يكن فردريك الثانى يجد أى غضاضة فى أن يبدى اهتماما معينا بديانات أخرى، وخاصة الإسلام، حيث وقف على كثير من أصوله على امتداد حياته، لطول إقامته فى صقلية، ولم يكن ينظر إلى الكنيسة البيزنطية على أنها كنيسة منشقة كما تعتبرها كنيسة روما، ولعل هذا هو الذى دفع بعض المؤرخين المسلمين إلى القول عنه: «إنه كان دهريا وكان يتلاعب بالنصرانية» ورغم أنه كان فى دمائه نصف ألمانى، نسبة لأبيه، ونصف نورمانى، نسبة لأمه، إلا أنه كان فى تنشئته صقليا، لقد كان طفلا ترعرع فى جزيرة كانت نصف يونانية ونصف عربية، ومن ثم فقد استطاع بذكائه الحاد أن يفهم طبيعة المسلمين وعقليتهم، وأن يدرك تماما دهاليز الدبلوماسية الإسلامية.

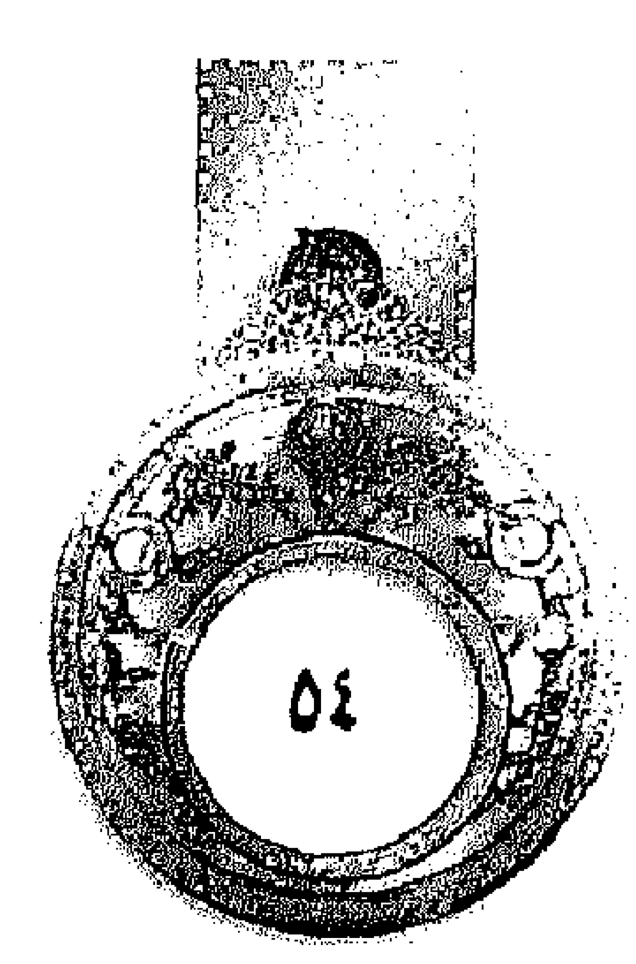
ولنترك القلم الآن للمؤرخ «هربرت فيشر» H. Fisher ليعرض لنا فى عبارات بليغة شخصية فردريك الثانى، فنجده يقول: «اتصف فردريك الثانى بصفات قَلّ أن تجتمع فى رجل واحد، إذ أجاد الكتابة والكلام فى ست لغات، ونظم الشعر العاطفى فى نغم دافئ دفء أنغام الصقليين الذين نشأ بينهم، وأغدق من ماله وعنايته لتشجيع العمارة والنحت والتعليم، وهو إلى جانب ذلك جندى بارع وسياسى لبق إلى أقصى درجات اللباقة، مع الجسارة التى لا تخشى خاشية، والنزعة الفكرية الجانحة إلى ميادين الفلسفة والفلك والهندسة والجبر والطب والتاريخ الطبيعى، وألف فردريك فى البَيْزَرة (علم تربية الصقور وتدريبها على الصيد والقنص) كتابا هو أصل من أصول العلوم التجريبية فى غرب أوروبا... ولم تكن التقاليد والقيود المسيحية التى التزمها أمثال ملك فرنسا القديس لويس فى ذلك العصر، مما يأبه له فردريك الذى نشأ فى صقلية، حيث ملتقى الأجناس والأديان، بل اصطنع فردريك المسلم واليهودى، وعرف لكل منهما قدره ومكانه، مع أنه سلك مسلك الرهبان الدومنيكان فى الصرامة الدينية... والواقع أن ثمة صفات خارقة اجتمعت فى ذلك الإمبراطور الذى عالج شئونه السياسية فى نشاط هائل وواقعية بصيرة، كما اشتهر بالتصوف والتشكك فى آن واحد، مع الجرأة والثورة على القديم فى جميع مناهجه وآرائه».
ويضيف المؤرخ إرنست باركر فى كتابه عن الحروب الصليبية قوله: «كان فردريك يتصرف بروح

ملك صقلية لا بروح ملك بيت المقدس، وهو ما كان لا بد أن يقوم به، فمن أسلافه القليلين، الذين عـقدوا معاهدات تجارية مع مـصر، تعلم فردريك أن يجعل من الحـرب، وإن كانت صليبيـة، مسألة معـاهدة، فعلى الرغم من أن الفرع النورمانى الذى انحدر منه ملوك صقلية كاد يختـفى، فإن سياسته بقيت من بعدهم عـند من خلفهم من ملوك الهـوهنشتاوفن، والتـى أمعنت فى أن تجعل للحملة السادسة مظهرها الدنيوى والدبلوماسى المجرد من الدين».

ولقد أفـاض المؤرخون المسلمـون فى خلع مثل هذه الصـفات أو بعض منهـا على فردريك الثانى وقـد بهرتهم شخصـيته، وكان من بين مـا قاله نفر منهم: «إنه كـان مائلا إلى المسلمين لأن مقامه فى الأصل ومُرَبّاه بلاد صقلية. . . وأهل تلك الجزيرة غالبهم المسلمون»، ولا يخفى علينا ما تشـير إليـه هذه العبـارة من العـلاقات التى كـانت قائمـة بين فـردريك وملوك بنى أيوب، والتى استمرت على عهـد الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل، على أنه من الأهمية بمكان إدراك أن هذا «الميل» لم يكن تجاه «الإسـلام» فى حد ذاته إلى الدرجـة التى «قيل» فيـها: «إنه كان مـسلما»!!، فالرجل كـان عاهل الإمبـراطورية الرومانية المقـدسة فى المقام الأول، يعـمل لصالح دولته وهيـبة الإمبراطور، فهو لم يتـورع عن إعدام أحد الرهبان المسيحيين بعد اتهـامه بالهرطقة، ولم يتردد فى زجر وتوبيخ واحد من القـسيسين عندما رآه يهم بدخول المسجد الأقـصى أثناء زيارة فردريك لبيت المقدس بعد توقيع اتفاقية يافا وهـو لم يتوان فى المقابل لحظة واحدة فى القضاء بعنف على القلاقل والاضطرابات التى أثارها المسلمـون بين الحين والحين فى صـقلية، وذلك من أجل تثبيت دعـائم سلطانه فى قاعدة ملكه، حيث كـانت الجزيرة هكذا بالنسبة له، وليس فى كل هذا أى تناقض فى شخصيتـه، فلا ضير مطلقا أن يأخذ عن غيره من أصحـاب الديانات الأخرى، بفكر متفتح وعين واعية، مـا يفيد دولته ويعود على نظمـها بالتطور، فى الوقت الذى لا يسمح فيـه لأصحاب هذه الديانات أو الأفكار بإحداث الضرار داخل هذه الدولة، ومن ثم فقد عمـل ـ كما قال فيشر ـ على أن يصطنع المسلم واليهودى، ويعرف لكل منهما، فى الوقت نفسه، قدره ومكانه.

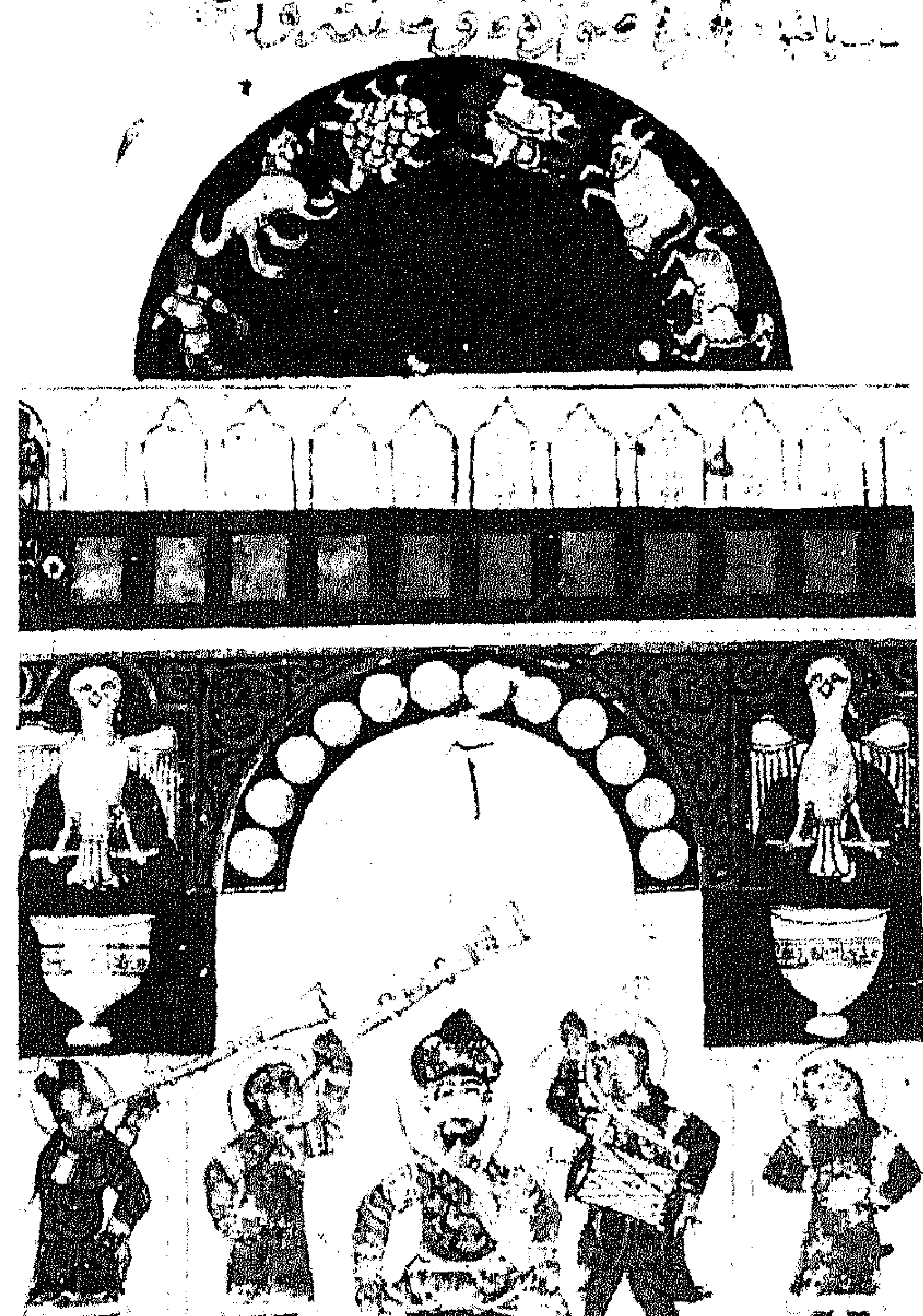
لهذا كله لم يكن غـريبا فعـلا أن يحظى فردريك الثانى بلقب «مـحير العالم» أو «أعـجوبة الدنيا» Stupor mundi الذى أطلقه عليه معاصروه، تعبيرا عن هذه الصفات المتعددة التى اجتمعت له فى شخصه، والتى قد تبدو للوهلة الأولى لأعين الرائين متناقضة متباينة، وإن كانت الحقيقة غير ذلك تماما.

وفى الجانب الآخـر من البحر المتـوسط كان الملك الكامل بمثل هذه الصفـات، والتى تحدثنا عنها فى صدر هذا الـفصل وخلال صفحـاته، والتى جمعت بين الحزم والمهـابة وشدة البأس ولين الجانب وسداد الرأى وحـسن السياسة وحـدة الذكاء، هذا كله إلى جوار الصفة المـميزة لملوك بنى



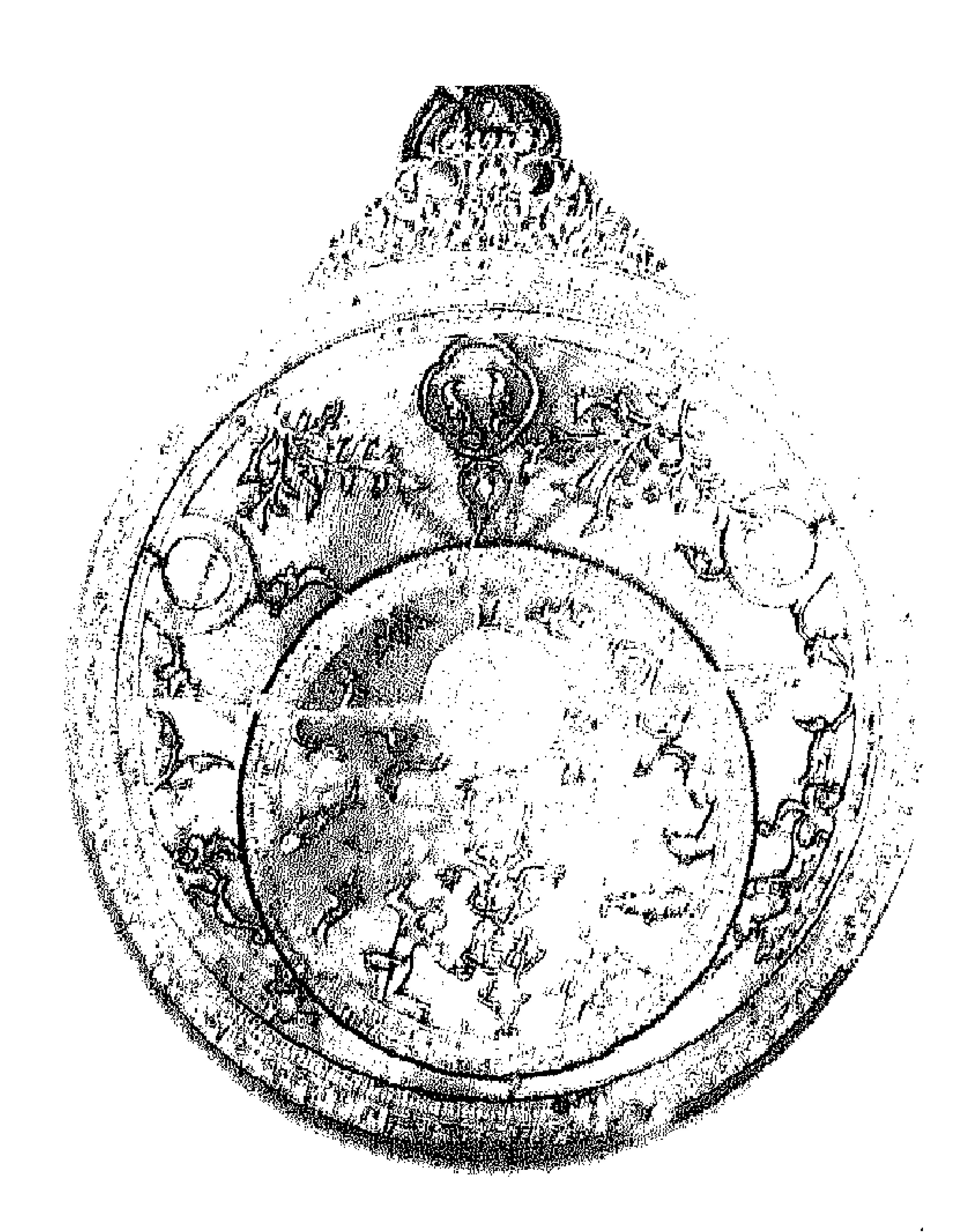
أيوب جميعــهم، أعنى التسامح مع الاقتدار، وكان الكامل هــنا شديد الشبه تماما بعمه الناصر صــلاح الدين الأيوبى، أما ما كان يتصف به الملك الكامل من حب للعلم وإيثار للعلماء، وسعة الاطلاع، والإلمام الــكبير بفروع المعرفة الإنسانيــة، وتنوع الثقــافة، فحــدث عنه ولا حرج كمــا حدث عنه مــؤرخو عصره واللاحقون.

والذى يلفت النظر فعلا، أنه إذا كان الأيوبيون قد حققوا شهرة واسعة فى ميدان الجــهاد الحربى ضد الصليبيين، هــجوما ودفاعا، فى الشام وعلى أرض مــصر، واحتلوا بذلك مكانة مرمــوقة فى نفوس المسلمين، فــإنهم فى الوقت نفسه حظوا بســمعة طيبــة فى المجال الثقافى، وبلغــوا منزلة راقية فى النواحى الفكرية والأدبيــة، نتيجة اهتمــامهم بالمسائل التعليــمية، وتقديرهم واحــترامهم للعلماء والمفكرين وذوى الرأى، ولم يشــغلهم الجهاد العسكــرى عن الجهاد الفكرى، فــتحقق لهم النــجاح فى الحقلين، ومن ثم لــم يكن غريبا أن نرى عــددا لا بأس به من ملوك بنى أيوب فى مصر والشــام كانوا فى عداد هؤلاء العلمــاء والمفكرين والأدباء، مــثل الكامل والمعظم وابنه الناصر داود والمؤيد صــاحب اليمن المتــوفى سنة ٧٢١هـ/ ١٣٢١م، وبهرام شــاه ابن فرخــشاه صــاحب بعلبك المتــوفى سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م، والمؤرخ أبو الفــدا إسمــاعيل بن على عماد الدين صاحب حماه، المتوفى سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م صاحب كتاب المختصر فى أخبار البشر، والملك المنصــور صــاحب حــماه، المتــوفى سنة ٦١٧هــ/ ١٢٢٠م، ويــأتى عــلــى رأس هــؤلاء جميــعــا مؤسس الأسرة صــلاح الدين الأيوبى؛ ولذا فلا غــرو أن تنتشــر المدارس بصورة تجل عن الحصر فى مصر والشام، وأن يوقف عليها الكثير من الأراضى حــتى تســتطيع أن تؤدى رســالتهــا العلمية على خير حال.

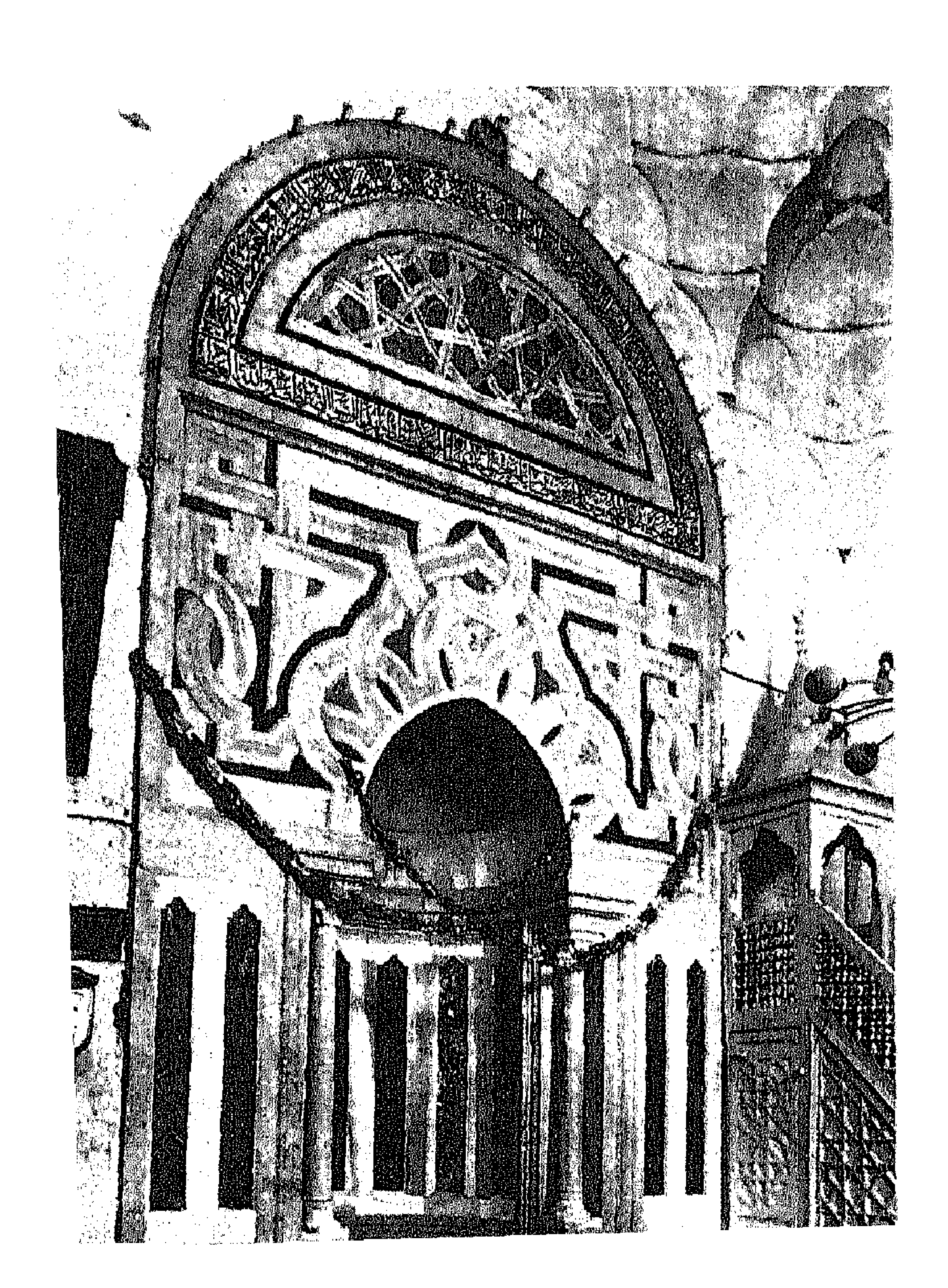


الساعة المائية للجزرى – دير باكير مصر من كتاب الحيل – الميكانيكية (الجزرى) سنة ١١٨١هـ/ ١٢٠٦م (العصر الأيوبى)

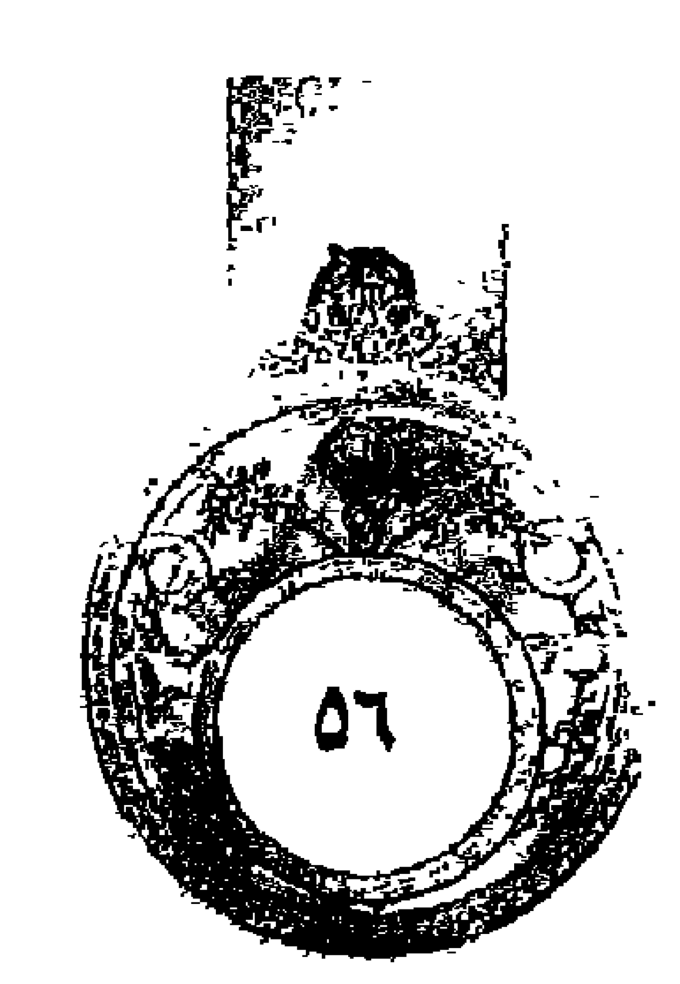
أما الملك الكامل فـ«كان يحب أهل العلم ويؤثر مجالستهم عنده، وشغف بسماع الحديث النبوى. وكان يناظر العلماء، وعنده مسائل غريبة من فقه ونحو يمتحن بها، فمن أجاب عنها قدمه وحظى عنده. وكانت عنده بالقلعة جماعة من أهل العلم... فينصب لهم أسرَّة ينامون عليها بجانب سريره ليسامروه». وقد اشتملت مجالسه العلمية على مختلف فروع المعرفة الإنسانية، كما كان ذواقا للشعر، راغبا فى حفظه، ولديه المقدرة على ذلك والقدرة على قرضه، وقد عمر قاعة بقلعة الجبل يجلس فيها مع الفقهاء والصالحين فى شهر رمضان من كل عام أطلق عليها «قاعة رمضان»، وقد أفرد ابن واصل صفحات طوال للحديث عن علم الكامل وحسن معاملته للعلماء واحترامه لهم وتقديره إياهم، وسعيه الجاد ليجىء بهم إلى بلاطه فى مصر من مختلف أساكن إقامتهم، وكان هؤلاء من الفقهاء والنحاة والمناطقة وعلماء الأصول والطب والمحدثين والأدباء، وكانوا جميعا «يحاورونه ـ على حد قول ابن واصل فى العلوم والآداب».



الإسطرلاب - صنع عبد الكريم المصرى سنة ١٢٣٥م



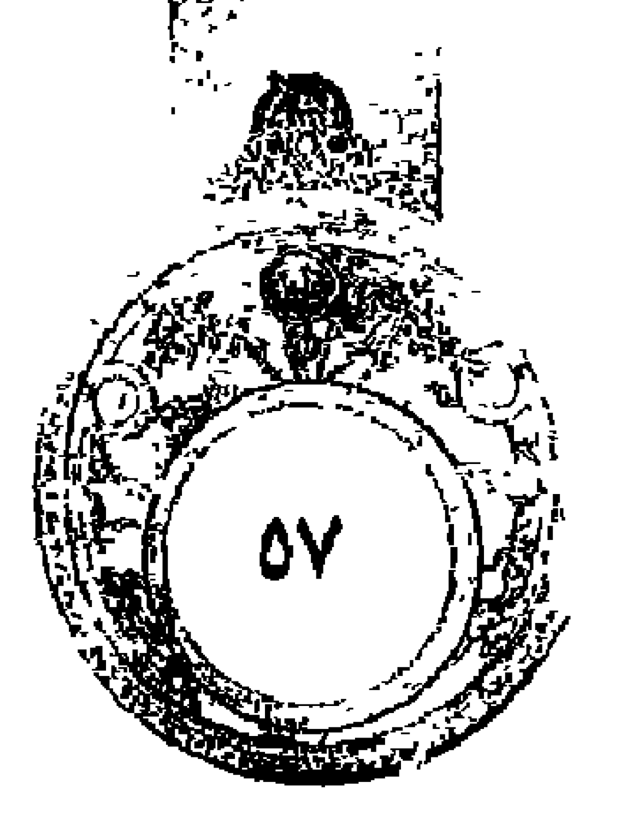
محراب مدرسة الفردوس الشام/ حلب - العصر الأيوبى سنة ١٢٣٥م



وهكذا كانت سعة الثقافة ومحبة العلم واحترام العلماء وتقديرهم والبعد عن التعصب، القاسم المشترك الأعظم بين الرجلين، الملك الكامل الأيوبى والإمبراطور فردريك الثانى الهوهنشتاوفنى، ومن هذا المنطلق لم يجد الإمبراطور أى حرج فى أن «يُسَيِّر إلى السلطان مسائل حكمية ومسائل هندسية ورياضية مشكلة، ليمتحن بها من عنده من الفضلاء، فعرض الملك الكامل ما أورده من المسائل الرياضية على الشيخ علم الدين قيصر بن أبى القاسم إمام هذه الصناعة، وعرض الباقى على جماعة من الأفاضل فأجابوا عن الجميع. وكان الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ، أحد أبرز رجالات عصره ثقافة وكياسة، ومستشار الملك الكامل، هو همزة الوصل بين الرجلين، شهد له الإمبراطور فردريك بالكفاءة والذكاء، وعلى هذا النحو تماثلت أو تقاربت خصال العاهلين، الكامل وفردريك، وأضحيا كأنما يعيشان فى عصر غير عصرهما، وحق للمؤرخ «كانتروفتش» أن يقول عنهما: «بأنهما كانا وجهين لعملة واحدة، وكان الكامل هو الوجه الشرقى للإمبراطور، بينما كان فردريك هو الوجه الغربى للسلطان».

ومن هذا المنحى أيضا لم يكن غريبا أن يتعرض كل من الإمبراطور والسلطان لحملة ضارية من النقد والتجريح من جانب معاصريهم وخاصة رجال الدين، الكامل لما عُدَّ «تفريطا» فى حق المسلمين بتسليم القدس إلى «الفرنجة»، وفردريك لما اعتبر «تهاونا» فى قتال المسلمين، وأنه ما كان له أن يهادنهم والحرب قائمة بين المعسكرين، ورغم كل ما تحقق من نجاح على يد فردريك لم يحظ بمثله الصليبيون منذ الحملة الأولى، إلا أن ذلك كله لم يغفر للإمبراطور خطيئته هذه، فقد خرج ملعونا محروما، وحمل التاج الملكى لبيت المقدس وهو على هذه الصفة من الحرمان واللعنة.

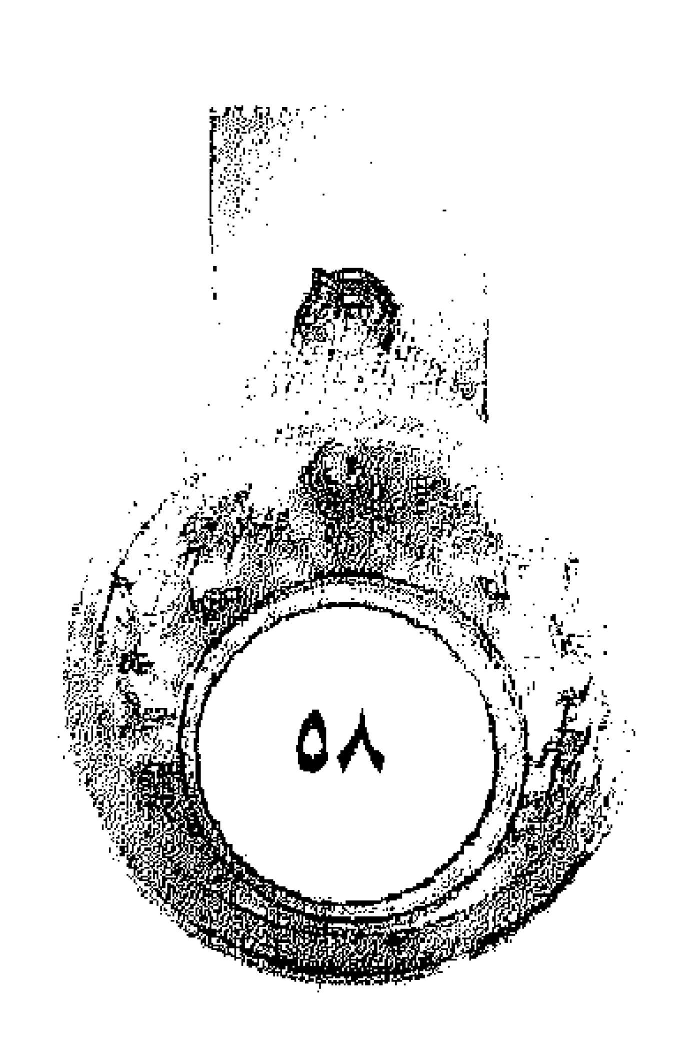
وهناك نقطة على جانب كبير من الأهمية توقف عندها المؤرخون القدامى منهم والمحدثون، نعنى إقدام الكامل على الاستنجاد بفردريك ليكون عونا له على أخيه المعظم، وتوقفنا المصادر المعاصرة لتلك الأحداث أن السلطان أقدم على ذلك «لشغل سر أخيه الملك المعظم»؛ ولم يكن الأخير فى حد ذاته قوة يمكن أن يستعصى استئصالها على الكامل، ولكن خطورة المعظم تمثلت فى أمرين، أولهما أنه حرص على أن يأخذ العهود والمواثيق على أخيه الملك الأشرف ليقفا معا ضد أخيهما سلطان مصر، وإن كان الأشرف قد «رجع عن جميع ما قرره مع أخيه المعظم إلا موافقته فيما طلب»، وثانيهما وأخطرهما هو استعداء جلال الدين السلطان الخوارزمى على أخيه الكامل، وتهديد الأشرف أيضا بهؤلاء الخوارزمية، وبلغ الأمر بالمعظم أن حرضهم على حصار أخلاط حاضرة الملك الأشرف، يقول ابن العديم: «وكاتب الملك المعظم خوارزمشاه وأطمعه فى بلاد أخيه



الأشرف»! ويبرر لمعظم هذا الذى أقدم عليه بأنه قد فقد الثقة فى قدرة الخليفة العباسى على حسم الخلاف القائم بينه وبين أخويه، بعد أن أمسى الخليفة عاجزا حتى عن حماية نفسه مما يحيطون بعرشه.

ويقرن المؤرخون بين استنجاد المعظم بخوارزمشاه، واستدعاء الكامل لفردريك لنجدته، ولا يجدون فارقا كبيرا بين الفعلين، وإن كان نصيب سلطان مصر من اللوم أكثر لاستعانته بقوة غير إسلامية تناصب المسلمين العداء، وتحتل جزءا من بلادهم على سواحل الشام، ولكن الأمور لم تكن على هذا النحو من البساطة؛ ذلك أن الخوارزمية كانوا أشد خطرا وأبعد أثرا، فجلال الدين كان رجلا شديد الطموح، واسع الأطماع متهورا، بلغت به طموحاته إلى حد فكرة إقامة دولة إسلامية كبيرة تحت سلطانه، تضم هذه الكيانات الإسلامية الموجودة فى الشام والجزيرة وفارس، وجاء ذلك فى وقت كانت فيه جحافل المغول تتأهب لاكتساح هذا العالم الإسلامى والسيادة عليه، وبدلا من أن يأتلف جلال الدين خوارزمشاه حكام هذه الكيانات، ويضم صفوفه إلى صف الخليفة العباسى، راح يعتدى على أراضى الدولة العباسية، ليضعف بعضهم بعضا مما سهل على المغول القضاء عليهما معا فيما بعد، ولم تغب حقيقة الأطماع الخوارزمية هذه عن فطنة الكامل وذكاء المؤرخ المعاصر ابن واصل الذى أخبرنا أنه «لما علم الملك الكامل انتماء أخيه المعظم إلى سلطان العجم جلال الدين خوارزمشاه، خاف أن يكون اتفاقهما سببا لزوال الدولة، فأرسل الأمير فخر الدين يوسف إلى الإمبراطور فردريك»، وخاصة أن الكامل يعلم جيدا أطماع أخيه المعظم فى ملك مصر منذ وقت بعيد، وأنه كان يحسد الكامل على ملكها واستئثاره بها منذ أوصى له بها أبوه العادل.

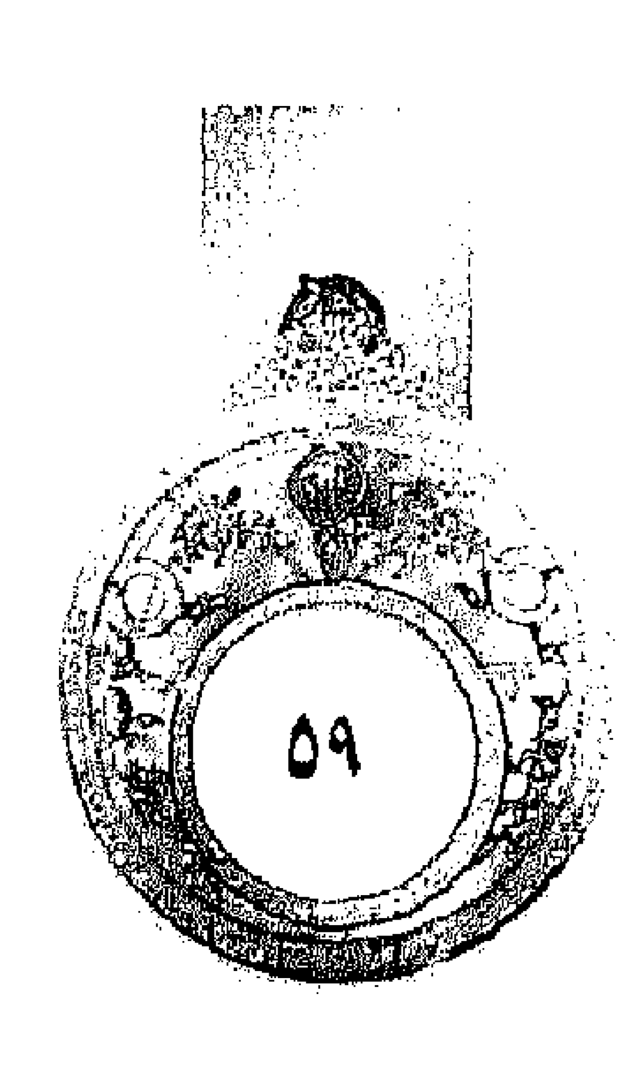
ولم يغب عن فطنة الكامل أيضا أن فردريك لم يكن كغيره من ملوك أوروبا الذين سبقوه وحملوا الصليب فى حملات عسكرية إلى الشرق، ولم تكن هذه المعرفة أمرا بعيد المنال فى عصر الأسرة الأيوبية الثانية التى ابتدئت بالعادل سيف الدين أبى بكر والد الكامل، والتى ارتبطت باتفاقيات للهدنة ومعاهدات تجارية مع القوى الصليبية، سواء فى ساحل بلاد الشام أو المدن التجارية الإيطالية، إلى الحد الذى دفع البابوية إلى أن تهدد هذه المدن وخاصة البندقية وجنوة بالقطع من شركة الكنيسة والحرمان من رحمتها. وكان أمرا طبيعيا أن ينقل التجار اللاتين أخبار ما يجرى فى أوروبا إلى الشرق، ولا بد أن تكون أخبار البابوية والإمبراطور وطبائع هذا الأخير فى علاقاته هذه من بين تلك الأخبار التى وقف عليها الكامل الأيوبى، خاصة وقد ذكر لنا الرحالة بنيامين التطيلى أنه من بين ثمانية وعشرين مدينة تجارية كان لها تجارها فى الإسكندرية، كانت هناك صقلية ولمبارديا، ويعلق «هايد» على ذلك بقوله: «كان تجار صقلية يتمتعون خلال القرن الثانى عشر الميلادى بتخفيض فى التعريفات الجمركية فى ميناء الإسكندرية، وظلت الحركة التجارية بين



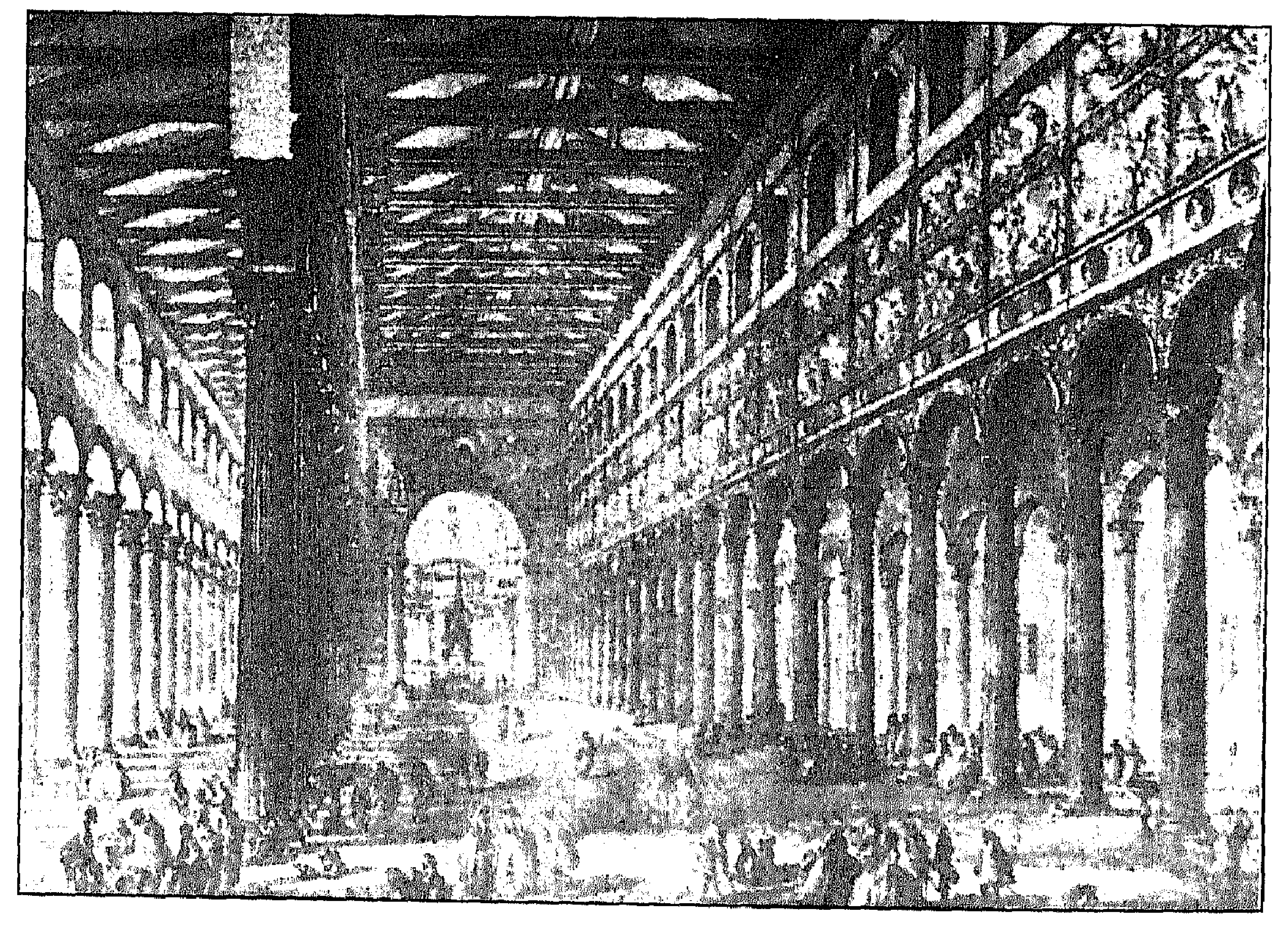
مصر وصقلية نشطة كالمعتـاد، واستمرت كذلك زمنا طويلا بعد زوال الأسرة النورمانية الحاكمـة»، أى بعد انتقال صقلية إلى سيادة أسـرة الهوهنشتاوفن، ولما كـان مـعـروفا عـن فردريك الـثانى اهـتمـامـه الكبـيـر بازدهار تجارة الإمبـراطورية، كان لا بد أن يعـمل على زيادة دور تجار صـقلية فى البـحر المتوسط، ونحن نقف على ذلك مما يرويه مؤرخنا المقريزى من أن الإمبراطور كان حريصـا منذ بدأت مراحل المفاوضـات مع الكامل على أن يحصل على الإعفاء الكامل لـرعاياه من التجار فى ميناءى الإسكـندرية ودمياط، وإن لم يستطع أن يحقق فى هذا الجانب نفس القدر من النجاح الذى حققه على المستوى السياسى.

ومن مراجعة تواريخ هذه الوقـائع تتضح لنا حقيقة هامة عن طبيـعة الاتصالات التى جرت بين الكامل وفردريك قبل قدومه إلى الشرق، فالمعظم كاتب جلال الدين خوارزمشاه سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٢٥م، والكامل أرسل سفارته التى رأسها الأمير فـخر الدين ابن شيخ الشيوخ إلى فردريك فى عام ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م، ومن عبـارة أوردها ابن واصل نعرف متى كان خروج هذه السـفارة ومتى كان وصولهـا إلى صقلية، يقول مـؤرخنا: «وكان مسير الأمـير فخر الدين ابن شـيخ الشيوخ إلى الإمبـراطور من جهـة السلطان الكامل، فى آخر أيام الملك المعظم»، ولما كـان المعظم قد مات فى ذى القعـدة من سنة ٦٢٤هـ أو ما يوافق الحادى عشر من نوفمبر ١٢٢٧م، فلا بد أن يكون فخـر الدين قد أتى صـقلية فى أخـريـات هذا العـــام أو أوائل ٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م. بمعنى آخر، أن رسول الكامل قدم على الإمبراطور بعد أن كـان قد صدر ضده قـرار الحـرمـان الكنسـى من جـانب البـابا جريجورى التـاسع، والذي جرى فى أواخر سبـتمبـر أو أوائل أكتـوبر ١٢٢٧م ثم جدد ثانية فى كنيـسة القديس بطرس فى نوفـمبر من العام نفسه.

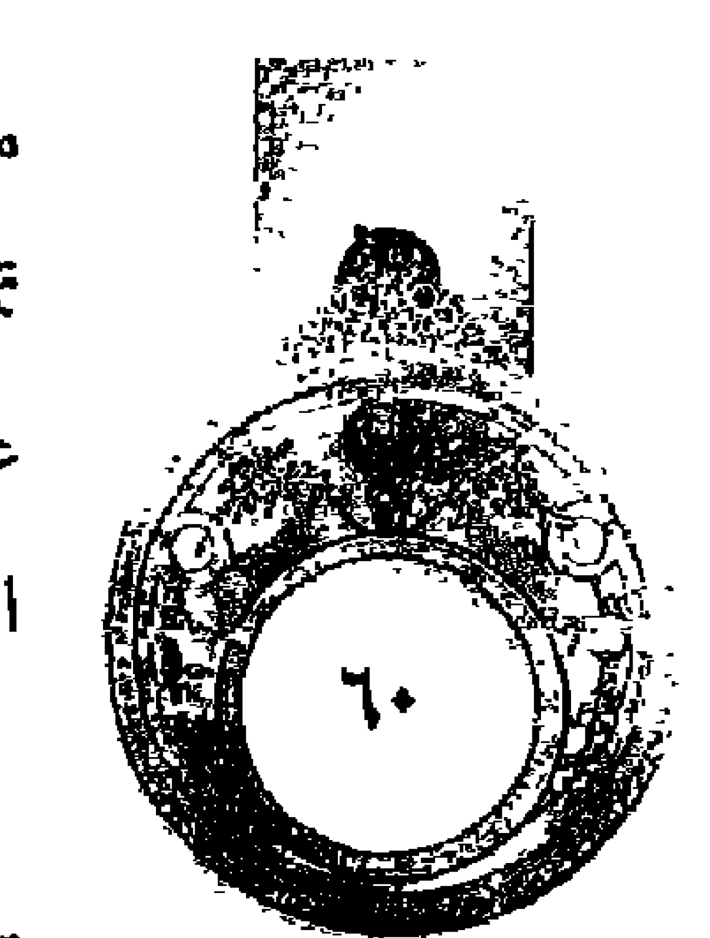
رسم من مقامات الحريرى للواسطى - العصر الأيوبى سنة ١٢٣٧م



ومبلغ الدلالة فى هذه التـواريخ التى جئنا على ذكـرها، أننا لو أخذنا عبارة ابن واصل الأخيـرة «فى آخر (وليس أواخر) أيام الملك المعظم» كان هذا يعنى أن تكون هذه السفارة قد خرجت من القاهرة فى طريقها إلى صقلية فى أواخر شهر أكتوبر سنة ١٢٢٧م على أكـثر تقدير، وهذا يعنى أن أنباء حرمان الإمبـراطور من رحمة الكنيـسة قد قدمت إلى مـصر مع التجـار القادمين من صقلـية أو المدن التـجارية الإيطاليـة، وأن الملك الكامل كان على علم بـها، وبالتالى على دراية تامـة بأن القوات التى كان يجرى حشـدها للخروج باتجاه الشرق حاملة الصليب تحت قيادة فردريك الثانى، قد تفرقت أيدى سبأ بفعل الطاعون والعواصف، فإذا أضفنا إلى ذلك ما كـان الكامل يعلمه جيدا من قبل متمثـلا فى أن فردريك الثانى ملك ألمانيا وصقليـة، قبل أن يتوج إمـبراطورا، لم ينفذ مـا كان من المفتـرض أن يتولاه، وهو قيـادة الحملة الصليبية الخـامسة التى تقررت فى مجمع اللاتيـران الرابع عام ١٢١٥م، وقادها بدلا منه چان دى بريين، ولم يخرج على رأس النجدة الألمانية التى قدمت لمعاونة جنود الحـملة الصليبية الخامسة فى دمياط، بعد أن توج إمـبراطورا عام ١٢٢٠م وتعهد بحمل الصليـب من جديد، وكان وصول هذا المدد سنة ١٢٢١م بعد هزيمة الحملة وجـلائها عن مصر، نقول: إذا أضـفنا هذا إلى دلالة ما تقدم



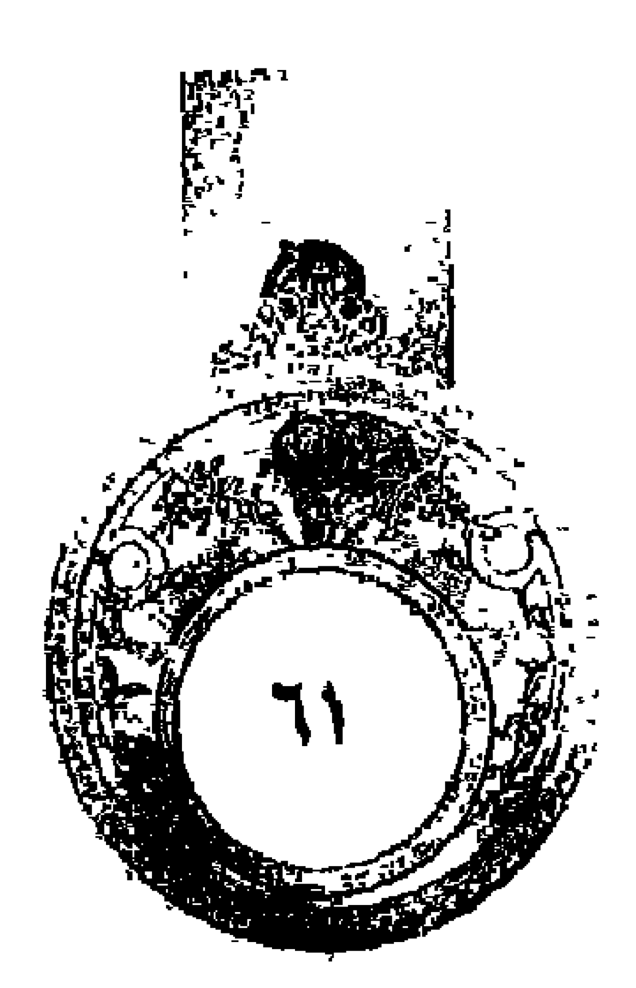
كنيسة القديس بطرس القديمة



من تواريخ تحركات الكامل، أدركنا للوهلة الأولى أن سلطان مصر كان يوقن تماما أنه يتعامل مع ملك يتفق معه فى صفات كثيرة جمعت بينهما، ويختلف عن كثير بل عن كل ملوك أوروبا الذين قدموا فى حملات صليبية إلى الشرق، تحمل روح العداء، وتصطبغ بصبغة التعصب المقيت.

نحن إذن أمام رجلين عرف كل منهما للآخر قدره، وخبر طرائق تفكيره، ووقف على مدى ثقافته وكيفية معالجته للأمور، واطلع على مكنون عقله وخبيء نفسه، وأحاط خُبرا بالظروف السياسية والعسكرية التى يحياها كل فى دولته، وقد حدث هذا كله قبل أن يلتقيا من بعيد على أرض الشام، وإن لم يتقابلا شخصيا على الإطلاق، وغدا كل من العاهلين حريصا على أن يتعامل مع الآخر فى إطار من العلاقات الإنسانية والمجاملات الدبلوماسية، بعيدا عن قعقعة السلاح وغبار المعارك فى ساحة الوغى، وترفعا بسمات جُبل عليها كلاهما، وخلال ربّت معهما، عن دنيا التعصب البغيض التى كان يحياها عالمهما؛ فالإمبراطور فردريك يسأل السلطان الملك الكامل «أن ينعم عليه بقبضة البلد والزيارة فيكون صدقة منه» يعنى بذلك بيت المقدس، ويعلن أنه ليس إلا «مملوك السلطان وعتيقه، وليس له عما يأمر به خروج»، من أجل تحقيق هذا الأمر، ومهما قيل عن صيغة المبالغة فى هذه العبارات، إلا أنها تمثل نوعا من الدبلوماسية كان معروفا لدى كل العاملين فى السلك السياسى إلى زماننا هذا، فى سبيل تحقيق مكاسب سريعة وإن كانت وقتية. والملك الكامل بدوره لا يبادل هذا بالتعنت والصلف، بل بالمهادنة عن قدرة وليس من ضعف، فهو الآن فى المركز الأقوى، وبمنطق العفو عند المقدرة فى الخلق الإسلامى الذى نشأ عليه الكامل، كما أشرنا فى صدر هذا البحث، ومن منطلق الخط السياسى الواضح الذى سارت عليه الدولة الأيوبية الثانية، العادل وبنوه، واتساقا مع ما أرساه مؤسس الأسرة، الناصر صلاح الدين، من التسامح والسمو الخلقى، وافق الكامل على أن «ينعم» على فردريك لا بـ«القدس» كله، بل بأجزاء منه، وبالشروط التى وضعها الملك الأيوبى.

ولما قامت الدنيا ضد الكامل ولم تقعد، لمصالح سياسية بحتة عند الناصر داود بن المعظم عيسى، ولأهداف خاصة عند بعض ثان، ولمشاعر دينية عامة عند المسلمين، لما عُد «تفريطا» فى حق المسلمين آنذاك، وكان فردريك لا يزال موجودا فى بلاد الشام، استشعر الرجل الحرج الذى أحاط بالكامل من جراء ذلك، وعدّ نفسه مسئولا عما حدث لقرينه، ومن ثم لم يتردد فى أن يقدم للممثل الشخصى للملك، الأمير فخر الدين اعتذارا رقيقا علّ ذلك يشفع للإمبراطور ويخفف عن السلطان وجاءت عباراته أيضا دبلوماسية راقية، قال: «لولا أنى أخاف انكسار جاهى عند الفرنج، لما كلفت السلطان شيئا من ذلك، ومالى غرض فى القدس ولا غيره، وإنما قصدت حفظ ناموسى عندهم». ويرتفع الكامل فوق غضبه الذى تملكه بعد أن «قامت القيامة» عليه من الناس، واشتدت



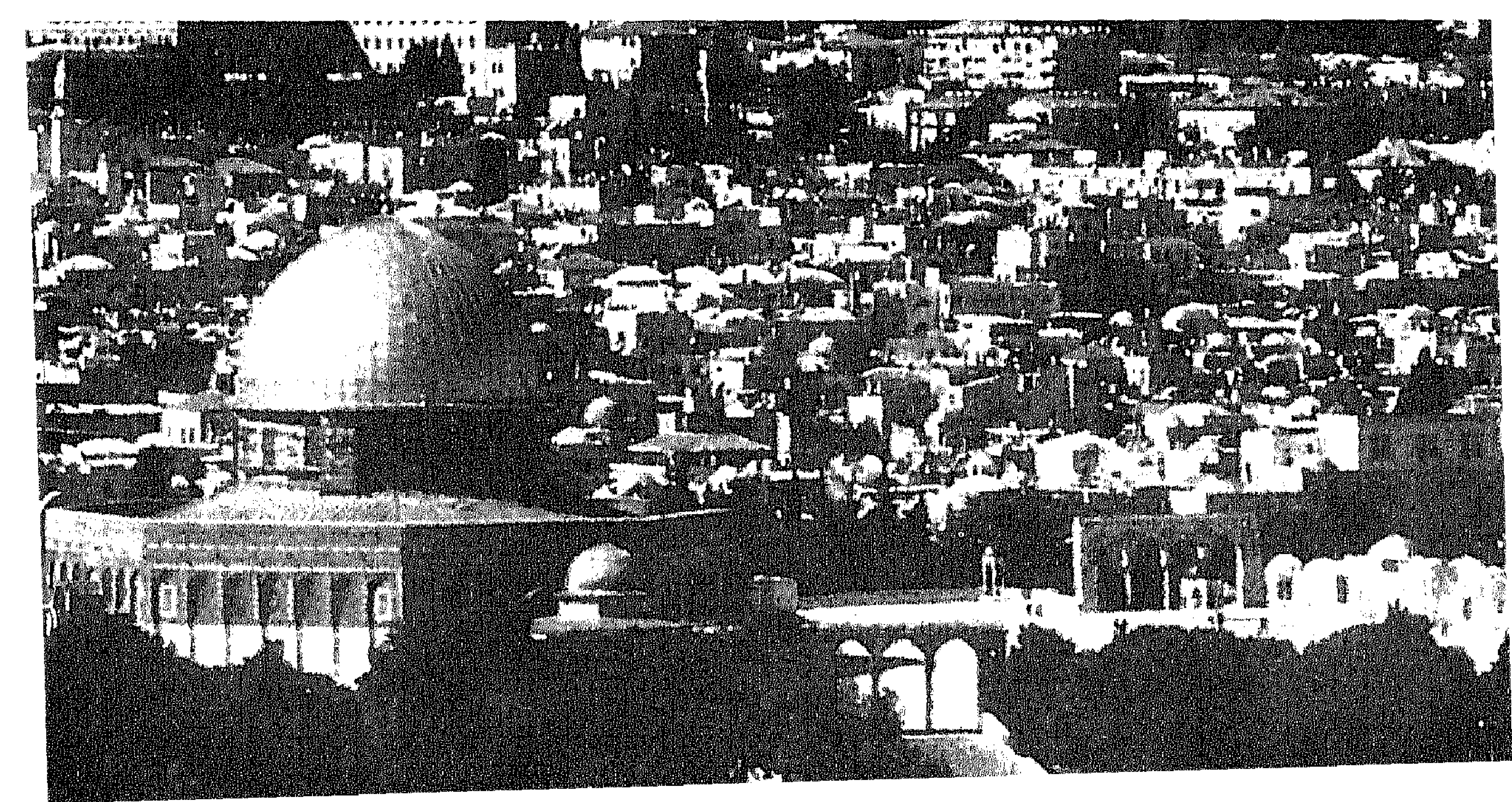
العظائم بحيث أقيمت المآتم، حسب تعبير سبط ابن الجوزى، وكثرت عليه الشناعات، على حد قول المقريزى، ويبين للمسلمين جميعا أن المسألة لا يمكن أن تعد «تفريطا» فى قضيتهم أو «قدسهم»، فليس ذلك من شيمة ملوك هذه الدولة الأيوبية، وهم الذين تصدوا للصليبيين فى الشام ومصر، وأنها لا تعدو أن تكون «إرضاء» لإمبراطور ليس له فى الحرب الصليبية الدائرة فى الشرق ناقة ولا جمل ـ كما جرى على لسانه ـ «ومالى غرض فى القدس ولا غيره»، وأن هذا «الإرضاء» جاء من موقف القدرة وليس عن ضعف، وأن زمام المبادأة بيد الكامل، إذا شاء استرده حين يريد، قال الكامل: «إنا لم نسمح لهم إلا بكنائس وآدر خراب، والحرم وما فيه من الصخرة المقدسة وسائر المزارات بأيدى المسلمين على حاله، وشعار الإسلام قائم على ما كان عليه، ووالى المسلمين متحكم فى رساتيقه وأعماله». ولابن واصل تعليق رائع على ما حدث يقول: «إنما عظم على المسلمين ذلك، وحزنوا لخروج القدس من أيديهم، وأنكروا على الملك الكامل هذا الفعل واسشنعوه منه؛ لأنه فتح هذا البلد الشريف واستنقاذه من أيدى الكفار من أعظم مآثر عمه الناصر صلاح الدين ـ قدس الله روحه ـ (ونضيف. . . للارتباط الدينى العميق لدى المسلمين بمدينة القدس باعتبارها ثالث الحرمين الشريفين) ـ لكن علم الملك الكامل رحمه الله ـ أن الفرنج لا يمكنهم الامتناع عن القدس مع خراب أسواره، وأنه إذا قضى غرضه واستتبت له الأمور، كان متمكنا من تطهيره من الفرنج وإخراجهم منه». ويقول الحنبلى: «ورأى الكامل أن يرضيهم بذلك ويهادنهم مدة، وهو قادر على ارتجاعها متى شاء».

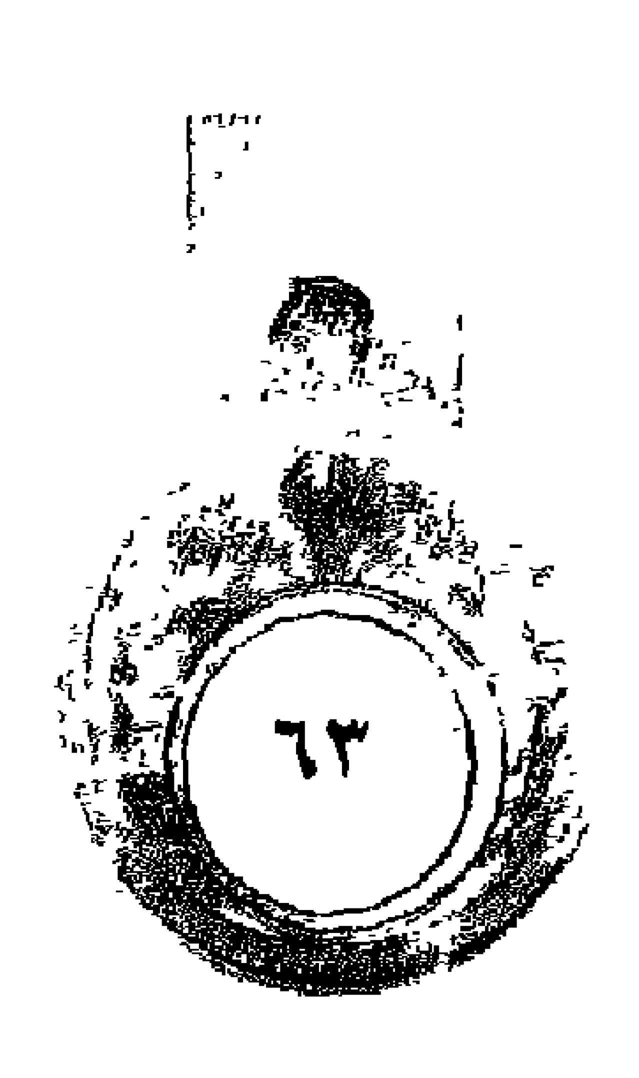
ومن الأهمية بمكان أن نذكر هنا أن الكامل لم يكن مبتدعا فيما أقدم عليه، بل سبقه إلى ذلك عمه السلطان الناصر صلاح الدين، ذلك أن صلاح الدين قبل بمقتضى صلح الرملة الذى وقع فى عام ١١٩٢م مع ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا، أن يتنازل للصليبيين عن الساحل كله الذى كان ضمن مملكة بيت المقدس الصليبية، وكان قد فتحه كله باستثناء صور، ولم يحدث له ما حدث لابن أخيه من بعد، من قيام الشناعات عليه فى كل مكان؛ ذلك لأن القدس بقيت فى حوزة المسلمين ولم تذهب ضمن ما ذهب، المسألة إذن فى جوهرها تتعلق بـ«الموضع» أو «المكان» وليس بمبدأ المفاوضات فى حد ذاته، وهذا الأمر الأخير يضيف أبعادا جديدة إلى مكانة الدولة الأيوبية فى التاريخ، باعتبارها دولة حملت راية الجهاد بيد، وراية السلام بالأخرى، فقد تحملت طيلة عمرها البالغ ثمانين عاما (١١٧١ ـ ١٢٥٠م) كل مقومات الحرب ضد الصليبيين هجوما ودفاعا، ولم تتردد فى قبول المفاوضات وصولا إلى سلام، وحفاظا على قلب المنطقة، أعنى مصر، فى المقام الأول، ومن ثم قدمت بذلك أنموذجا يحتذى فى عصر طفح بالتعصب المقيت.

وكان الكامل يعرف هذه الحقائق كلها لا تغيب عن ذهنه، ولا يبغى عنها حولا فى سياسته، وتدلنا رسالة بعث بها الملك الجواد أحد ملوك بنى أيوب إلى فردريك الثانى ردا على رسالته، أن الصداقة كانت قائمة بين السلطان والإمبراطور، وأن كليهما كما ذكرنا يعرف لكل قدره ومكانته، وأن دولتيهما تجمع بينهما سمات من سعة الثقافة واستنارة الفكر على غير عادة زمانهما، جاء فى الرسالة: «. . . وأنفس أسباب المودة والحصافة، وشدّد أواخى الإخلاص والموافاة، فاستبشرت النفوس بوفوده (أى الكتاب) ووقف منه على الإحسان الذى نعرفه، ووجد عقده مشتملا على جواهر الوداد الذى نألفه، فشكر الله على هذه الألفة المنتظمة، والمحبة الصادقة المكرمة. . . فأما ما ذكره المقام العالى السلطانى الملكى الكاملى الناصرى ـ زاده الله شرفا وعلوا ـ من أنه لا فرق بين المملكتين، فهذا هو المعتقد فى صدق عهده وخالص وده».

ومن رسالة بعث بها الإمبراطور فردريك إلى الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ، وهو نازل مع السلطان الملك الكامل فى حرّان سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩ ـ ١٢٣٠م وقدمت مع رسول بعث به الإمبراطور إلى السلطان، ندرك إلى أى مدى توطدت العلاقة بين فردريك والكامل وفخر الدين، يقول الإمبراطور بعد الديباجة الخاصة بألقابه: «لو ذهبت إلى وصف ما نجده من عظيم الشوق، وما نكابده من أليم الاستيحاش والتوق، إلى المجلس السامى الفخرى أدام الله أيامه

صورة لمسجد قبة الصخرة - القدس

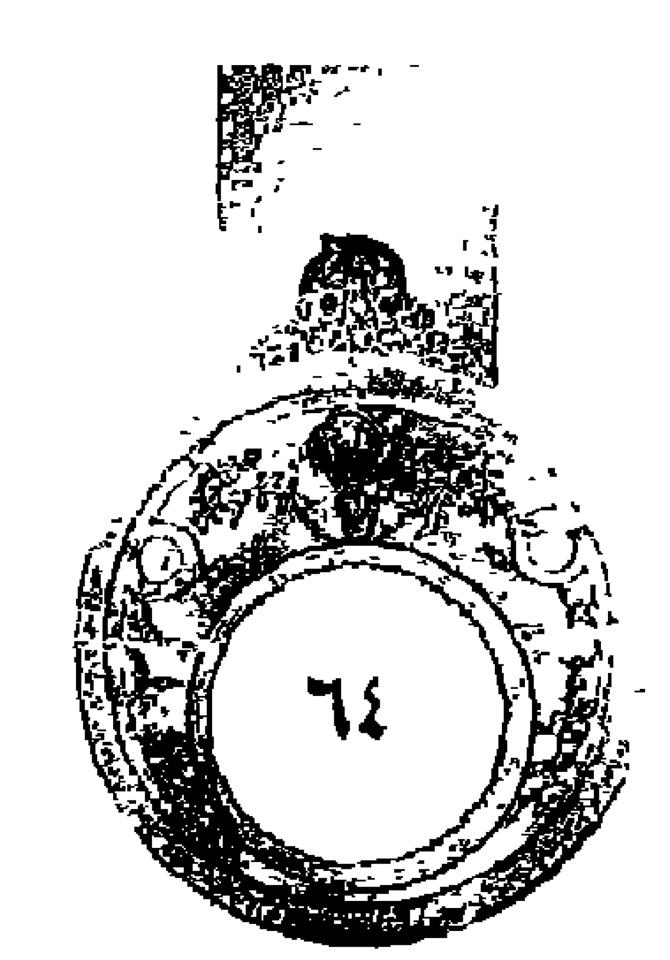




وسرمد أعوامه، وثبت فى الرياسة أقدامه، وحرس مودته وإكرامه، وأجرى على سبيل النجاح مرامه (. . . أمنيات طيبة كثيرة) للزمنا فى الخطاب شططا. . . إذ مننا بروعة استيحاش بعد سكون وإيناس، ولوعة فراق، فى إثر غبطة واشتياق. . . وبعد، فعلمنا أنه محب لسماع السار من أنبائنا وأخبارنا، والحميد من آثارنا، نشعره حسبما شرحناه له بصيدا أن البابا ـ باء بالغدر والخديعة ـ أخذ إحدى قلاعنا»، وتمضى الرسالة بعد ذلك تحدث عن الأعمال التى قام بها البابا جريجورى التاسع منتهزا فرصة وجود فردريك الثانى بالشرق، من الاعتداء على ممتلكات الإمبراطورية فى جنوب إيطاليا وصقلية، وما قام به الإمبراطور فور عودته من الشرق ونزوله فى برنديزى جنوبى إيطاليا، والرسالة على هذا النحو دليل عملى على مدى احترام الإمبراطور للسلطان واعتزازه بصداقته، إلى حد اطلاعه وممثله الشخصى فخر الدين، على أحوال الإمبراطورية الداخلية، وكيف تطورت العلاقة من سيئ إلى أسوأ بين فردريك وجريجورى، ولم يكن ذلك ليحدث لو لم يكن الإمبراطور يعلم أن الملك الكامل حريص على الوقوف على أخباره خاصة علاقته بالبابوية، وهذا واضح من قول فردريك «علمنا أنه محب لسماع السار من أنبائنا وأخبارنا»، وهذا هو ما ذكرناه آنفا عند حديثنا على تقارب الرجلين فكرا وثقافة.

ويختتم فردريك الرسالة بقوله: «وبعد. . . فمما نؤثر من المجلس (أى البلاط السلطانى) مواصلة كتبه متضمنة شرح أحواله ومهماته وحاجاته، وأن يقرى السلام على جميع أكابر العسكر وغلمانه ومماليكه»، وفى هذا بدوره إشارة واضحة إلى اهتمام الإمبراطور هو الآخر بالأحوال السياسية التى يحياها الملك الكامل.

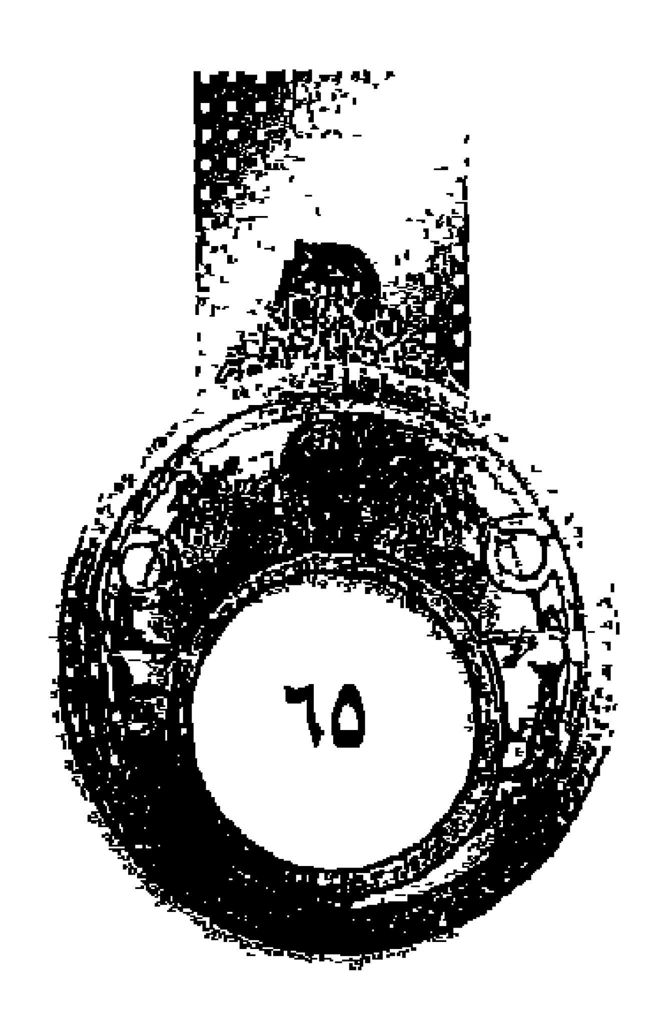
وقد أورد لنا ابن نظيف الحموى رسالة أخرى وردت من الإمبراطور، تجرى على المنوال نفسه، وتشرح بوضوح كل ما جرى بين فردريك وخصومه خاصة البابوية. ومنه أيضا نعلم أن الملك الكامل كتب إلى الإمبراطور رسالة حملها أحد المسلمين الذين قدموا على الكامل يخبره بما حل به وجماعات المسلمين هناك على أيدى قوات الإمبراطور. وقد استمرت هذه العلاقات الودية قائمة بين ملوك بنى أيوب من بعد الكامل وبين فردريك الثانى وبنيه، وظهر ذلك جليا فى قول ابن واصل: «ولما تقررت قواعد الهدنة بين السلطان الكامل والإمبراطور، أقلع الإمبراطور راجعا إلى بلاده، واستمر مصافيا للملك الكامل موادٍ له، والمراسلة بينهما متصلة، (وهذا ما دلت عليه الرسائل التى أوردناها توا)، إلى أن توفى الملك الكامل، وملك ولده العادل سيف الدين، فصافى الإمبراطور ووداه وراسله، ولما قُبض على الملك العادل وولى أخوه الملك الصالح نجم الدين أيوب، استمر الأمر على ذلك، وأرسل إليه الملك الصالح الشيخ العلامة سراج الدين الأرموى، قاضى



قونية من بلاد الروم، وأقام سراج الدين عنده مكرما مدة، وصنف له كتابا فى المنطق، وأحسن إليه الإمبراطور إحسانا كبيرا، وعاد سراج الدين إلى الملك الصالح مكرما».

وبلغت هذه العلاقات الودية ذروتها حين أرسل الإمبراطور فردريك رسالة إلى الملك الصالح يخبره فيها بأنباء الاستعدادات التى تجرى فى أوروبا على قدم وساق، تحت رعاية لويس التاسع ملك فرنسا، للخروج بحملة صليبية جديدة يقودها هذا الملك الفرنسى، هدفها الأساسى مصر، رأس الأفعى، وقد أخبرنا المقريزى عن هذا الأمر صراحة حين قال: «ونزل (الصالح) بقلعة دمشق فورد عليه رسول الإمبراطور ملك الفرنج الألمانية بجزيرة صقلية فى هيئة تاجر، وأخبره سرا بأن بواش (لويس) الذى يقال له روا د فرنس Roi de France عازم على المسير إلى أرض مصر وأخذها». ويعلق الدكتور سعيد عاشور على ذلك بقوله: «وكان من المفروض أن الإمبراطور فردريك الثانى، وهو صاحب المصالح الكبيرة فى بلاد الشام بوصفه والد كونراد الوريث الشرعى لمملكة بيت المقدس، (وهو ابنه من يولاندا) يؤيد لويس التاسع فى حملته وجهوده لاستعادة أملاك الصليبيين المفقودة، ولكن فردريك على العكس من ذلك لجأ إلى سلاح آخر فى الخفاء، فاتصل بالصالح أيوب سرا، وأرسل إليه سفارة يحيطه علما بتحرك الصليبيين ونواياهم. ونتساءل نحن.. ترى أليس هذا التصرف من جانب فردريك دليلا نضيفه إلى ما سبق أن قدمناه عن موقف الإمبراطور من الحروب الصليبية جملة وتفصيلا؟! وقد يحلو لبعض أن يقول: إن موقف فردريك هذا كان نابعا من خشيته ضياع سلطانه ـ حتى وإن كان نظريا ـ فى بلاد الشام على ما بقى من مملكة بيت المقدس، باعتباره وصيا على ابنه كونراد، إضافة إلى ما كان يربط بينه وبين الكامل، ولكن يمكن الرد على ذلك بأن الكامل قد مات وأصبح على العرش الآن ابنه الصالح، ومن ثم فليست العلاقات الفردريكية الكاملية مجرد علاقات شخصية، بل بنيت على فكر معين وحكمتها مبادئ وقيم تختلف عما كان سائدا آنذاك، إضافة إلى أن فردريك لم يكن يعنيه أطلال مملكة بيت المقدس بقدر ما كان يشغله تلك الحرب المستعرة بينه وبين البابوية التى وضعت هدفا لها لا تحيد عنه هو تحطيم أسرة الهوهنشتاوفن وزعيمها فردريك الثانى.

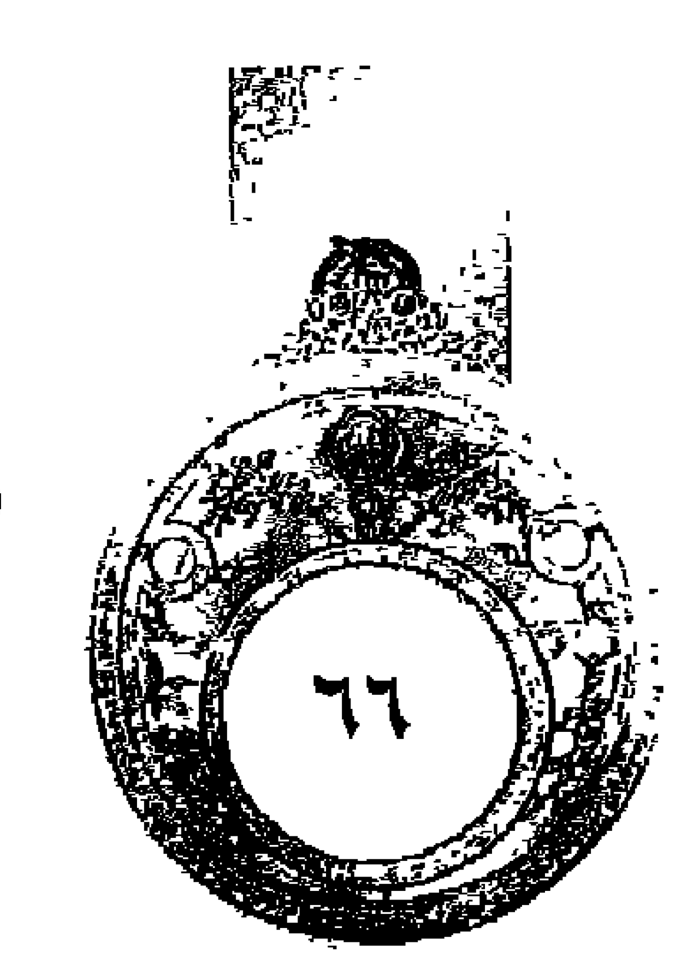
لم يأت فردريك الثانى إلى الشرق محاربا، بل جاء مفاوضا، وكيف لا ولم يصحبه إلا خمسمائة فارس فقط، قل عنهم إن شئت: إنهم حرس الإمبراطور الخاص، وقد كان يعلم علم اليقين أن الأمر الوحيد الذى يصون ممتلكاته فى الغرب هو أن يحقق نجاحا فى الشرق، وهذا ما



عبـر عنه الإمبـراطور بوضوح فى رسالتـه التى بعث بها إلى الـكامل بعد أن أخذت المفاوضـات تصل إلى طريق شبه مسدود، وخاصـة بعد أن مات الملك المعظم عيسى وتخلص الملك الكامل نسبيـا من بعض ما كان يؤرقه، وقد جاء فى هذه الرسالة على لســان فردريك «. . . وقد علم البابا والملوك باهـتمامى وطلوعى، فإن رجعت خايبا انكسرت حرمتى بينهم»، وما أسر به إلى صديقه الأميـر فخـر الدين ابن شـيخ الشيـوخ، وأسلفناه، «لولا أنى أخاف انكـسار جاهى عند الفرنج، وما كلفت السلطان شيئا من ذلك»، ومن المؤكد أن فردريك لم يفاوض الكامل وحـده، بل بعث برسائله إلى بعـض ملوك بنى أيوب بالشام، ومنـهم الملك المعظم نفسـه وإن لم يحقق منها نفعا.

ولم يكن أمام فردريك الثـانى إلا هذا الطريق سبيلا إلى تحـقيق نجاح معين من مجـيئه إلى الشرق، فـقد تفرقت الـسبل بالقوات التى كـان قد أعدها للخـروج عام ١٢٢٧م بسـبب الطاعون والبحر، والقوات الصليـبية الموجودة فى الشام لن تعمل مطلقا تحت لواء ملك مـحروم من رحمة الكنيسة، حتى لا تحل بها اللعنة هى الأخـرى، ناهيك بالطبع عن عدم اقتناع الإمبراطور بفكرة أو جدوى مثل هذه الحـرب الصليبية كما قـدمنا، وكان بمقدوره أن يقعد فى أوروبا ويسـتعطف البابا لرفع قرار الحرمان عنه، لكنه لم يفـعل شيئا من ذلك، فقد أصبحت الحـرب «الصليبية» الآن تدور فى أوروبا بينه وبين البابوية، وذلك حديث آخر!

والآن. . حان الوقت كى نغلق ملف هذه القضية؛ ذلك أن الاتفاقية التى وقعت بين الكامل وفردريك وعرفت باتفـاقية يافا ١٢٢٩م حملت فى جوهرها فـكرة جديدة آنذاك على الفكر السائد فى العصور الوسطى، وسبق بها الملكان زمانهما بكثير، وهى فكرة «التدويل» أعنى «تدويل» مدينة القدس، ولنعد إلى ما جاء فى هذه الاتفاقية لنرى ذلك المعنى واضحا فيها تماما، يقول ابن واصل: «. . . وآخر الأمر أنه تقـرر بينهما أن يسلم (الكامل) إليه (فردريك) القـدس على شريطة أن يبقى خرابـا، ولا يجدد سـوره، وأن لا يكون للفرنج شىء من ظاهره ألبـتة، بل يكون جـميع قـراياه للمسلمين، وللمسلـمين والٍ عليها يكون مقامه بالـبيرة، من عمل القدس من شمـاليه، وأن الحرم الشريف بما حواه من الصخرة المقدسة والمسجد الأقصى يكون بأيدى المسلمين، وشعار المسلمين فيه ظاهر، ولا يدخلهـا الفرنج إلا للزيارة فـقط، ويتولاه قـوّام من المسلمين، واستـثنى الفرنج قـرايا معدودة هى طريقهم إذا توجهوا من عكا إلى القـدس، تكون هذه القرايا بأيديهم خوفا أن يغتالهم أحد من المسلمين».



هكذا بقيت الأماكن المقدسة الإسلامية بأيدى المسلمين، وشعارهم فيها ظاهر، أى إقامة الصلوات كلها بها، ويشرف عليها «قوّام» من المسلمين، والأماكن المقدسة المسيحية بأيدى الصليبيين، تقام فيها طقوسهم وقداساتهم، وليس لأحد من هؤلاء أو أولئك أن يعتدى على حرمة وقداسة هاتيك المقدسات، وقد طبق الإمبراطور هذا الشرط بنصه حالة وجوده، والقصة التى أوردتها المصادر العربية كلها خير شاهد على ذلك، كما بقيت للمسلمين السيطرة على معظم القرى التابعة للقدس، وأعطى الصليبيون طريقا يصل بين أماكن عبادتهم فى القدس وبين عكا ويافا، ويشرف على القرى التى كانت فى حوزة المسلمين والٍ مقره فى «البيرة» شمالى القدس، وعلى هذا النحو يمكن القول ببساطة أن المدينة أصبح يشترك فى إدارتها المسلمون والصليبيون سواء، ولما كانت الأماكن المقدسة عند الطرفين، هى محور الاهتمام بالمدينة وجوهره، فقد تم الاتفاق على «تدويلها» كما اقترحنا منذ قليل، كانت القوتان العظميتان فى العالم آنذاك هما المسلمون واللاتين؛ لأن القسطنطينية نفسها كانت خاضعة آنذاك لسلطان العناصر اللاتينية.

ومن الجدير بالذكر أن شيئا من مثل هذا قد حدث من قبل على عهد الناصر صلاح الدين؛ ذلك أنه لما أيس ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا من استرداد القدس ثانية من يد صلاح الدين، بعد أن أمضى فى الشام عامين عقب فشل الحملة الصليبية الثالثة فى تحقيق هذا الهدف، ودخل فى معارك عديدة مع المسلمين، تناوب فيها الطرفان النصر والهزيمة، وأحس أنه لا طائل من بقائه فى الشرق بعيدا عن مملكته، اقترح على صلاح الدين أن يجدا وسيلة أخرى غير الحرب، وكتب إليه يقول: «إن المسلمين والفرنج قد هلكوا، وخربت البلاد، وتلفت الأموال والأرواح، وقد أخذ هذا الأمر حقه»، وطلب ريتشارد الدخول فى مفاوضات من أجل الصلح، «فنصطلح ونستريح من هذا التعب الدائم»، وقد تعثرت المفاوضات كثيرا بين المعسكرين بسبب إصرار كل منهما على موقفه من مسألة القدس.

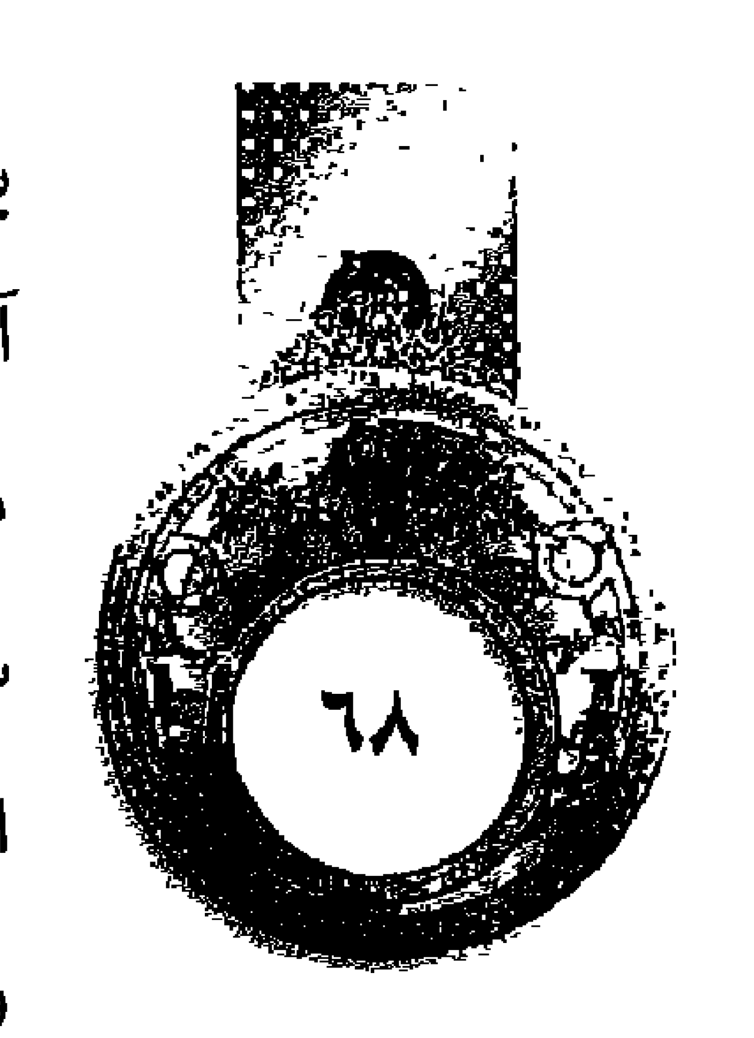
لكن الذى يعنينا هنا، أنه فى إحدى مراحل المفاوضات تقدم ريتشارد باقتراح فحواه أن يتم زفاف چوانا Joanna أخت ملك إنجلترا، «والعزيزة عليه كبيرة القدر» إلى الملك العادل سيف الدين، أخى صلاح الدين، وأن يشترك الاثنان، العادل وچوانا، فى حكم القدس والساحل. وكانت چوانا زوجة لوليم الثانى النورمانى ملك صقلية الذى توفى عام ١١٨٩م، ولم يعقب الزوجان وريثا، ومن ثم رأى ريتشارد أن يزوجها للعادل حلا لمشكلة القدس التى يصر كل من الطرفين على أحقيته بملكيتها.

وقد لقـى هذا الاقتراح قـبولا لدى الجـانب الإسلامى، «فـرأى الملك العادل ذلك مـصلحة وعين الصواب، وشاور السلطان فـوافقه فيـما أجاب، ونفذ رسوله إلى مـلك إنجلترا بالإجابة»، غير أن رفض هـذه الزيجة جاء من جانب رجال الكنيسة الذين أدخلوا فى روع «چوانا» أن هذا الأمر يعد خروجا عن العقـيدة وعصيـانا للمسيح ومخـالفة لتعاليـمه، ويقول أبو شامـة أنها لما سمـعت هذا، «رجعت عن ذلك ومـا أجابت»، وهذه العبـارة تعنى موافـقة چوانا هى الأخرى، وهى صـاحبة الأمـر فى ذلك، على هذه الزيجة فى البـداية وقبولـها للفكرة نفسها، لولا تدخل رجال الدين فى الأمر.

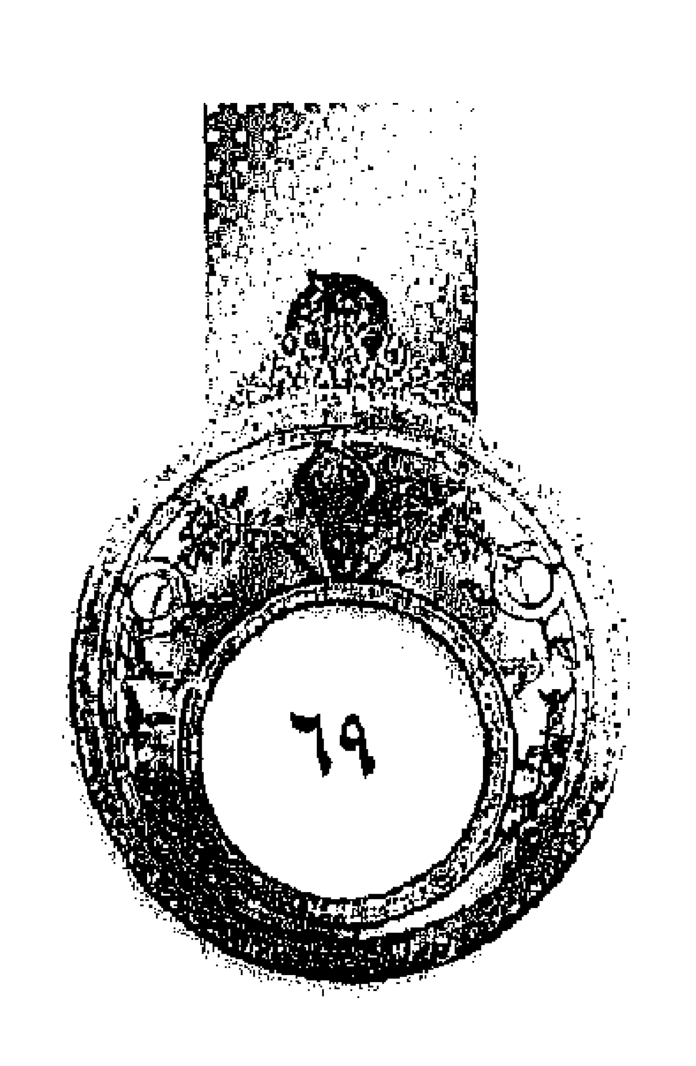
ورغم أن ابن شداد وأبا شـامة يقرران أن هذا العرض من جـانب ملك إنجلترا لـم يكن إلا، «خديعـة» أو مجرد «مكر وهزو»، إلا أنه لا ينفى أن ما يشـبه فكرة «التدويل» كانت حـاضرة فى أذهان كل من ريتشـارد الأول ملك إنجلترا، والسلطان الناصر صلاح الدين، والملـك العادل سيف الدين، وأن اشتـراك القوتين العظمـيتين فى حكم القـدس كان أمرا واردا، ومن ثـم لم يكن أمرا مستغربا أن يقدم كل من السلطان الكامل والإمبراطور فردريك الثانى على تطبيق هذه الفكرة عمليا بمقتضى اتفاقية يافا سنة ١٢٢٩م.

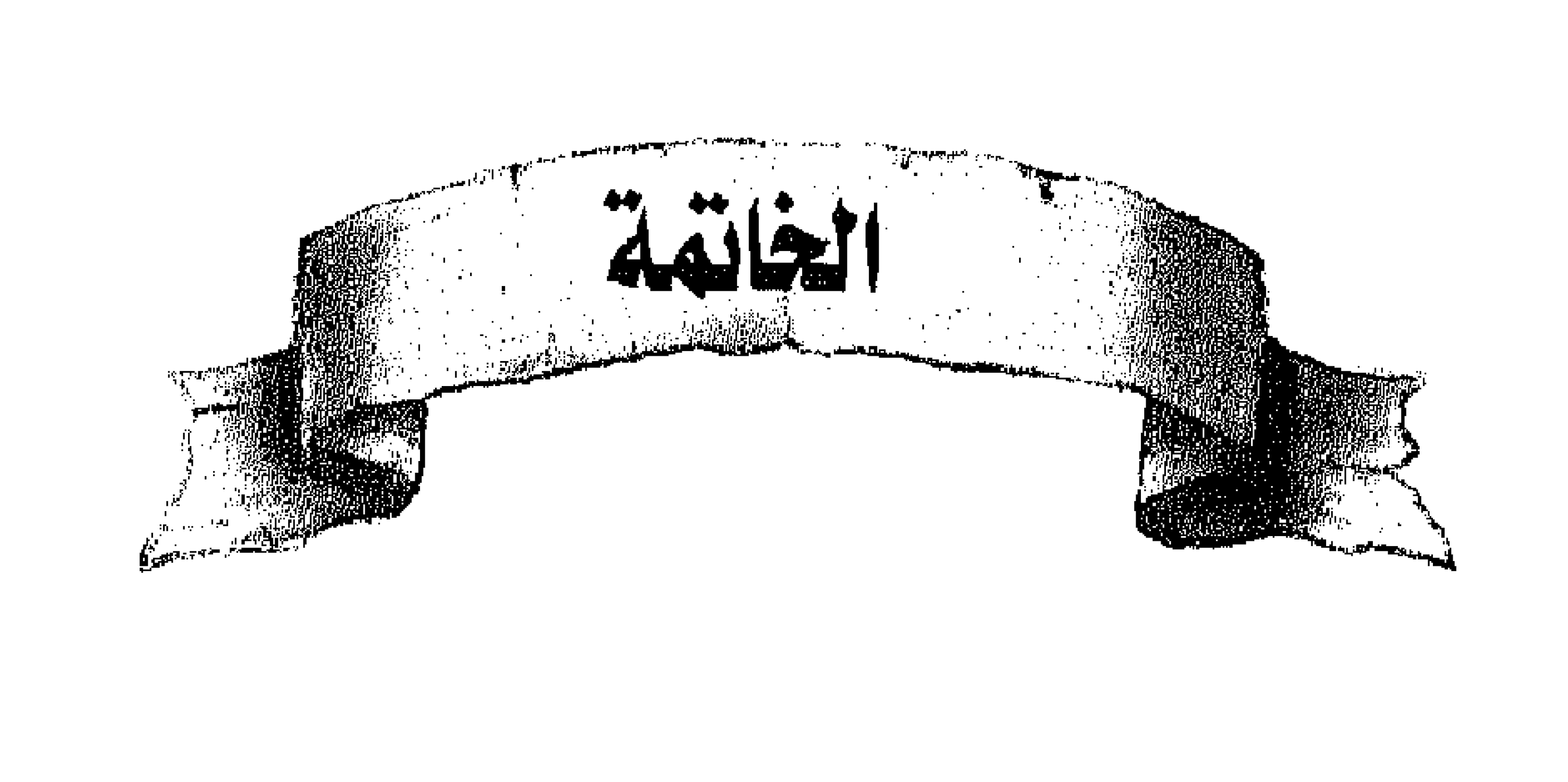
ومهما يـكن من أمر، فإن الملك الكامل كان ينظر إلى تسليم القدس أو إقـامة حكومة تضم العالمين الإسلامى والمسيحى لحكم المدينة المقدسة، على أنه مجرد إجراء مؤقت، وأن بمقدوره ـ كما قدمنا على لـسان المؤرخين المعاصـرين ـ «انتزاع ذلك من الصليـبيين متى شـاء». ولم يكن الكامل واهما فيمـا يعتقد، ولا كان المؤرخون المعـاصرون مبالغين فيما قـالوه، ولكن السلطان كان يعرف تماما أين يضع قدمه، وأن ما أقدم عليه لم يكن ليخرج مطلقا عن سيطرته، وقد تمثل ذلك بوضوح فيما أقدم عليه من وضع «الشوبك» تحت سلطانه، وكان واقعا ضمن سيادة الناصر داود ابن المعظم عيسى.

يقول ابن واصل: «ودخلت سنة خمس وعشرين وسـتمائة هجرية، والسلطان الملك الكامل مقـيم بالديار المصرية، والملك الناصر داود ابن الملـك المعظم مستول عـلى مملكة والده بين حمص وعريش مصـر، وورد إليه من جهة عـمه الكامل يطلب منه أن يسمح له من بلاده بقلعـة الشوبك فقط». وهذا الموقـف من الكامل يعيد إلى الأذهان ثـانية إصرار الكامل على الاحـتفـاظ بحصنى الكرك والشوبك أثناء عروضه التى تقدم بها إلى صليبيى الحملة الخامسة من قبل، باعتبارهما مفتاح بيت المقدس، وها هو الآن يعـيد الدور نفسه بعـد تأكده من قرب وصول الإمبـراطور إلى الشام.



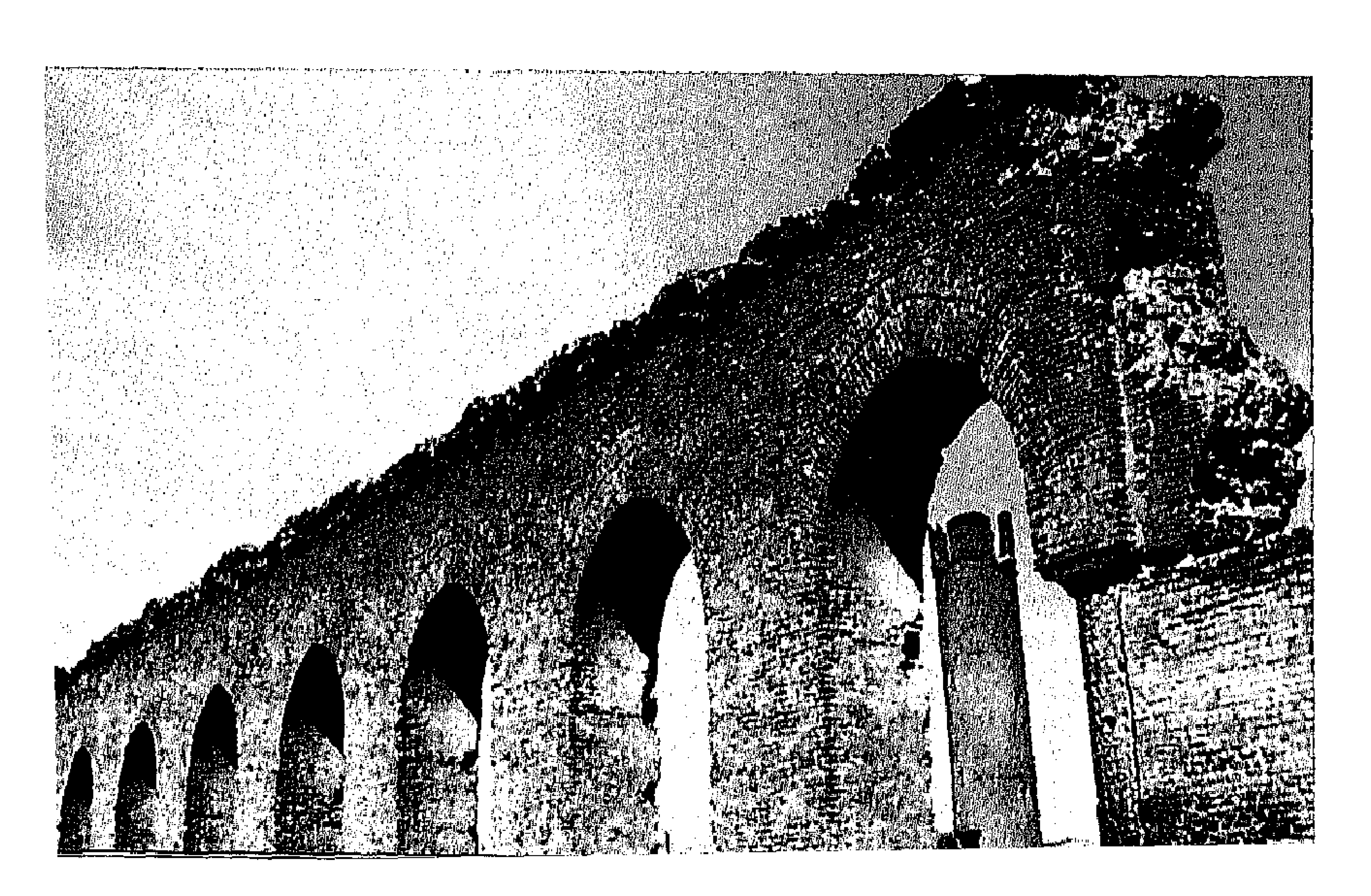
بتعبير أدق، أن الكامل رغم اتفاقه مع فردريك فى النظرة العامة للأمور آنذاك، إلا أنه كان يضع فى اعتباره جيدا أنه من الضورى بمكان أن تكون مفاتيح بيت المقدس، أعنى الحصون والقلاع المؤدية إليها، أو بواباتها، بيد سلطان مصر، وقد انتهى الأمر بالاتفاق بين الكامل والأشرف وابن أخيهما، الناصر داود، على أن تكون فلسطين للكامل، ودمشق للأشرف، وحران والرها والرقة وسروج للناصر، وهكذا ضمن الكامل السيادة العملية عسكريا على المناطق المطلة على المدينة المقدسة.



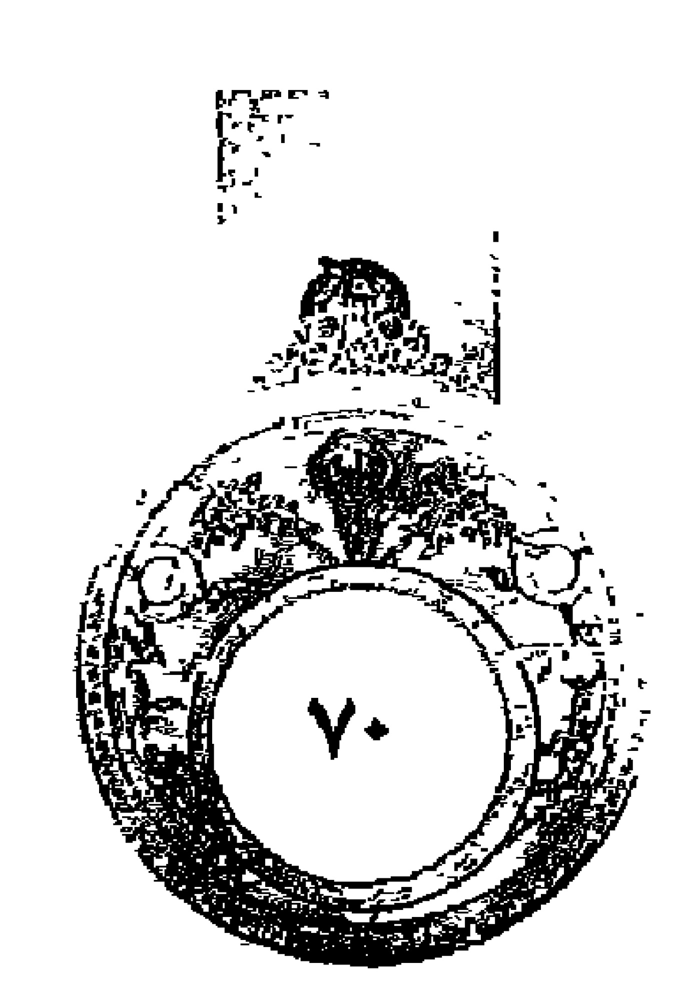


الخاتمة

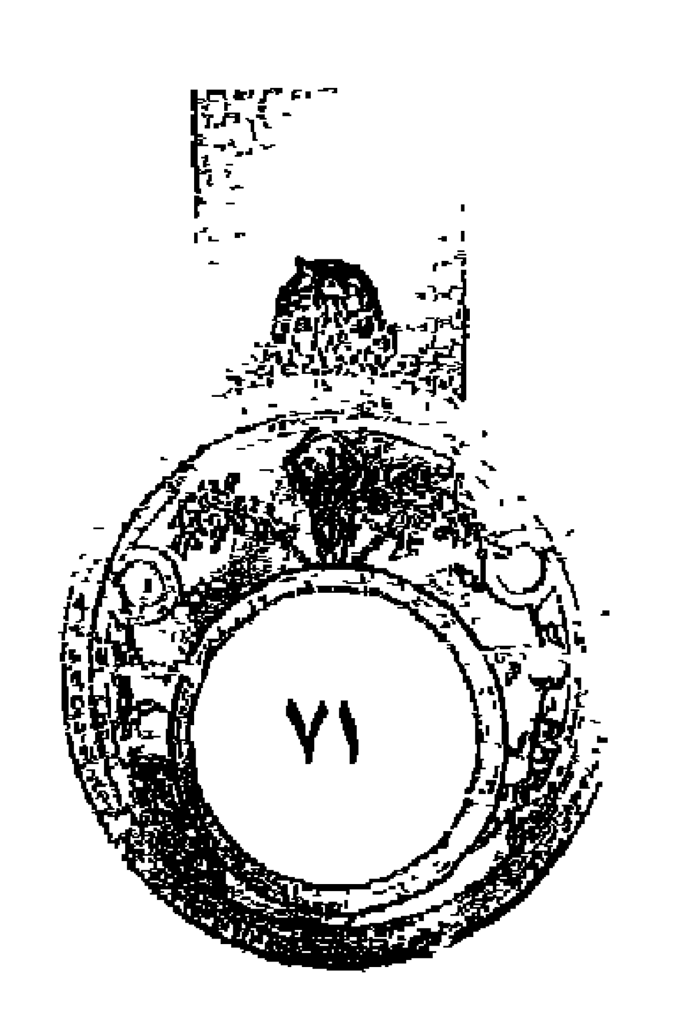
وبعد. . . فإنه من خلال هذا الاستعراض لعالم الملك الكامل ودنياه، وإعادة قراءة النصوص التى حوتها المصادر التاريخية المعاصرة لتلك الأحداث، ومحاولة سبر أغوار عقل الملك الكامل للوقوف على خصائص فكره وجوانب ثقافته وسعة وغزارة علمه، ودراسة شخصيته بصورة متكاملة، يتضح لنا أن السلطان كانت لديه سياسة واضحة المعالم، وضع قواعدها ضمن تقاليد الدولة الأيوبية عامة وعهدها الثانى «العادلى» خاصة، ورعى هذه القواعد وحفظها بدقة، وهى تقوم على أساس الحفاظ على «القلب» سليما مصونا بعيدا عن الخطر الذى يحدق به؛ لأنه ما دام «القلب» آمنا، أمنت الأطراف بالتالى حتى وإن لقيت العنت بعض حين، ومن ثم فلم تكن عروضه المتكررة لصليبيى الحملة الخامسة «إفراطا» عشوائيا فى طلب الصلح، بل كان مرحلة تكتيكية وقتية ضمن خطة إستراتيچية بعيدة المدى، وكذا كان الحال فى اتفاقية يافا مع الإمبراطور فردريك الثانى، إذ هو «قادر على استرداد القدس متى شاء»، ما دام «القلب»، أعنى «مصر» سليما معافى، وهذا ما أثبتته الأحداث التاريخية، فقد ذهبت القدس وعادت؛ لأن مصر بقيت آمنة، بل إن مصر هى التى استعادت من يد الصليبيين كل ما أخذوه غصبا فى نهاية القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى.



سور قصر الرقة ببغداد الذى بناه المنصور الخليفة العباسى وأعاد ترميمه نور الدين محمود الأيوبى



وقد اتضح لنا أيضا أن الكامل مع قرينه فردريك الثانى كانا يسبقان عصرهما عندما دعيا بدعوة التسامح والتسامى بعيدا عن التعصب المقيت الذى كان سمة الحروب الصليبية، وقد جمعت بينهما سعة ثقافة وغزارة علم واستنارة فكر، وكان الكامل يصدر أيضا فى موقفه إزاء فردريك، فى ظل هذه الخلفية الثقافية والفكرية كلها، عن الإستراتيچية التى وضعها منذ البداية، مصر أولا، حتى يمكن أن تبقى للأطراف حيويتها وحياتها، ولم يكن ما فعله الكامل مع فردريك «تفريطا» فى القضية كما تم «التشنيع» بذلك عليه، بل كان أيضا مرحلة تكتيكية ضمن خطة إستراتيچية لم يبغ عنها السلطان حولا؛ ولذا يظل الكامل كما قال عنه ابن واصل «أسوس إخوته جميعا. . . ملكا جليلا، حازما مهيبا، سديد الرأى، حسن التدبير لمملكته. . حليما ومع هذا الحلم العظيم، كان عظيم الهيبة»، وكما وصفه ابن خلكان وسبط بن الجوزى، «عظيم القدر جميل الذكر، محبا للعلماء، متمسكا بالسنة النبوية، حسن الاعتقاد، معاشرا لأرباب الفضائل، حازما فى أموره ولا يضع الشىء إلا فى موضعه من غير إسراف ولا إقتار»، «شجاعا ذكيا مهابا. . يثبت بين يدى العدو، ولما نزل الفرنج بدمياط ما أبقى قلما فى خزائنه وذخائره، أما عدله فإليه المنتهى، وفضله هو المشتهى».





أولا: المصادر العربية والمعربة:

١ .- ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن على الجزرى):

- الكامل فى التاريخ، اثنى عشر جزءا، القاهرة، ١٣٥٧هـ.

- التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية، تحقيق ونشر عـبد القادر أحمد طليمات، القاهرة ١٩٦٣م.

٢ - ابن أيبك الدوادارى (أبو بكر بن عبد الله):

كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء السـابع المعنون «الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، ١٩٧٢م.

٣ - ابن تغرى بردى (أبو المحاسن):

النجـوم الزاهرة فى ملوك مصـر والقاهرة، نسـخة مصـورة عن طبعـة دار الكتب المصرية فى اثنى عشر جزءا، القاهرة بدون تاريخ.

٤ - ابن شداد (القاضى بهاء الدين):

النوادر السلطانيـة والمحاسن اليـوسفـية، تحـقيق جـمال الدين الشـيال، القـاهرة، ١٩٦٤م.

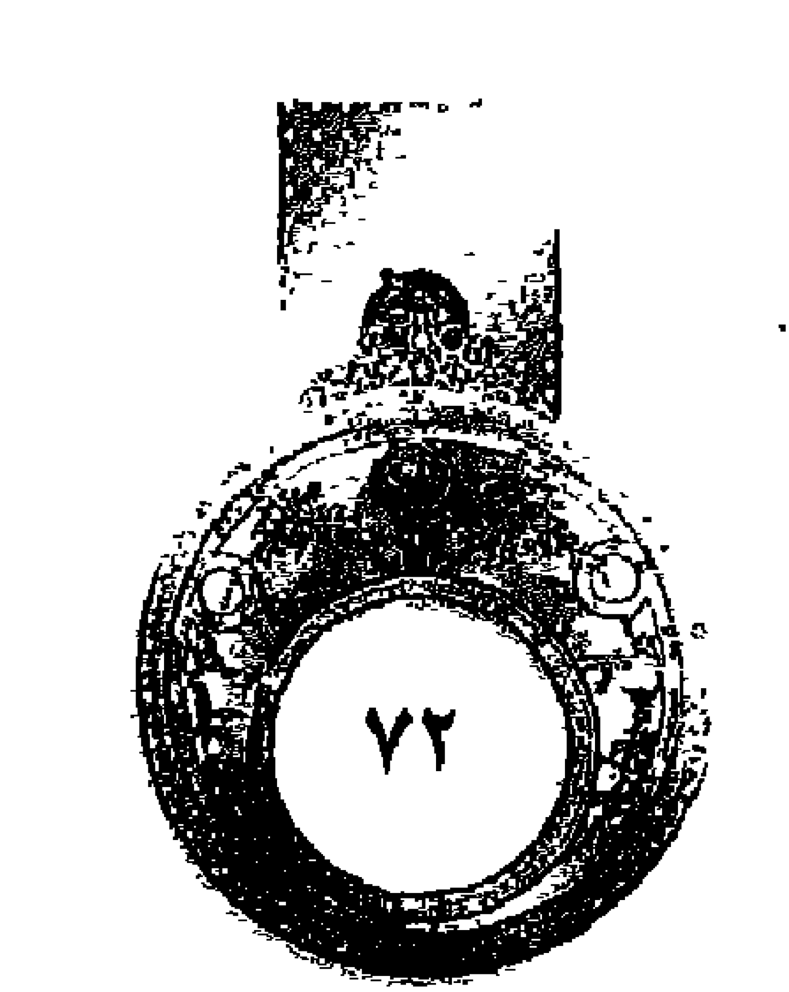
٥ - ابن العبرى (جريجوريس الملطى):

- تاريخ الزمان، بيروت، ١٩٩١م.

- تاريخ مختصر الدول، بيروت بدون تاريخ.

٦ - ابن العماد الحنبلى (أبو الفلاح عبد الحى):

شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، بيروت بدون تاريخ.



٧ - واصل (جمال الدين محمد بن سالم):

مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، الأجزاء الثلاثة الأولى، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة بدون تاريخ، الجزآن الرابع والخامس، تحقيق حسنين محمد ربيع، القاهرة ١٩٧٢، ١٩٧٧م، شذرات من الجزء السادس، تحقيق محمد مصطفى زيادة فى كتابه حملة لويس التاسع على مصر، القاهرة، ١٩٦١م.

٨ - شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل):

- كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين، جزآن فى مجلد واحد، بيروت بدون تاريخ.

- تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجريين، المعروف بـ«الذيل على الروضتين»، بيروت بدون تاريخ.

٩ - بطرس توديبود:

تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ترجمة حسين عطية، الإسكندرية، ١٩٩٢م.

١٠ - چوانفيل:

القديس لويس، حياته وحملاته على مصر والشام، ترجمة حسن حبشى، القاهرة، ١٩٨٦م.

١١ - فوشيه الشارترى:

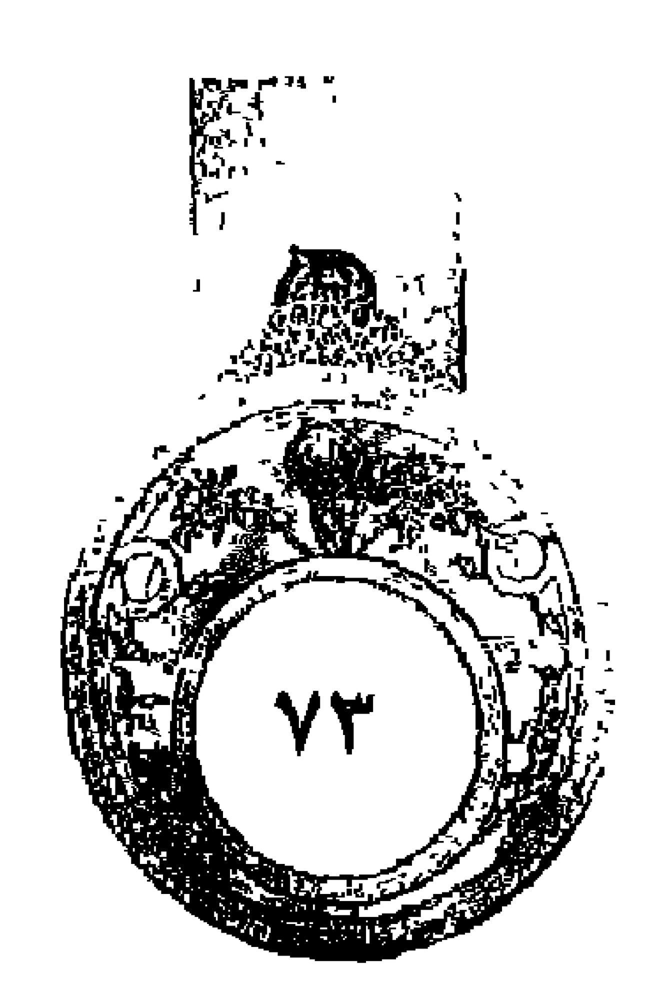
تاريخ الحملة إلى بيت المقدس، ترجمة قاسم عبده قاسم تحت عنوان «الوجود الصليبى فى الشرق العربى»، الكويت، ١٩٩٣م.

١٢ - فيلهاردوان:

من مذكرات فيلهاردوان، ترجمة حسن حبشى، جدة، ١٩٨٢م.

١٣ - مؤرخ مجهول:

أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة حسن حبشى، القاهرة، ١٩٥٨م.



١٤ - وليم الصورى:

أعمال الفرنجة فيما وراء البحار، نقله إلى العربية في أربعة أجزاء تحت عنوان «الحروب الصليبية»، حسن حبشى، القاهرة ١٩٩١ ـ ١٩٩٥م.

ثانيا: المراجع العربية والمعربة:

١ - إسحق عبيد، روما وبيزنطة، من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتينى لمدينة قسطنطين، القاهرة، ١٩٧٠م.

٢ - باركر (إرنست)، الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العرينى، القاهرة، ١٩٦٠م.

٣ - بينز (نورمان)، الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة حسين مؤنس، ومحمود زايد، القاهرة ١٩٥٧م.

٤ - چوزيف نسيم يوسف:

- العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى، القاهرة، ١٩٦٧م.
- العدوان الصليبى على مصر، حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة وفارسكور، الإسكندرية، ١٩٦٩م.

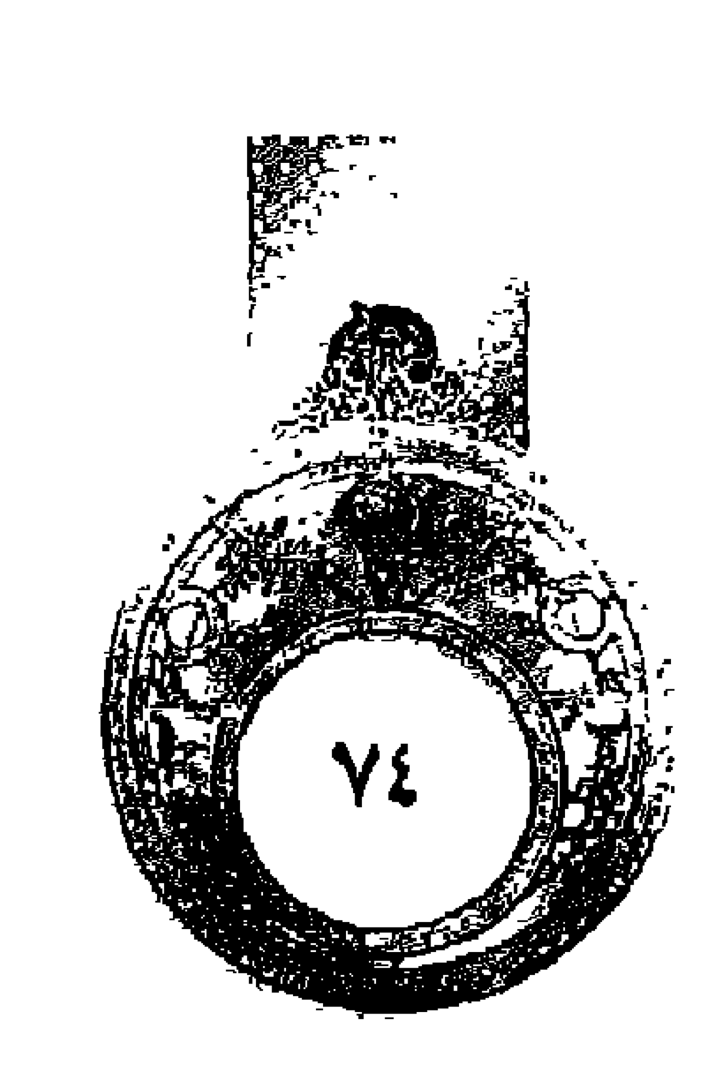
٥ - ديل (شارل)، البندقية جمهورية أرستقراطية، ترجمة أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة بدون تاريخ.

٦ - رأفت عبد الحميد، الدولة والكنيسة، أربعة أجزاء، القاهرة، ١٩٨٢ ـ ١٩٨٤م.

٧ - زابوروف (ميخائيل)، الصليبيون فى الشرق، موسكو، ١٩٨٦م.

٨ - سعيد عاشور:

- الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٥٩م.
- الإمبراطور فردريك الثانى والشرق العربى (المجلة التاريخية المصرية، المجلد الحادى عشر، سنة ١٩٦٣م).
- الحركة الصليبية، جزآن، القاهرة ١٩٨٣م.



٩ - السـيد البـاز العـرينى، الشرق الأوسط والحـروب الصليـبيـة، القاهرة، ١٩٦٣م.

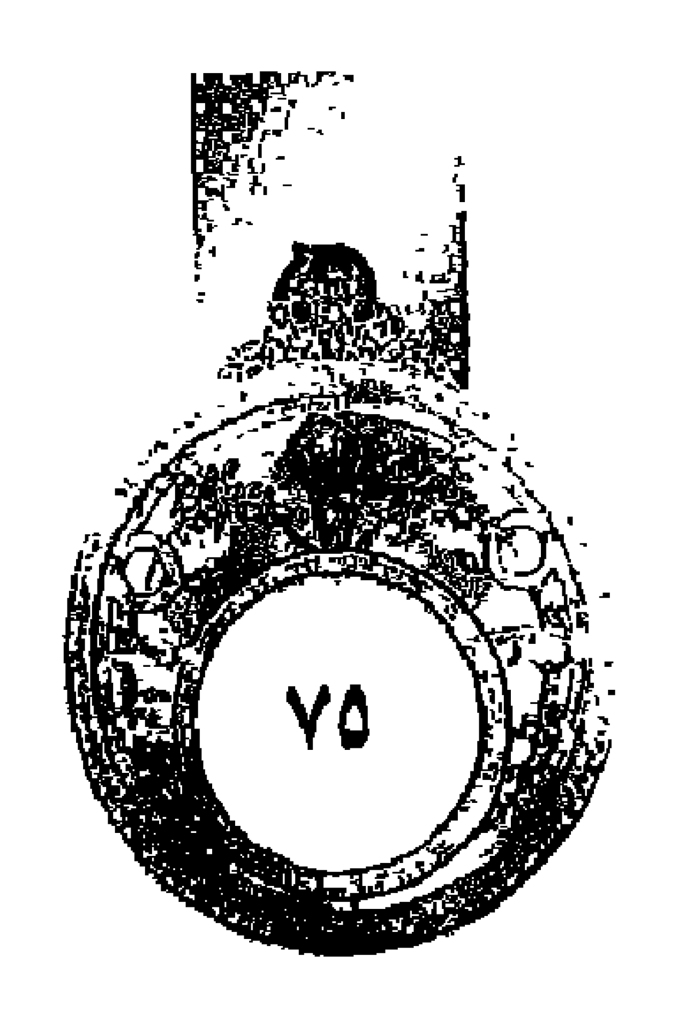
١٠ - عزيز سوريال عطيـة، العلاقات بين الشرق والغـرب، ترجمة فيليب صابر سيف، القاهرة، ١٩٧٢م.

١١ - ماير (إ. هـ.)، تاريخ الحروب الصليبيـة، ترجمة عماد الدين غانم، ليبيا، ١٩٩٠م.

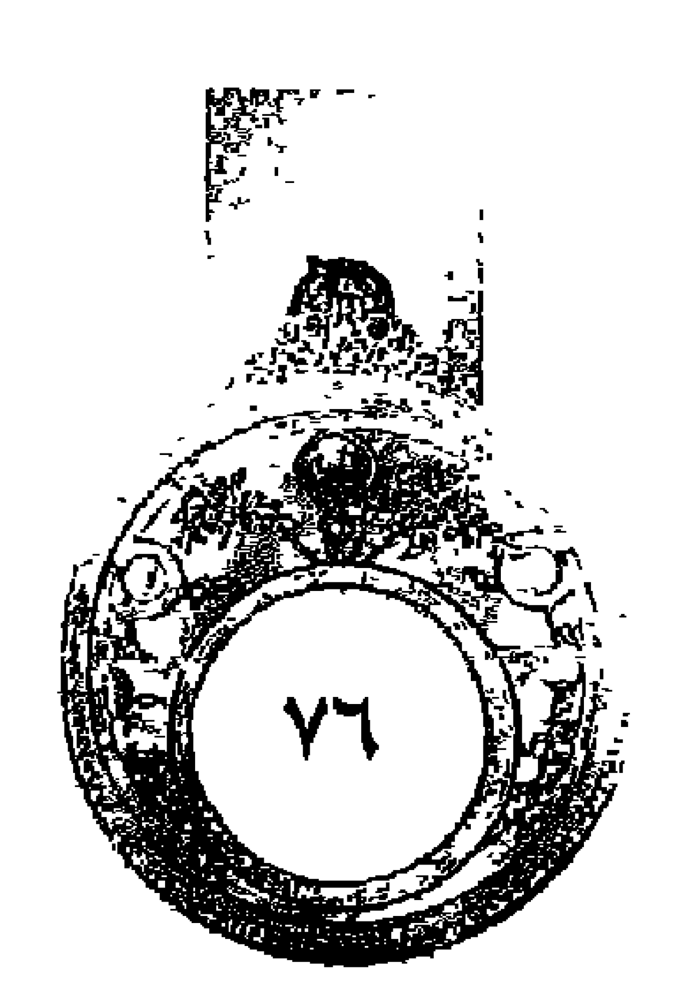
١٢ - محمد مـحمد أمين، السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، رسالة ماچستـير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة.

١٣ - محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع على مصر، القاهرة، بدون تاريخ.

١٤ - محمود سعيد عمران، الحملة الصليبية الخامسة، القاهرة ١٩٨٥م.


٧٥


المحتويات


٧٦



AlMalik AlKamil, the Ayyubid Sultan is a controversial figure amongst historians, both contemporary and modern.

Abu Al- Fedda had this to say about him, " He was a dignified strict administrator. Things in all walks of life were secure. He paid special attention to the Nile flood, aqueducts, and construction of various facilities."As for the great historian Maqrizi, he gave the following testimony, " He was a serious ruler, and totally abstained from blood- shedding. Routes during his reign became safe and secure, and merchants could move around with their gold and other precious commodities without any scruples."

On the other hand, some other historians blamed Al- Kamil for his leniency with Frederic II of Sicily during the sixth Crusade, because of unprecedented concessions to Frederic.

This work is primarily concerned with a reassessment of this Ayyubid Sultan.

Dr. Raafat Abdel Hamid



History is the most esteemed branch of human knowledge, thus a historian should abide by the virtue of objectivity, foresight and the readiness to learn from the lessons of the past in order to confront present and future challenges.

History is not a kind of tell-tale, rather it is the morale lying behind events and happenings. History again has a wonderful trait which is "continuum" from the past to the present, and ventures of the future.

Episodes of history are transformed from one generation to the other via the narrative which preserves the accomplishments of each and every historical epoch.

However, history does not in any way repeat itself, for every day there is something new and dynamic in our globe. It is true that the stage for events remains the same, but seasons change and the human being himself does change, socially and culturally as well.

In view of all these considerations, Dar El-Fikr-EL-Arabi, founded by Mr. Mohamed Mahmoud El Khodari, has taken on itself to foster this colossal project of a historical serial involving past, present, and contemporary records from a universal approach.

It is noteworthy that the authors of this serial are from the elite of the Egyptian historians.

We sincerely hope that the recipient will enjoy reading the volumes of this serial for which Dar- El-Fikr has devoted all its efforts and technologies to produce it in this colorful format.

Dr. Said Abdel Fattah Asshour

CONSULTATIVE COMMITTEE FOR:
THE ENCYCLOPAEDIA OF HISTORY, ARCHAEOLOGY AND CIVILIZATION

Correspondence & Communications:

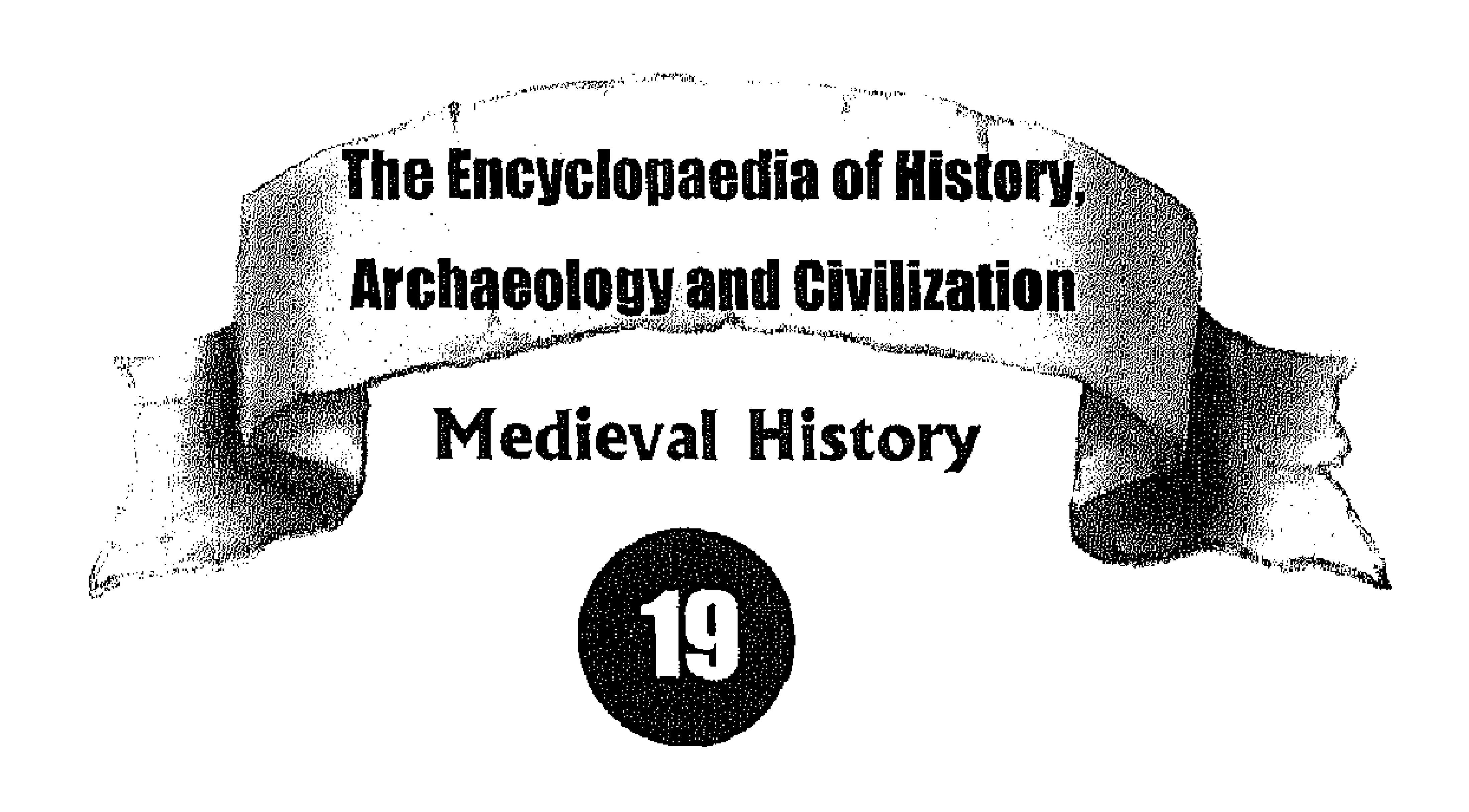
Dar El-Fikr El - Arabi

The Encyclopaedia of History, Archaeology and Civilization

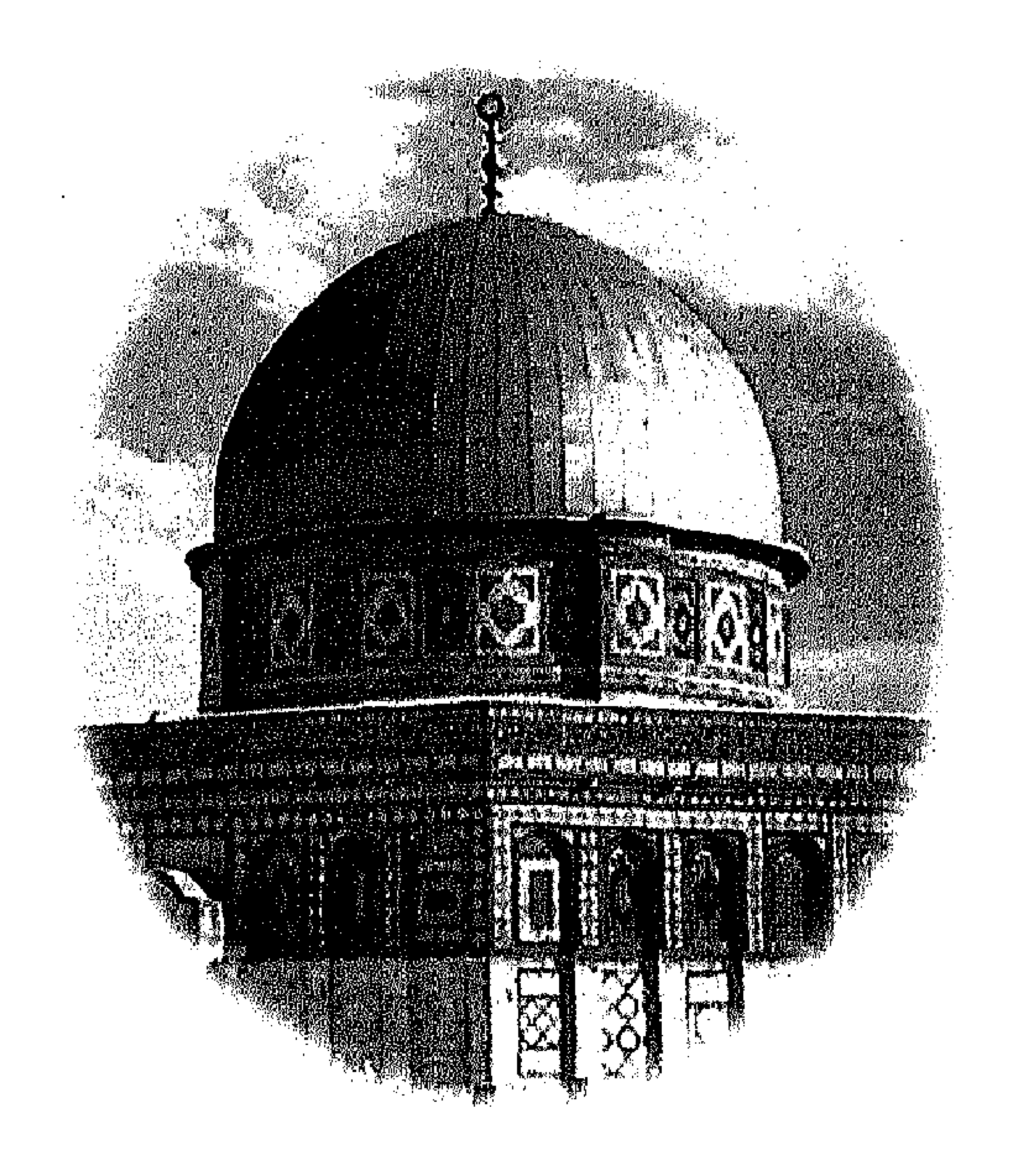
94 Abbas Al-Akkad St., Nasr City - Cairo - Egypt

Tel.: 2752984 Fax: 2752735

www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com



Al Malik Al Kamil



Dr. Raafat Abdel Hamid

Publisher
Dar Al-Fikr Al-Arabi
94 Abbas El - Akkad St. Naser City - Cairo
tel : 22752794 . Fax : 22752735
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

The Encyclopedia of History, Archaeology and Civilization



Al Malik Al Kamil



Dr. Raafat Abdel Hamid

